علم نفس



بول سي. فيتز

علم النفس دينًا

مذهب عبادة الذات

@ketab_n

ترجمة

د.عبدالقادر مساعد

علم النفس دينا
مذهب عبادة الذات

تأليف: باول فيتز

ترجمة:

د. عبد القادر مساعد الجهني

علم النفس دينا

مذهب عبادة الذات

هذا الكتاب صادر عن مشروع «مدّ» للترجمة الذي تقوم عليه دار أدب للنشر والتوزيع ضمن مبادرة إثراء المحتوى إحدى مبادرات مركز الملك عبد العزيز الثقافي العالمي (إثراء)

هذه الترجمة هي الترجمة العربية عن الإنجليزية لكتاب:

PSYCHOLOGY AS RELIGION
By
Paul C. Vitz

تنشر هذه الترجمة عن النسخة الأصلية للكتاب:

ⓒ دار أدب للنشر والتوزيع، ١٤٤٤ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

فيتز، بول سي. .

علم النفس دينا (مذهب عبادة الذات. / بول سي. فيتز؛ عبد القادر مساعد الجهني. - ط١. - الرياض، ١٤٤٤هـ

٢٨٨ ص؛ المقاس ١٤ × ٢١ سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩١٩٠٠-١-١

١- الذات أ. الجهني، عبدالقادر مساعد (مترجم) ب. العنوان

ديوي ١٥٨,١ ١٤٤٤/٨٥٣

رقم الإيداع: ١٤٤٤/٨٥٣
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩١٩٠٠-١-١

الطبعة الأولى
١٤٤٤هـ = ٢٠٢٢م



info@adab.com adab.com @adab

المملكة العربية السعودية-الرياض

المحتويات

مقدمة المترجم

لعل من الملاحظ في السنوات الأخيرة انتشار الكتب والدورات التدريبية والمحاضرات وكذلك الأفلام والمسلسلات التي تدور في فلك التمحور حول الذات، وتقدم وصفاتٍ جاهزة -أشبه ما تكون بوصفات الطعام- لتحقيق الأهداف الفردية في الحياة، بغض النظر عن تأثير ذلك على المجتمع والذي قد ينظر له نظرة سلبية، ومعظم هذه الوصفات نابعة من علم النفس الذاتي، الذي انتشر في الغرب في العقود الأخيرة من القرن الماضي، وما زال مؤثراً في قطاعات كبيرة رغم وجود بعض التراجع كما يقول مؤلف هذا الكتاب.

وتنبع أهمية هذا الكتاب للقارئ العربي من نواحٍ عدة؛ منها: انتشار المفاهيم المذكورة في الكتاب في العالم العربي عن طريق الكتب والدورات المقدمة، إضافة إلى انتشار الثقافة الأمريكية عبر السينما، مما يجعلنا متأثرين بهذه الأفكار سواء شعرنا بذلك أم لم نشعر، وكذلك تشابه الظروف الاقتصادية في دول الخليج مثلا مع الظروف الاقتصادية في الولايات المتحدة التي أفرزت هذه الأفكار، فانتشار الرفاه الاقتصادي جاء بضريبة على المستوى الاجتماعي والنفسي وإن كان المستوى مختلفاً.

ومما يعزز أهمية الكتاب أيضاً انتشار هذه الأفكار عبر وسائل التواصل الاجتماعي في صور مختلفة من تغريدات ومقاطع

ومقالات تعزز في مجملها القيمة الفردية للشخص وتجعله يدور في فلك نفسه ونفسه فقط بشكل أناني، يحسب حساب «الفائدة» من أي علاقة إنسانية، و نتج عن ذلك نوع من العزلة عن الآخرين، فنادرا ما تجد التواصل بين الجيران مثلاً، فكل مشغول بنفسه ولنفسه، بل وانشغل كثيرون عن والديهم وإخوانهم وأرحامهم وخاصة في المدن الكبيرة حيث تدور عجلة الحياة بسرعة كبيرة تضطر كل أحدٍ للجري وراءها للحاق بها، وما نتج عن ذلك من مشاكل نفسية حين يجد المرء نفسه وحيداً في مواجهة متاعب الحياة.

وقدم المؤلف عرضا تاريخياً لكبار المنظرين ونظرياتهم ونقداً لها من وجهة نظر علمية واجتماعية وكذلك دينية. وتجدر الإشارة إلى أن وجهة النظر التي قدمها المؤلف وجهة نظر مسيحية كاثوليكية تتفق مع وجهة النظر الإسلامية في بعض الوجوه الاجتماعية، ولكنها تختلف عنها في النواحي العقدية مثل: مفهوم الخطيئة الأصلية، وأن المسيح ابن الله (تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً) وسيشار في الهوامش لهذه الملاحظات.

وهدف الكتاب كما أشار المؤلف هو وضع علم النفس في حجمه الحقيقي وإزالة الهالة الكبيرة حوله، بل ويشكك في كونه علماً رغم اسمه، ويرى أنه أقرب إلى كونه ديناً وأيدولوجية منه إلى العلم.

أرجو أن يجد القارئ والقارئة في هذا الكتاب ما يفيد ويحفز على التفكير في هذا الموضوع المهم، وأود أن أتقدم بجزيل الشكر لسعادة

الدكتور عبدالله السفياني والأستاذ عبدالرحمن الخلف والزملاء الكرام في دار أدب على جهودهم في التحرير والمراجعة والطباعة، سائلا الله التوفيق والسداد للجميع.

ويسرني أن أتلقى أي ملاحظات حول الترجمة على إيميل:
Dr.AKM2021@gmail.com

ولكم خالص تحياتي

د.عبد القادر مساعد

هذا الكتاب

هـذا الكتـاب للقـارئ المهتـم بنقد علـم النفس المعاصـر، القارئ الذي يعرف -ربما بحدْسه- أن علم النفس أصبح يعتمد على المشاعر أكثـر مـن اعتماده على العلـم، وأنه أصبح الآن جزءًا من المشـكلة في الحياة المعاصرة بدلا من أن يكون جزءًا من الحل.

إن الحجـج النقديـة المقدمة هنا هي حجج علمية فلسـفية أخلاقية اقتصاديـة واجتماعيـة وأخيراً دينية، الهدف منها تقديم حججٍ ومفاهيمَ تسـمح للقـارئ ان يضـع علـم النفس المعاصـر في إطـار أصغر وأقل ضـرراً، ولكنـه يفضـي بالمحصلـة إلـى منظـورٍ مفيـد ودقيـق أكثر من المنظور السائد في الوقت الحاضر.

صـدرت الطبعـة الأولى مـن هذا العمل: **علم النفـس دينا- مذهب عبادة الذات** عام ١٩٧٧ وكانت فيما يبدو أول كتاب نقدي للشـخصية النرجسية في علم النفس المعاصر.

وبينما كان في الطباعة ظهر المقال الشهير لتوم وولف: Tom Wolfe: Me Decade أو (عَقـد الأنـا)، وفـي عام ١٩٧٨ ظهر كتاب كريسـتوفر لاش الأكثـر مبيعـا: *(ثقافة النرجسـية)*، وقـد أثبت لاش ببراعة انتشـار الأنانية والنرجسية في المجتمع الأمريكي المعاصر، ومعظمها نابعة من علم النفس وبعض التخصصات الأخرى التي ساهمت في ذلك.

وبعد ذلك بقليل عام ١٩٨١ صدر كتاب ديفيد مايرز: (the inflated self) *«الذات المتضخمة»*، والذي ناقش القابلية وربما الوهم الإنساني

الشائع لرؤية الأشياء من منظورٍ يتمحور حول الذات، ويدور حول عزو النجاح إلى إنجازاتنا بينما نُلقي الفشل على عاتق شخصٍ آخر أو على المجتمع، أو ببساطة على الحظ السيء.

وفي عام ١٩٨٣ أصدر اثنان من الأخصائيين النفسيين (مايكل والاك) و (ليز والاك) مراجعتهما النقدية لكل النظريات الرئيسة منذ فرويد، في كتابهما:

(Psychology's Sanction for Selfishness: The Error of Egoism in Theory and Therapy)

(عقوبة علم النفس للأنانية: خطأ الأنا من الناحيتين النظرية والعلاجية)

وأظهر أن كل النظريات النفسية المعاصرة عن التحفيز والشخصية تفترض أن مكافأة الذات (أي: الأنانية) هي المبدأ الأخلاقي الوحيد.

ويمكن القول باختصار: إن الالتزام الشديد لعلم النفس بالنرجسية والأنانية وعبادة الذات (الذاتانية) ظهرت جلية في علم النفس المعاصر.

وإضافة لهذه الكتب فقد جاء طوفان من النقد العام لعلم النفس وخاصة المعالجة النفسية، إلا أن هذه الانتقادات غالبا ما تهمل مشاكل الذاتانية وتركز على نواحي ضعفٍ أخرى من علم النفس، وأقوى الانتقادات العلمية جاءت من توماس سازاز في كتابه: (**أسطورة العلاج النفسي**) ١٩٨٧م "The Myth of Psychotherapy"، ومارتن جروس في كتاب: (**المجتمع النفسي**): "The Psychological

"Society"، وبرنـي زيربيركـدل فـي كتابه: **(انكمـاش أمريكا)** ١٩٨٣م "The Shrinking of America"

واستمرت الهجمة العلمانية على علم النفس بلا هوادة عبر كتاب: (الادعاء *النفسي*) Psychobabble 1979

إلـى *تزويـر الفرويـدي* Freudian Fraud 1991، ولعـل هـذا النقد القوي بدأ مع فيلب بريف بكتابه: **(انتصار العلاجية)** ١٩٦٦ Triumph of the Therapeutic

وفـي الوقـت ذاتـه فـإن النقـد المسـيحي لعلـم النفـس ذهـب إلى مسـتويات عالية في كتـاب مارتين وددري بوبقان: **(الطريق النفسـي/ الطريـق الروحـي)** صدر عام ١٩٧٨، ومثّل رفض علم النفس الشـامل للمسيحيين.

وفي رد أكثر علمية -وما زال يحمل الكثير من الفوائد- على موجة الرفـض تلـك؛ جـاء كتـاب ماري سـتيوارت فانلـي: **السـاحر المبتدئ** Mary Stewart Van Leeuwen in The Sorcerer's Apprentice (1982)

كما عالج كيرك كيلباتريك W. Kirk Kilpatrick هذا الإشكال في كتابين نالا شهرة كبيرة وهما: *(الإغراء النفسي)* ١٩٨٢ Psychological Seduction و(*ملابس الامبراطور الجديدة*) عام ١٩٨٥.

كمـا ظهـر أيضـا كتابٌ عُـدَّ من الأفضـل مبيعا -بالرغـم من تطرف بعـض آرائـه- لديـف هانـت وتـي أي ماكمهاونـز بعنـوان: *(إغـراء المسـيحية)* ١٩٨٥ Dave Hunt's and T. A. McMahon's The Seduction of Christianity

كما أصدر دون براوننج Don S. Browning كتابه: *(أفكار دينية وعلم النفس المعاصر)* عام ١٩٨٧ Religious Thought and the Modem Psychologies، وهو تحليل علمي للافتراضات الأخلاقية والفلسفية التي قال بها كبار علماء النفس المعاصرين.

وما زال النقد الديني لعلم النفس مستمراً، فعلى سبيل المثالِ كتاب: (لا إله إلا الإله) 1992 no god but god

لأو اس جينس وجون سيل.

وربما كان الجد الأكبر لهذا النقد المسيحي كتاب: *(القدرة على التعزية)* competent to console والذي صدر عام ١٩٧٢ من تأليف جاي آدامز Jay Adams.

وبالرغم من تقدم فهمنا لعلم النفس منذ ١٩٧٧ إلا أنه لم يحصل الا القليل من التغيير في كيفية عمل علم النفس في مجتمعنا أو كيفية تدريسه في كلياتنا وجامعاتنا.

ولعل الحديث عن علم النفس الآن لا يحظى بالشعبية نفسها التي كان يحظى بها في منتصف السبعينيات في القرن الماضي، لكن ما زلنا كما وصفنا ريف Rieff «المجتمع العلاجي»

وما زال تحقيق الذات والاستمتاع هي التفسيرات الأساسية لهدف كل شيء، من التعليم الجامعي إلى الحياة نفسها، وربما يقلق الكثير من المسيحيين من فقدانهم لذواتهم أكثر من فقدانهم لأرواحهم.

وفي أقسام علم النفس في الجامعات يدرس مئات الآلاف من الطلاب كل عام مقررات في علم النفس لم يذكر فيها شيء إطلاقاً عن الكتب والتحليل النقدي الذي ذكر سابقا.

وبعيداً عن اهتمامها بالجدل العلمي والعقلي، فما زالت أقسام علم النفس ومقرراتها تركز على دعم التخصص في المحافظة على انتظام الطلاب في الدراسة وعلى رفع الروح المعنوية لأعضاء هيئة التدريس، ومن هنا أصبح هناك حاجة لنسخة جديدة مراجَعة من كتاب: (**علم النفس دينا- مذهب عبادة الذات**)؛ للتأكيد على عدد من النقاط التي وردت في الطبعة الأولى مع الأخذ بالاعتبار الأعمال التي ظهرت منذ ظهور الطبعة الأولى.

وكما يوحي العنوان فسوف يناقش هذا الكتاب كيف أصبح علم النفس ديناً أو مذهباً بذاته، وأعنى بهذا: رؤية شاملة للعالم، أو فلسفة حياة، أو أيدولوجيا.

وبشكل أكثر تحديداً فإن علم النفس المعاصر نوع من العلمانية الإنسانية مرتكزة على رفض الإله وعبادة الذات، وطرق النقد التالية مع ذلك لا تفترض توجهاً دينيا، ولكنها تضع أنصار علم النفس الإنساني في مواجهة نقد علم النفس نفسه.

والخطاب النقدي الرئيس هنا مسيحي الديانة، وسيظهر في شكل جلي في الفصول التالية، فالمسيحية كسائر الأديان التقليدية لديها الكثير مما هو على المحك في هذا النقاش، ولعله من الملاحظ أن النقد المقدم يعتمد على اللاهوت المسيحي، ولكنها استنتاجات متطابقة وقريبة لبقية الديانات التوحيدية.[١]

وهذا العمل مقدم بروح التعاون مع الأديان الأخرى، وخاصة اليهودية في النضال المشترك ضد تأثير علم النفس المعاصر

---

(١) حديث المؤلف ينبع من النظرة اللاهوتية المسيحية الكاثوليكية وتتطابق في بعض الجوانب الاجتماعية مع النظرة الإسلامية وتختلف في الأسس العقدية. (المترجم)

وسأجادل بشكل خاص في خمسة محاور:

١- علم النفس باعتباره دينًا واقع ومنتشر بشكل واسع في كل أنحاء الولايات المتحدة.

٢- علم النفس باعتباره دينًا يمكن نقده بطرق عديدة مستقلة عن الدين.

٣- علم النفس باعتباره دينًا بشدة للمسيحية.

٤- علم النفس باعتباره دينًا مدعوم بشكل كبير في المدارس والجامعات والبرامج الاجتماعية المدعومة بالضرائب المدفوعة من قبل الملايين من المسيحيين، واستخدام أموال الضرائب لدعم ما يمكن اعتباره أيديولوجية علمانية له عواقب سياسية وقانونية.

٥- علم النفس باعتباره دينًا كثيراً ما دمر أشخاصاً وعائلات ومجتمعات لسنوات عديدة، ولكن اتضح في السنوات الأخيرة المنطق الهدام لهذا النظام العلماني، وأصبح الناس أكثر وعيا بخواء عبادة الذات، ولدى الدين فرصة تاريخية لإعطاء معنى للحياة.

ولا أعتذر عن حدة بعض انتقاداتي فالتعرف على القضايا المعنية لا تزال في بداية الطريق مع أنها قضايا غاية في الخطورة، ولكن حان الوقت للأكاديميين والمثقفين المسيحيين للتحدث علنا دفاعاً عن الإيمان بغض النظر عن المخاطر المهنية والعزلة التي قد تترتب على ذلك، وكثير منا في مواقع استراتيجية لمراقبة وتحليل الاتجاهات المعادية للدين في المجتمع، والتي قد تغيب عن نظر اللاهوتيين وقد تكون متغلغلة في المعاهد الدينية اليوم بحيث يصعب ملاحظتها.

وهنا نبذة عن سيرتي الذاتية حيث يأتي الكثير من التحليل اللاحق عبر تجربتي الشخصية طالبًا وأخصائيا نفسيا أكاديميا في ال ٣٥ عاما الماضية، وقد كنت طالباً جامعياً في جامعة ميتشجان من عام ١٩٥٣ الى ١٩٥٧ وتخصصت في علم النفس في آخر ثلاث سنوات من دراستي.

اتبعت في الكلية أفكارا تدعو إلى التمرد على التربية المسيحية الاسمية (ربما يحدث هذا في المدرسة الثانوية الآن).

قد قرأت برتراند رسل وأعلنت أنني ملحد وكنت أفخر باستقلالي الذي حصلت عليه بشق الأنفس وكانت خيبة أملي الوحيدة أن إعلان إلحادي قوبل من الآخرين بما يمكن وصفه على أفضل حال على أنه مجرد تثاؤب.

كانت مسيحيتي الاسمية والسطحية ضعيفة لدرجة أن رفضها كان أقل أهمية بالنسبة لي من انفصالي عن صديقتي على سبيل المثال، ونتيجة لذلك كانت فترة عدائي النشط للمسيحية قصيرة جداً لمدة بضعة أشهر فقط في سنتي الثانية.

وبعد ذلك بدأت فترة (اللاأدرية) وعشت فترة طويلة لا أبالي بالدين وكان ذلك الوقت الذي كرسته لأصبح عالما نفسيا عبر التركيز على دراساتي الجامعية من ١٩٥٧ الى ١٩٦٢ والدراسات العليا من ١٩٦٤ الى ١٩٦٥ في جامعة ستانفورد، وتخصصت هنا في موضوعات الدافعية والشخصية والتي تضمنت تعلم النظرية الذاتية وتعليم أصحابها، وفي دراساتي العليا كان التعامل مع الدين باعتباره مفارقة تاريخية مثيرة للشفقة، ومن حين لآخر كانت المعتقدات الدينية

للشخص «تقاس» في اختبارات الشخصية، وكان التفسير الشائع آنذاك هو أن الأشخاص الذين يحملون وجهات نظر دينية تقليدية كانوا شخصيات فاشية استبدادية، كما كان هناك بعض الاهتمام بالدين من جانب علماء النفس الاجتماعي الذين أرادوا دراسة أنظمة المعتقدات الغريبة، وقد تمكنت عبر اطلاعي على تخصصات الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع أن هذه المواقف المماثلة كانت شائعة لدى الناس في هذه المجالات.

وبعد عام أو نحو ذلك من حصولي على الدكتوراه بدأت اهتماماتي في التحول إلى علم النفس التجريبي لا سيما الإدراك والمعرفة وعلم الجمال، وكان سبب هذا التحول الجزئي في الاهتمام؛ وعيي المتزايد بأنني وجدت أن الكثير مما تتضمنه نظرية الشخصية الإنسانية مشوش فكريا وسخيف إلى حد ما، وقد وجدت أن العديد من الحجج المقدمة هنا قد خطرت لي أول مرة في منتصف الستينيات، وما زلت أتذكر محاضراتي في الفصل عندما أدركت فجأة أنني كنت أقول أشياء لم أكن حقاً أصدقها، وعندما تكتشف أنك تدرس شيئا لم تعد تعتقد أنه صحيح فذلك يعتبر أمراً مثيراً للقلق إن أردنا تلطيف العبارة.

واستمر هذا الشك النقدي في النمو، وبحلول عام ١٩٦٨ أو نحوها لم أعد على استعداد لتدريس دورات الدراسات الجامعية أو العليا التي تتطلب مني تغطية المنظرين الذاتيين، ولعله كان من الممكن أن تبقى الأشياء كما هي غير أنه وقع حدثان غير متوقعين: أولهما: تطور الحماس الجماهيري على الصعيد الوطني لنظريات الذاتية الإنسانية في نفس الوقت الذي كنت أبتعد فيه عنها، والثاني: هو اعتناقي للمسيحية، ولا يوجد شيء مثير حول اعتناقي للمسيحية

-فلا توجد ولادة جديدة مفاجئة ولا تجربة صوفية- وإنما كان هناك قدر كبير من الاضطراب العاطفي الشديد المرتبط بانهيار مُثُل العلمانية مصحوباً بتغيير ينمو بهدوء في قلبي وفي عقلي، ويبدو أن هذه العملية قد بدأت في وقت ما عام ١٩٧٢، ومنذ ذلك الحين اكتشفت أني مجرد شخص مسيحي فقير، ولكن حياتي حصل فيها تغيير كبير.

ومن الجدير بالذكر أن هذا الأمر حدث لعالم نفس علماني -غير مستعد إطلاقاً -ومعروف بتمرده حيث كان يعتقد أن الاتجاه الطبعي الوحيد للتغيير كان الاتجاه المعاكس تماما، وبالتأكيد لم تكن لديه نماذج مماثلة متاحة في علم النفس.

وحين أصبحت مسيحيا زودني ذلك بوجهة نظر مختلفة تماما عن علم النفس بالإضافة إلى دافع قوي لتطوير بحث نقدي كنت قد بدأته قبل عدة سنوات.

وهنا أصل إلى قصتي حين كتبت هذا الكتاب لأول مرة منذ أكثر من ١٥ عاما، وقد ساهم نشره في العديد من التغييرات المهمة في حياتي التي حدثت من ذلك الحين، والأهم من ذلك جعلني على اتصال بعدد صغير لكنه مهم للغاية من المسيحيين، بعضهم من علماء النفس والآخرين من التخصصات المختلفة والذين كانوا أيضا يعانون من عدد من المشكلات التي كانت تشغل بالي، وأقدر كثيراً دعمهم لي حيث قاموا بالكثير لإبقائي على اتصال بمجتمع فكري مسيحي غني ومبتكر، ولقد أدت حقيقة أنني أصبحت كاثوليكيا في عام ١٩٧٩ إلى توسيع نطاق تواصلي الفكري بشكل أكبر وإلى حد كبير أنا ممتن جدا أنه لم تتدخل كاثوليكيتي في علاقاتي وتحالفي مع العديد من

البروتستانت وخاصة الإنجيليين فنحن في نفس النضال وجميعنا يعرف ذلك.

وأحد التغييرات الرئيسة الأخرى منذ الإصدار الأول كان محاولاتي الأخيرة لتطوير نوع من «علم النفس المسيحي الإيجابي» وهذا يشمل العمل على نموذج سردي لتقديم الاستشارات، وكتابي عن (سيغموند فرويد) مع يسوع بصفته ضد أوديب، واستخدام مفاهيم التحليل النفسي لدعم فكرة الخطيئة الأصلية، بالرغم من انني اعتقد أنه يمكن (تعميد) جوانب مهمة من علم النفس إلا أنه ما زال يصعب التمييز بين ما يمكن أو لا يمكن دمجه بأمان.

وتزيد المشكلة تعقيدا بسبب الهجمات العلمانية القوية على الشرعية الأساسية لعلم النفس سواء كتخصص علاجي أو كتفسير بالإضافة إلى ذلك شهدت العقود الأخيرة زيادة هائلة في الفهم البيولوجي والقدرة على التحكم في السلوك، بينما من ناحية أخرى أوضحت روحانية العصر الجديد للكثيرين- الذين لا يتبعون النهج المسيحي -أن التفسير العلماني للدين ونبذ الحياة الروحية كان خطأ فادحاً.

وعلى مدار العشرين عامًا الماضية فقد علم النفس الكثير من الأرضية الفكرية لصالح علم الأحياء والروحانية، وباختصار لم يعد علم النفس علماً شاباً، بل أصبح الان حقلًا معرفيًا كهلًا، وأصبح أقل ثقة بالنفس وأقل سطوة مما كان عليه منذ وقت ليس ببعيد.

ومع ذلك فإن عداء معظم علماء النفس للمسيحية لا يزال حقيقيا، ولسنوات كنت جزءًا من هذا العداء واليوم ما يزال يحاصرني، إنه

عداء غريب لا سيما أن علماء النفس نادرا ما يدركون ذلك ويرجع قلة وعيهم في الغالب إلى الجهل المطلق لماهية المسيحية أو حتى أي دين اخر، فالجامعات علمانية للغاية لدرجة أن معظم الأكاديميين لا يستطيعون توضيح سبب معارضتهم للمسيحية فهم يفترضون فقط أنه بالنسبة لجميع الأشخاص العقلانيين فإن موضوع كونهم مسيحيين قد انتهى وأصبح من الماضي.

وهناك اختلاف واحد مثير في هذا العداء الذي نشأ في منتصف السبعينات وفي السنوات التي تلت ذلك، فقد أصبح واضحا أن الدين في جميع أنحاء العالم ما زال حيا ومؤثراً، وربما تكون قوة انتشار الإسلام أوضح مثال لذلك.

ولكن أهمية الكاثوليكية بالنسبة لبولندا والأرثوذكسية الشرقية لسقوط الشيوعية معروفة بشكل عام، وفي الولايات المتحدة أوضح ما يسمى بالحقوق الدينية ومسألة الإجهاض أن المسيحية ليست ديناً علمانياً منفصلاً عن الواقع.

وفي إسرائيل تظهر اليهودية الأرثوذكسية والحركة الحسيدية نشاطاً ملحوظاً، وفي غضون ذلك تستمر اليهودية والمسيحية الليبرالية في الاضمحلال، وماذا عن ذلك «الدين السياسي» المسمى الاشتراكية؟» حسناً، لقد انهار ببساطة.

وينظر الأكاديميون المنعزلون عن الواقع الديني في أبراجهم العلمانية العاجية اليوم إلى الدين بمزيد من القلق أكثر مما كانوا عليه عام ١٩٧٧م ولكن العداء والجهل يتجددان من جديد.

وأخيرا هناك بعض أنواع علم النفس سأقوم باستبعادها من مناقشتنا:

١- علم النفس التجريبي، وهو دراسة الإحساس والمعرفة والذاكرة وحل المشكلات والأسئلة ذات الصلة فذلك لا يشمله النقاش، فهذا النوع من علم النفس الموجود أساسا في الجامعات ومراكز البحث هو فرع من العلوم الطبيعية ويشتمل على أجزاء من الاحياء والفيزياء والرياضيات وغيرها.

٢- نظرية وفلسفة علم النفس المعروفة بـ (السلوكية)، ولعل المثال الأكثر شهرة هو ب ف سكينر B. F. Skinner فأيضا لن تُناقَش هنا نظرًا لأنها لا تشترك كثيرا مع علم النفس الإنساني ونقدها سيحمل مناقشتنا لمجال بعيد، وكان هناك نقد كبير للسلوكية فليس لدي ما أضيفه إليه وبالمثل فالنسق العلاجي المعروف بتعديل السلوك مستبعد؛ لأن تقنياته ومبادئه من علم النفس التجريبي وفلسفته من السلوكية.

٣- التحليل النفسي؛ حيث إن الكثير من علم النفس الذاتي هو رد فعل ضد النظريات والأساليب الفرويدية الأكثر تعقيدا، وانتقاد التحليل النفسي بقدر من الدقة يتطلب مناقشة تقنية لكثير من المواد التي لا تمت بصلة لعلم النفس الذاتي وهذا من شأنه أن يطيل المناقشة ويشوش التركيز على جوهرها.

وعندما كتبت هذا الكتاب لأول مرة لم أُضَمِّن علم النفس الشخصي الشامل أو ما يمكن أن يسمى علم النفس الروحاني؛ لأنه كان جديدًا

جدا وكان من الصعب معرفة ما قد يؤول إليه أمره، ولكن في هذه الطبعة المنقحة والموسعة كرست الفصل التاسع لنقد علم النفس الروحاني وروحانية العصر الجديد مع التركيز على أسسهما النفسية.

كما سيُعمد إلى استبعاد مجموعة أخيرة وهم علماء النفس الذين يدركون ويحترمون ويستجيبون للقضايا الدينية الحقيقية في حياة مرضاهم، وهذه المجموعة ليست كبيرة ولا يمكن حصرها بسهولة، وتشمل علماء النفس الملتزمين شخصيا بدين ما، والذين يدمجون عقيدتهم عند الحاجة في العلاج، ولكنه أيضا يشمل العلمانيين منهم الذين قادتهم أفكارهم إلى رفض الدين المعاصر لعلم النفس الذي يعمل كبديل سطحي لشيء حقيقي ويساهم في إفساد وظيفة العلاج النفسي المهمة وهذا المجموعة من علماء النفس هم الذين يوفرون أساسا للأمل في أن تتطور شراكة قوية في النهاية بين علم النفس والدين، وبالرغم من هذه الاستثناءات فسيبقى قدر كبير من علم النفس الحديث، وفي الواقع معظم علماء النفس الممارسين اليوم متأثرين بشدة بنظريات الذات الإنسانية، كما قبل العديد من المحللين النفسيين الأمريكيين الكثير من علم النفس الذاتي بحيث يصعب تصنيفهم كفرويديين .

وبالمثل كثيرا ما تبنى معالجو تعديل السلوك فلسفات مختلفة بتحقيق الذات وتقدير الذات في حياتهم الشخصية وكجزء من أخلاقياتهم المهنية، ولطالما كان علم النفس التربوي مشبعا بمفاهيم تحقيق وتقدير الذات.

ويمكن القول باختصار: إن تقاليد أمريكا الانتقائية تعني أن كل أشكال علم النفس المعاصرة فيها جزء كبير من النظريات تحت النقد هنا.

الفصل الأول

كبار المُنظّرين

سأبدأ بتوثيق الطبيعة الدينية القوية لكثير من علم النفس اليوم، ويعرض هذا الفصل بإيجاز المواقف النظرية ذات الصلة لكارل يونغ - أحد مؤسسي علم النفس الذاتي - ثم مواقف آخرين من أصحاب النظريات الذاتية؛ مثل: إريك فروم، وكارل روجرز، وأبراهام ماسلو، ورولو ماي (ربما تنبع أهميته في المقام الأول كممثل لعلم النفس الوجودي).

سأقدم وصفاً عاماً لنظريات هؤلاء وغيرهم من أصحاب النظريات الذاتية بإيجاز، وكذلك نقد هذه النظريات في الفصل التالي، وسأقدم في الفصول التالية نقداً تفصيلياً للأفكار الشائعة لنظرية علم النفس الذاتي.

واختير يونغ، وفروم، وروجرز، وماسلو، وماي كأكثر منظري علم النفس الذاتي تأثيرًا، وقد ساهم علماء نفس آخرون في نظرية الذاتانية، لكنهم بشكل عام لم يكونوا ملتزمين تمامًا بمفهوم الذاتانية.

فعلماء النفس المختصين بالتحليل النفسي -على سبيل المثال - بمفاهيمهم عن مجال الأنا الخالي من الصراع وآليات الدفاع عن النفس، والتي طورها هاينز هارتمان وآنا فرويد وآخرون في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي، لا يمكن اعتبارهم من علماء علم

النفس الذاتي المخلصين للفكرة، لبقائهم ملتزمين بالكثير من نظريات فرويد التقليدية.

كما أن التركيز على الذات موجود، ولكنه لم يكن قوياً في أعمال مشاهير المتمردين السابقين على الفرويدية الأرثوذكسية من أمثال رانك وأدلر وهورني.

ومع ذلك، بقدر ما يركز هؤلاء المنظرون الذين أغفلناهم على الذات -على سبيل المثال، أدلر بمفهومه عن الذات الإبداعية، وهورني باهتمامها بإدراك الذات - فإن أفكارهم وتأثيرهم مماثل لتلك التي سنقدمها لاحقا.

كارل يونغ

وُلِد يونغ في سويسرا عام ١٨٧٥، وكان والده قسًا في الكنيسة السويسرية الإصلاحية، وقد تمرد على والده ودين والده، وحصل يونغ على شهادة الطب عام ١٩٠٠ ثم تخصص في الطب النفسي، وبعد ذلك بوقت قصير، التقى سيغموند فرويد، وعملا معاً لبضع سنوات، وأعقب ذلك فترة استراحة جادة ودائمة.

وكان يونغ ينتقد تركيز فرويد الشديد على النشاط الجنسي، كما كان أيضًا أقل اهتمامًا بعلم النفس المرضي وأكثر اهتمامًا باحتياجات الناس الروحية.

وفي الواقع، كان يونغ مدركًا تمامًا للطبيعة الدينية للعلاج النفسي، وكان الطابع اللاهوتي لكثير من كتاباته واضحًا، فعلى سبيل المثال،

يعد كتاب An *Answer to yob*[1] *(إجابة أيوب)* جهداً كبيرا وغير تقليدي في تفسير الكتاب المقدس.

ويتضح إدراك يونغ الواضح للمسألة الدينية عندما كتب: «يجبر المرضى المعالج النفسي على القيام بدور الكاهن، ويتوقعون ويطالبون بتحريرهم من القلق والضيق، ولهذا السبب يجب علينا نحن المعالجون النفسيون أن ننشغل بالمشاكل التي تخص الجانب اللاهوتي بالمعنى الدقيق للكلمة»[2].

وقدم علم النفس بمنظور يونغ - على عكس فرويد - مفاهيم إيجابية وبناءة يمكن أن تكون بمثابة هدف منشود ليس للعلاج فحسب ولكن أيضًا للحياة بشكل عام، وقد استجاب يونغ لطلب المريض بإراحته من الضيق أكثر من استجابة فرويد.

ويلخص جاكوبي -وهو أحد طلابه المتميزين- استجابة يونغ للاحتياجات الدينية الأساسية للمريض بقوله:

إن العلاج النفسي بطريقة يونغ يمكن تلخيصه بالكلمة الألمانية a Heilsweg بمعناها المزدوج: طريقة للشفاء وطريقة للخلاص، فقد كانت لديه القدرة على العلاج بالإضافة إلى أنه يعرف الطريق ويملك الوسائل لقيادة الفرد إلى «خلاصه»، وإلى معرفة وإشباع حاجات شخصيته، والتي كانت دائمًا هدف الكفاح الروحي.

---

(1) Carl Jung, An Answer to Job, trans. R. F. C. Hull (London: Routledge and Kegan Paul, 1954).

(2) Carl Jung, Modem Man in Search of a Soul (New York: Harcourt, Brace, 1933), p. 278.

ويمكن شرح نظام يونغ من الناحية النظرية فقط إلى نقطة معينة؛ ولفهمه تمامًا، يجب أن يعيش المرء التجربة بنفسه، وبصرف النظر عن الجانب الطبي، فإن العلاج النفسي عند يونغ عبارة عن نظام تعليمي وتوجيه روحي.

ويتابع جاكوبي أن حركة نظام يونغ على هذا المسار «مهمة صعبة للغاية أخلاقيًا وفكريًا»، ولا يكاد ينجح فيها إلا قلة محظوظة مصطفاة من الرحمة الإلهية.

والمرحلة -العملية بالأحرى- الأخيرة في مسار يونغ للتفرد تسمى الإدراك الذاتي، والهدف من الإدراك الذاتي هذا هو في جوهره هدف معرفي، حيث حلت الوصية «اعرف وعبر عن نفسك» محل الوصية اليهودية والمسيحية «أحب الإله والآخرين».

(في كثير من النواحي، يمكن تفسير كل علم النفس الحديث مهما كان القناع النظري - بسبب التركيز على المعرفة الخاصة والباطنية إلى حد ما - على أنه جزء من هرطقة معرفية واسعة).

ويمكن القول باختصار شديد، أن عملية الإدراك الذاتي هذه تتضمن:

(١) اكتشاف المريض وفهمه للأنماط الأصلية (أي: البنية والرغبة) في اللاوعي الجماعي والشخصي.

(٢) تفسير هذه النماذج الأصلية والتعبير عنها في حياة المريض.

وعلى أي حال، يفترض نموذج يونغ ببساطة أن الهدف من الحياة هو تحقيق الذات، كهدف أو غرض للحياة، ولا يمكن تبرير تحقيق

الـذات علميًا؛ فهـو يقوم على افتراضات فلسـفية وأخلاقية لم تخضع للفحص العلمي.

ولا يركز علم نفس يونغ بشكل صريح على التفرد (تحقيق الذات)، ولكنه يهتم بالتفسير الرمزي لأحلام المريض وكتاباته ورسوماته، إلخ.

ويركـز تحليـل يونـغ هنـا علـى اللاوعـي الجماعـي والشـخصي للمريـض وعلـى النمـاذج الأوليـة والمفاهيـم الأخـرى، ويقـر يونـغ بالاهتمامات الدينية الأساسية للمريض، ويُطبّق علم نفس يونغ مباشرة على التعبير عن الدوافع الدينية الأصلية للمريض، فعلى سبيل المثال: فـي الأحلام حـول الرجل العجوز الحكيم (نمـوذج الإله الأصلي في التراث)، والأحلام حول إعادة الميلاد، وما إلى ذلك.

إن اكتشـاف يونغ لعلم نفس الرموز الدينية مهم، ولكن مع كل هذا التركيـز علـى الحيـاة الداخليـة للفـرد، هنـاك خطـر حقيقـي يتمثل في استبدال التجربة النفسية للعقل الديني للفرد بالتجربة الدينية الحقيقية التـي تأتـي عبر إله سـام خالق متصـرف، وأولئك الذيـن يرتكبون هذا الخطأ إنما يعاملون علم النفس حقًا على أنه دين.

إريك فروم ERICH FROMM،

وُلِـد إريـك فـروم عـام ١٩٠٠، وتلقـى تعليمـه فـي هايدلبـرغ وفرانكفـورت وميونيـخ، وتلقى تدريبًا في التحليل النفسـي في برلين، وجاء إلى الولايات المتحدة عام ١٩٣٣، وعاش في الولايات المتحدة والمكسـيك معظـم حياتـه، وقـد كان فـروم فـي الأصل محللًا نفسـيًا فرويديًـا، لكنـه خـرج عن هـذا التقليد فـي الثلاثينيـات، ورفض فروم

تأكيدات فرويد على الطبيعة البيولوجية للبشرية، ولا سيما الجدل حول إدراج فرويد للعدوان (غريزة الموت) كجزء أساسي من الطبيعة البشرية، كما أن فرويد أعطى العدوان نفس أهمية الجنس (غريزة الحياة)، بينما ركز فروم -على النقيض من ذلك -على المجتمع باعتباره المحدد الرئيس للشخصية البشرية.

وعلى وجه الخصوص، فقد وصف فروم الطبيعة البشرية بأنها خيّرة في جوهرها بطبيعتها، ونسب أي شيء سيء أو شرير إلى المجتمع، خاصة عندما يدفع المجتمع الفرد إلى إنكار إمكاناته الخاصة للنمو والتعبير.

وباستثناء التأثير اللاواعي للمجتمع، تجاهل فروم نظرية التحليل النفسي التقليدية للعقل اللاواعي (الأحلام على سبيل المثال).

وبالرغم من انفصاله عن التقليد الفرويدي، ظل فروم متأثرًا بشدة بفرويد، وكثيرا ما يستشهد به أو ينتقده، وقد وافق فرويد في ميله لتوصيف أنظمة المعتقدات الثقافية والمؤمنين بها من حيث الأنواع النفسية، مثل: أنواع السمات «الاستغلالية» و«التسويقية» للمجتمع الرأسمالي أو المعتقدات «النمطية» و«المتحفظة» التي تميز عقيدة التثليث المسيحية.

وهذا نموذج من ملاحظات فروم:

لقد ميزت روح الفخر والتفاؤل الثقافة الغربية في القرون القليلة الماضية، وفخر الإنسان له ما يبرره- بحكم سببه- فقد بنى عالماً مادياً يتجاوز واقعه حتى أحلام ورؤى الحكايات الخيالية واليوتوبيا.

كما أنه سخر الطاقات المادية التي ستمكن الجنس البشري من تأمين الظروف المادية اللازمة لوجود كريم ومنتج، وبالرغم من أن العديد من أهدافه لم تتحقق بعد، فلا شك في أنها في متناول اليد وأن مشكلة الإنتاج - التي كانت المشكلة في الماضي - قد حُلت من حيث المبدأ.

ويتحدث في مكان آخر من نفس الكتاب بنفس الروح المتفائلة لخصائص الشخصية البشرية:

سأحاول أن أبين أن بنية الشخصية الناضجة والمتكاملة، الشخصية الإنتاجية، تشكل مصدر وأساس «الفضيلة»، وأن «الرذيلة» -في نهاية المطاف -هي الاستهانة بالذات أو تشويهها.

لا يمكن اعتبار نبذ الذات ولا الأنانية - بل تأكيد الذات الإنسانية الحقيقية- هي القيم العليا للأخلاق الإنسانية، وإذا كان للإنسان أن يثق في القيم، فعليه أن يعرف نفسه وأهلية كيانه للخير والإنتاجية.

ومن هذا المنظور، لا يُنظر إلى قيمةٍ مثل حب الجار على أنها ظاهرة تتجاوز الإنسان؛ وإنما شيء متأصل فيه ويشع منه، والحب ليس قوة عليا تنزل على الإنسان ولا واجباً مفروضاً عليه، وإنما هي قوته الخاصة التي يتصل بها مع العالم ويجعله حقًا ملكه.

وهذا بالطبع له عواقب على تصور المرء عن طبيعة الإنسان في حد ذاتها:

فالموقف الذي تتخذه الأخلاق والقيم الإنسانية بأن الإنسان قادر على معرفة الصواب والتصرف وفقًا لقدراته الطبيعية وأسبابه المنطقية،

لا يمكن الدفاع عنه إذا كانت عقيدة الشر الفطري الطبعي للإنسان صحيحة.

ويتضح عداء فروم للمسيحية في كتاب *عقيدة المسيح* *The Dogma of Christ*، حيث يجادل بأن الإيمان بالإله يعمل دائمًا في صف الحكام.[1]

(هذا موقف لا بد أنه وجد صعوبة في التوفيق بينه وبين اضطهاد المؤمنين المسيحيين من قبل الحكام الملحدين في الاتحاد السوفيتي سابقاً أو ألبانيا أو الصين؛ وبعد سقوط الشيوعية في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي، فادعاؤه يبدو ببساطة غبياً).

ويزعم فروم أن المسيحية نشأت من طبقة بروليتارية محبطة للغاية في آمالها في التغيير السياسي والاجتماعي، لدرجة أنها تحولت للبحث عن الخلاص في عالم خيالي مما وراء الطبيعة.

وموقفه الديني واضح تمامًا في فكرة يجب *أن تكونوا كالآلهة*؛ لقد تطور مفهوم الإله لدرجة أن الجنس البشري هو الإله، وإذا كان هناك إله مقدس موجود فهو مرتكز في النفس ونفوس الآخرين، إن مجتمع فروم المثالي هو اشتراكية إنسانية مجتمعية، والتي قدمها بتفصيل كبير في كتابه المجتمع *العاقل* (The Sane Society 1955).

وفي جميع أعمال فروم، يتغلغل إلحاده وماديته وآراؤه السياسية وقيم أخرى في تصوره لعلم النفس، بحيث يصعب تحديد تلك المساهمات التي يمكن اعتبارها علمية إلى حدٍّ مقبول.

---

(1) Fromm, Dogma of Christ, p. 15.

كارل روجرز CARL ROGERS،

وُلد كارل روجرز، وهو أمريكي من الغرب الأوسط، في عام ١٩٠٢، ويصف نفسه بأنه «الطفل الأوسط في عائلة كبيرة محافظة حيث كان العمل الجاد والمسيحية البروتستانتية شديدة المحافظة موضع احترام على حد سواء».

وتخرج في عام ١٩٢٤ من جامعة ويسكونسن، بعد أن تحول من العلوم الزراعية إلى دراسة اللاهوت، والتحق بمدرسة الاتحاد اللاهوتية في مدينة نيويورك، حيث تعرف على وجهة النظر الفلسفية الليبرالية فيما يتعلق بالدين، وبعد زيارة قصيرة إلى الخارج أعلن تركه المسيحية، مقررًا أنه يريد مساعدة البشرية دون أن يثبطه أي التزام مسبق بمجموعة ثابتة من المعتقدات التي لم تكن حقيقتها واضحة له، وانتقل إلى كلية المعلمين بجامعة كولومبيا، حيث تأثر بفكر جون ديوي، وحصل على درجة الدكتوراه في عام ١٩٢٨.

وقد تعرف روجر على نظريات نفسية مختلفة، ثم طور تصوره الخاص، والذي أصبح مؤثرًا للغاية، وهنا لا نناقش أسلوبه في العلاج المسمى «غير التوجيهي» أو «المتمحور حول العميل»، وإنما نركز على نظريته عن الشخصية وأهداف العلاج، فالمحور الأساسي لأهدافنا هو *أن تصبح شخصاً ما*.

هنا يوضح روجرز هدف العلاج على النحو التالي:

إذا كان بإمكاني إنشاء علاقة تتميز من جانبي بالأصالة والشفافية، والتي أعبر فيها عن مشاعري الحقيقية، عبر قبول وتقدير الشخص الآخر كفرد مستقل؛ وبقدرة حساسة على رؤية عالمه ونفسه كما يراه

هـو؛ فذلـك يتيـح له اكتشـاف جوانب في نفسـه ربما لم يكـن يعرفها، وسيشـعر أنـه قد أصبح أكثـر تكاملاً وأكثـر قدرة على العمـل بفعالية؛ باختصار سـيصبح أكثر شبهاً بالشـخص الذي يود أن يكون، وسيكون أكثر قدرة على التحكم بنفسـه وأكثر ثقة بها، ولديه القدرة على التعبير عن نفسـه، وسـيكون أيضـاً أكثر تفهمـاً وتقبلاً للآخرين، كما سـيكون قادراً على التعامل مع مشاكل الحياة بشكل أكثر فعالية وراحة.

وأعتقد أن هذا الكلام يمكن أن ينطبق على حديثي عن علاقتي مع عميل أو مع مجموعة من الطلاب أو الموظفين أو مع عائلتي وأطفالي، ويبـدو لـي هنـا أن لدينـا فرضية عامـة تقـدم إمكانيات مثيـرة للاهتمام لتنمية الأشخاص المبدعين والقادرين على التكيف والاستقلالية.

لقـد أصبـح العـلاج النفسـي -الـذي كان يومًا مـا نشـاطًا محدودًا ومتخصصًا- أصبح الآن يشمل جميع علاقات الحياة.

وتتجـه كتابـات روجرز نحو عمليـة العلاج أكثر بكثيـر من كتابات فـروم، وهـو يميل إلـى تجاهـل الخلفيـات الثقافية والتاريخية ويفسـر العلاج على أنه عملية تغيير ونمو ذاتي ويقول:

سأفترض أن المراجِع يشعر بأنه مُتقبل بالكامل، أعني بهذا أنه مهما كانت مشاعره؛ الخوف واليأس وانعدام الأمن والغضب، ومهما كانت طريقة تعبيره؛ الصمت أو الإيماءات أو الدموع أو الكلمات، أيا كان ما يجـد نفسـه فـي هذه اللحظـة، فإنه يشـعر أنه مقبـول كما هـو، من قبل المعالج.

وبشكل أكثر وضوحًا، يصف روجرز نظريته في العلاج على النحو التالي:

الأفـراد يتحركـون -بـدأت أرى ذلك- ليس من الثبـات أو الاتزان عبـر التحـول إلى ثبـات جديد بالرغم مـن أن مثل هـذه العملية ممكنة بالفعل. لكن الاستمرارية الأكثر أهمية هي من الثبات إلى التغيير، من الجمود إلى التدفق، ومن الركود إلى الحركة.

وفـي المرحلـة الأولـى مـن العمليـة العلاجيـة، يكـون الشـخص متجمدا، ساكنا، ومحجوبًا تمامًا، إما أنه غير مدرك لمشاعره وعواطفه أو ينسـبها إلى ظروف خارجية موضوعية، وبحلول المرحلة الثانية أو الثالثة (من سبع مراحل)، كان لدينا أشخاص قاموا بوصف ما يلي:

«ومع ذلك، هناك مسـألة، حسـنًا، إلى أي مدى تترك نفسك منفتحا لموضـوع الـزواج؟ وإذا كانت مسـيرتك المهنية مهمة -وهي الشـيء الوحيـد الـذي يعنيـك حقًـا في هـذه المرحلـة- فهي تضع قيـودًا على تواصلك».

فـي هـذا الاقتباس، تعتبر الذات كائنًا بعيـدًا لدرجة أنه من الأفضل تصنيفها على أنها بين المرحلتين الثانية والثالثة.

هنـاك أيضًـا تعبير عـن الذات ككائـن منعكس، موجود أساسًـا في الآخرين.

وهناك الكثير من التعبير عن المشـاعر ووصف المعاني الشـخصية غير موجود الآن.

وهنـاك قبـول ضئيـل جـدا للمشـاعر، وفـي أحاييـن كثيـرة، ينظـر للمشـاعر باعتبارها شـئياً مخجلاً أو سـيئاً أو غير طبيعي أو غير مقبول من نواح أخرى.

ويصف روجرز المرحلة الخامسة على النحو التالي:

يُعبَّر عن المشاعر بحرية كما هي الان.

«أتوقع أن أقابل برفض شديد نوعا ما - هذا ما أتوقعه طوال الوقت -، وبطريقة ما أعتقد أنني أشعر به معك، ومن الصعب التحدث عنه لأنني أريد أن أكون في أفضل حالاتي حين أكون معك».

المشاعر قريبة جدًا من أن تكون محسوسة بشكل كامل، فهي «تتجمع كفقاعة» و«تتسلل»، بالرغم من الخوف وانعدام الثقة اللذين يشعر بهما المراجِع عند تجربتها بامتلاء وعفوية.

وتتحدث المراجِعة عن حدث خارجي حصل لها بقولها:

«ظهر هذ بشكل ما وأنا لا أفهمه.. وتوقفت طويلا ثم أضافت: أنا أحاول التعرف على ماهية هذ الشيء المخيف».

وفجأة ظهرت عليها نظرة مؤلمة محطَّمة.

المعالج: «ماذا - ما الذي تشعرين به الآن؟».

المراجِعة: «لا أعرف.. وتجهش بالبكاء.. لابد أنني اقتربت جدًا من شيء لم أرغب في الحديث عنه، أو شيء من هذا القبيل».

وتتوج طريقة روجرز في العلاج بالمرحلة السابعة وهي الأعلى ويمكن تلخيصها فيما يلي:

تنتقل العملية من نقطة الثبات، حيث تُميّز جميع العناصر بشكل منفصل وتكون مفهومة بشكل منفصل أيضاً، إلى لحظات الذروة للعلاج حيث تُنسج كل هذه الخيوط معًا بشكل لا يمكن فصله.

وفي التجربة الجديدة التي تحدث في مثل هذه اللحظات، يتداخل الشعور والإدراك، وتكون الذات حاضرة بشكل شخصي في التجربة، ويمكن تعريف الإرادة أنها ببساطة المتابعة الذاتية للتوازن المتناغم للاتجاه العضوي، حيث يصبح الشخص وحدة تدفق، أو حركة، ويمكن القول إنه أصبح عملية تغيير متكاملة.

أبراهام ماسلو ABRAHAM MASLOW

ولد أبراهام ماسلو عام ١٩٠٨ ونشأ في بروكلين، وتلقى تعليمه أولا في جامعة ويسكونسن، ثم أمضى سنواته المهنية المبكرة في مدينة نيويورك في كلية كولومبيا للمعلمين وكلية بروكلين، بالرغم من أن نظريته عن الذات التي طورها بشكل مستقل قريبة من نظرية روجرز، لكن مفاهيمه المميزة تستحق الذكر.

جاء ماسلو بفكرة التسلسل الهرمي للاحتياجات البشرية، وهذا التسلسل الهرمي، الذي يُفترض أن أساسه فطري، يتطلب تلبية الاحتياجات بترتيب ثابت نسبيًا، بدءًا من الاحتياجات الفسيولوجية الأساسية ومبادئ السلامة، وانتهاءً باحتياجات الانتماء والحب، واحترام الذات والحصول على مكانة، وأخيراً الوصول إلى الغاية القصوى، وهي الحاجة إلى تحقيق الذات كما يسميها ماسلو. هذه الحاجة الأخيرة هي الأكثر تميزًا وإنسانية، بالرغم من أنها تعتمد على الإشباع المسبق للاحتياجات الأقل لأجل تحقيقها.

والشخص الذي تُشبع فيه هذه الحاجة النهائية هو الشخص المحقق لذاته، وهو نوع مثالي له الخصائص المميزة التالية:

(١) الإدراك الفعال للواقع والتعايش معه.

(٢) قبول الذات والآخرين.

(٣) العفوية.

(٤) استقلال ذاتي عن الثقافة المحيطة.

(٥) الإبداع (السمة العالمية المميزة للشخص المثالي بين أصحاب النظرية الذاتية).

(٦) وجود تجارب روحية وصوفية.

(٧) يؤمن بقيم الديمقراطية والمساواة والإنسانية [١].

ويواصل ماسلو حديثه عن الصفات الأساسية لهذه الأنواع المحققة لذاتها ويقول:

قبل بضعة قرون، كان من الممكن وصف هؤلاء جميعًا بأنهم رجال يسيرون في طريق الإله أو رجال أتقياء، وربما يقول البعض إنهم يؤمنون بالإله، لكنهم يصفون هذا الإله على أنه مفهوم ميتافيزيقي أكثر من كونه شخصية محددة.

وإذا عُرّف الدين من منظور السلوك الاجتماعي فقط، فهؤلاء جميعًا يعتبرون أشخاصاً متدينين، بما في ذلك الملحد، ولكن إذا استخدمنا مصطلح الدين بشكل أكثر تحفظًا بحيث يشدد على تضمين عنصر خارق للطبيعة وعلى الطبيعة المؤسسية للعقيدة (وهو بالتأكيد الاستخدام الأكثر شيوعًا)، فستكون إجابتنا مختلفة تمامًا، فتقريبا لا أحد منهم يعتبر متدينا.

---

(1) Abraham Maslow, Motivation and Personality, 2d ed. (New York: Harper, 1970), chap. 11.

إن الإبداع سمة عامة لجميع الأشخاص الذين أُخضعوا للدراسة أو ملاحظتهم بدون استثناء، فكل واحد يظهر بطريقة أو بأخرى نوعًا خاصًا من الإبداع أو الأصالة أو الابتكار له مميزات معينة خاصة به، وهو من ناحية أخرى، يختلف عن الإبداع الخاص بموزارت مثلا.

وقد نواجه أيضًا حقيقة أن من يسمون بالعباقرة يُظهرون قدرات لا نفهمها، ومثل هذه الموهبة التي قد لا نهتم بها هنا لأنها لا ترتكز على الصحة النفسية أو الرضا الأساسي، فإن إبداع الإنسان المحقق لذاته يبدو بالأحرى قريبًا من الإبداع الفطري للأطفال.

ويذكر ماسلو أسماء بعض هؤلاء القديسين العلمانيين: لينكولن في أيامه الأخيرة، توماس جيفرسون، أينشتاين، إليانور روزفلت، جين أدامز، ويليام جيمس، سبينوزا، والت ويتمان في بعض آرائه، ثورو، بيتهوفن، جورج واشنطن كارفر، جوته، يوجين ف. ديبس، ألبرت شفايتسر، وهلم جرا.

رولو ماي وعلم النفس الوجودي ROLLO MAY AND EXISTENTIAL PSYCHOLOGY

آخر منظّرينا هو رولو ماي، وهو مهم بالنسبة لنا؛ لأنه يجسد تأثير الفلسفة الوجودية على علم النفس الأمريكي، ولد عام ١٩٠٩، وحصل على درجة البكالوريوس في الآداب من أوبرلين، وبكالوريوس في اللاهوت من معهد اللاهوت الاتحادي، والدكتوراه في كلية كولومبيا للمعلمين (وبالتالي فإن خلفيته التعليمية مشابهة بشكل ملحوظ لخلفية روجرز وماسلو: فقد انتقلوا جميعًا من ولايات في منطقة البحيرات العظمى إلى مدينة نيويورك وكلية كولومبيا للمعلمين).

وتأتي مساهمة ماي الخاصة في نظرية تحقيق الذات من التأثير الأوروبي للوجودية، والذي تعرف عليه لأول مرة في دراساته العلاجية النفسية في فيينا، ومن المعروف أن الوجودية كفلسفة يصعب توصيفها بصرامة، والعلاج الوجودي له نفس الصعوبة، ومع ذلك، من الممكن التعرف على بعض الموضوعات الخاصة في العلاج الوجودي التي تمثل خطاً مميزًا في إطار نظرية الذات.

وربما يكون المفهوم المركزي هو «الوجود هناك»، وهو ما يعني الوعي الأساسي المكثف بوجود المرء.

وقد وصفت هذه التجربة الأساسية من قبل مريضة تابعة لماي، وهي مريضة شابة كتبت:

ثم ماذا بقي؟ ما تبقى هو هذا، «أنا»، وهذا الاتصال والقبول بـ «أنا»، بمجرد الحصول عليها، أعطاني (ما أعتقد أنه كان بالنسبة لي للمرة الأولى) التجربة التي كنت أطمح لها، والتي أعطتني الأحقية في أن أكون أنا.

كيف تبدو هذه التجربة؟ . . . إنها تجربة حياتي الخاصة، وأقول لديكارت: «هذه أنا، لذلك، أنا أعتقد وأشعر وأفعل»[1].

وتجربة «أنا» هذه هي التجربة الأساسية للوجود، وبالرغم من أنها ليست بحد ذاتها حلاً لمشكلة المريض، إلا أن ماي يدعي أنها شرط مسبق وضروري لتحليل ناجح.

- إن إحدى الخصائص المهمة للوجود أنه يرفض التمييز بين الذات العارفة والمجرّبة وبين الشيء المعروف أو المجرَّب.

---

(1) Rollo May, Evistence(New York: Basic Books, 1958), p. 43

وبدلاً من ذلك، يعتبر مفهوم الوجود جزءًا أساسيًا من محاولة فهم الإنسان الوجودية عبر قطع الفجوة بين الذات والشيء، وهو ما أفسد الفكر الغربي والعلم خلال فترة وجيزة بعد عصر النهضة، وهذه الحالة من الوجود لا تنفصل عن نقيضها وهي حالة اللاوجود أو العدم.

ويؤدي الوعي باللاعنف ومواجهته - لا سيما في صورة الموت - إلى نشوء مشاعر القلق القوية والواسعة الانتشار (الخوف أو القلق)؛ لذلك في صميم الفكر الوجودي توجد حالة منتشرة من القلق المتفشي وهي تجربة التهديد الوشيك بالعدم.

ويحدث هذا الوجود في عالم أو كون يوصف بأنه «التواجد في العالم»، وهناك ٣ جوانب للعالم الوجودي وهي («العالم المحيط» أو البيئة)، و(«العالم مع الآخرين» أو حياتنا من العلاقات الاجتماعية والشخصية)، والجانب الأكثر مركزية، («العالم الخاص»، أي: عالم الذات والعلاقة مع الذات).

وقد يمكن الوجود في أكثر من عالم من هذه الثلاثة في نفس الوقت، ولكنها مجتمعة معًا تمثل المجالات الوحيدة التي يكون فيها وجودنا.

والمفهوم الوجودي المهم هو «الصيرورة»، وهي عملية التطوير الذاتي أو تحقيق إمكانات المرء الشخصية، وتتكشف هذه العملية عن طريق اختيار الذات لمسارها الخاص لتحقيق ذاتها، وتعمل الأفعال الاختيارية على نقل الذات من الوجود الأولي إلى الذات المحققة، مع طبيعة أو جوهر ينشأ عبر اختياراتها، وهكذا، توجد الذات أولاً (أي: «أنا»)، ولكن بدون أي طبيعة أو جوهر ابتدائي، وبدلاً من ذلك، ينشأ جوهر الذات عبر الاختيارات الشخصية.

وتُتخـذ هـذه الخيـارات بشـجاعة فـي مواجهـة وعي الـذات بعدم الوجود وتجربتها للقلق، وينشـأ الشـعور بالذنب عبر الفشل في تطوير إمكانـات الـذات، عبر حجب أو تجاهل فرصـة الفرد في أن يصل إلى مستوى يناسب إمكاناته.

التسـامي هـو اسـم القـدرة المهمـة للـذات الوجودية علـى تجاوز المسـتوى السابق من التطور الذاتي أو الصعود إليه، وهكذا، مع تطور الإمكانات الذاتية، فإن كل مرحلة جديدة هي تجاوز للمراحل السابقة؛ غالبًا ما تسمى هذه العملية «الصيرورة».

ويشير رولو ماي إلى أن كارل روجرز -بالرغم من أنه لم يكن على اتصال مباشـر بالوجودية - فقد طور علاجًا له جوانب وجودية مهمة، لا سـيما في تأكيدات روجرز على قدرة المعالج وعلى خبرة المعالج المباشرة مع نفسه ومع المريض.

ويضيـف: إنـي أنطلـق فـي العلاقة العلاجيـة بفرضيـة أو إيمان بأن إعجابي وثقتي وفهمي للعالم الداخلي للشـخص الآخر، سـتؤدي إلى عمليـة مهمـة وهـي الصيـرورة، ويضيف: أدخـل العلاقة ليـس كعالـم وليس كطبيب يمكنه التشخيص والعلاج بدقة، ولكن كشخص، أدخل في علاقة شخصية؛ لأني لو اعتبرته مجرد كائن او شيء، فإن المريض يميل إلى أن يصبح مجرد كائن أو شيء.

والنقطة الأخيرة المهمة هي ادعاء علم النفس الوجودي أن قوانين العلم الطبعي لا يمكن تطبيقها على البشر، ويعبر جان بول سارتر عن هـذا علـى أنه «رفـض لاعتبار الإنسـان قابـل للتحليل والاختـزال إلى المعطيـات الأصلية، إلـى الرغبات (أو الدوافـع) المحددة» بعكس ما يحدث في خصائص وعناصر الأشياء المادية.

باختصار، العلاج الوجودي - مثل الفلسفة الوجودية - يبدأ بالذات المنعزلة، المدركة لوجودها الأساسي، لكنها تواجه عدم الوجود وما يرتبط به من مشاعر الرهبة، وهذه الذات، التي يقدرها المعالج ويتقبلها مباشرة، تُشجّع، في مواجهة عدم الوجود بشجاعة لتطوير قرارات تُتخذ ذاتيًا من شأنها أن تحقق إمكاناتها، وهذا النشاط الفائق، أو الصيرورة عبر الاختيار، يخلق أيضًا جوهر الفرد.

ومن ناحية أخرى، يؤدي الفشل في تحقيق الإمكانات الذاتية إلى الشعور بالذنب، وعندما تنجح هذه العملية، يكون الفرد الذي كان له مجرد وجود في البداية، قد صنع جوهره أو جوهرها.

ويمكن الوصول إلى هذه المعرفة الذاتية عبر تعلم المريض معنى الحالات التي يمر بها وفقًا لشروطه الخاصة، أي: بشكل ظاهري، وليس عبر بعض الفلسفة الموضوعية، كما هو موجود في العلوم الطبيعية، وكل هذا يحدث في كون يستبعد الإله ويقتصر على ثلاثة جوانب: البيئة الخارجية، والبيئة الاجتماعية والشخصية، والذات وعلاقتها بنفسها.

الفصل الثاني

نظرية الذات للجميع

كان يونـغ وفـروم وروجرز وماسـلو وماي جميعًـا منظّرين، ولكن كان لا بـد مـن ترجمـة مفاهيمهـم - مهمـا كان تأثيرها علـى المثقفين والطلاب - إلى مفاهيم مبسطة تصل إلى أعداد كبيرة من الناس.

وبعـض مـن قـام بهـذه الترجمة دفـع بأفـكار هـؤلاء المنظرين إلى التطـرف، وبالتالـي لا ينبغـي تحميل المنظريـن المسـؤولية عنه، ومع ذلك، يجب أن لا يغيب عن الأذهان أن الدعاة هم في الأساس علماء نفس أو أطباء نفسـيون محترفـون، وأن أعمالهم تمثل عرضًا واقعياً أو امتدادًا منطقيًا لنظرية الذاتانية.

وفي الواقع، لا يمكن رسم الخط الفاصل بين «المنظّر» و «المروّج للأفـكار» بدقـة، فباسـتثناء يونغ، ليس من المرجح أن يسـتحق أي من المنظريـن السـابقين التصنيـف كمفكـر رئيس، ففي أحسـن الأحوال، إنهـم قامـوا بتقديم مفاهيـم مثيرة للاهتمـام ومفيدة ولكنهـا محدودة، وفي أسـوأ الأحوال، يمكن أن يقال إنهم ببسـاطة قاموا بتسـويق أفكار موجـودة بالفعـل مثـل تحقيق الـذات، ولا يمكـن تمييز عـدد كبير من أعمالهم عن الأعمال الرائجة في هذا المجال.

وأستحضر بشكل خاص عملين قدمهما روجرز الأول: *مجموعات الدعم*. والثاني: *التحول إلى شركاء: الزواج وبدائله*، وسنناقش كليهما لاحقاً.

ومن المهم أن نضع في الاعتبار أن العديد من التعبيرات الخاصة لنظرية الذات -مثل تلك التي سنصفها- عرضة لأن تكون قصيرة الأجل، فبالرغم من بروزها قبل بضع سنوات، يبدو أن مجموعات الدعم -على سبيل المثال- قد اختفت تقريبًا، ولكن ما زالت أشكال جديدة من نظرية الذات المشهورة تظهر باستمرار مثل الاهتمام الكبير اليوم بتقدير الذات.

تقدير الذات

من الناحية التاريخية، ليس لمفهوم تقدير الذات أصول فكرية واضحة، ولم يجعله أي مُنظِّر رئيس مفهومًا مركزيًا، وقد أكد العديد من علماء النفس على الذات بطرق مختلفة، لكن التركيز المعتاد كان على تحقيق الذات، وتحقيق كامل إمكانات الفرد، ونتيجة لذلك، من الصعب تتبع المصدر المباشر لهذا التركيز على تقدير الذات.

وعلى ما يبدو، فإن هذا الانشغال الواسع الانتشار هو نتيجة الاهتمام العام بالذات الموجود في العديد من النظريات النفسية، ويبدو أن تقدير الذات قاسم مشترك يسود كتابات العديد من المنظرين مثل كارل روجرز وأبراهام ماسلو وعلماء نفس «قوة الأنا» والعديد من المعلمين الأخلاقيين في العصر الحديث.

وعلى أية حال، فإن الاهتمام بشأن تقدير الذات يمتد في كل مكان في أمريكا اليوم، ويوجد بشكل واضح في عالم التعليم؛ من أساتذة التربية إلى مديري المدارس والمعلمين ومجالس إدارات المدارس والبرامج التلفزيونية المعنية بالأطفال في سن ما قبل المدرسة.

إن الفكـرة الأساسـية لتقديـر الذات فـي التعليم الأمريكـي هي أنه يجـب علـى المعلمين الحديث للطلاب عن مـدى روعتهم وأهميتهم وإعطائهـم تدريبـات فـي المناهـج الدراسـية تجعـل الطـلاب (أو المعلميـن) يقولـون أو يكتبـون جميـع أنـواع الأشـياء الإيجابيـة عـن أنفسهم، وهذا غالبا ما يسمى «حديث النفس» أو الحديث الذاتي.

وفي ولاية كاليفورنيا، أُنشئ فريق عمل لإدخال تعليم تقدير الذات في المناهج الدراسية على جميع الصفوف الدراسية وفي مواد دراسية مختلفة، ويعتقد مطورو هذه المادة في كاليفورنيا أن تدني تقدير الذات كان سببًا رئيسًا لكل شيء؛ من تعاطي المخدرات إلى حمل المراهقات إلـى انخفـاض درجـات القـراءة والرياضيات إلـى مشـاكل الانضباط ومعدلات التسرب المدرسي العالية، وقد تضمنت الاقتراحات لزيادة تقديـر الذات منح المكافآت والجوائـز وغيرها لجميع الطلاب بغض النظر عن الأداء، و لم يُربط تقدير الذات بالأداء لأن هذا من شـأنه أن يزيـد مـن احتمـال الفشـل، أو نقـص الأداء، والـذي مـن شـأنه -وفقًا للنظرية- أن يديم تدني تقدير الذات.

وقد يرد سؤال ما الخطأ في مفهوم تقدير الذات؟

وفي الحقيقة هناك الكثير من الأخطاء الأساسية في طبيعته، وهناك آلاف الدراسات النفسية حول تقدير الذات، خلاصتها أن تقدير الذات مفهـوم معقـد، يتم تعريفه وقياسـه بعدة طرق مختلفـة وغامضة (مثل: الصـورة الذاتية، قيمة الـذات، قوة الأنا، إلخ). وبغض النظر عن معنى تقديـر الـذات، لا يوجد دليـل موثوق يدعم فائدة ارتفـاع تقدير الذات للتنبؤ بالسلوكيات المهمة.

ولا يوجد دليل موثوق على أن تقدير الذات العالي بحد ذاته يكون سبباً في أي شيء، وفي الواقع، حقق الكثير من الأشخاص الذين لا يملكون سوى القليل منه قدرًا كبيرًا في سياق أو آخر.

فعلى سبيل المثال، كشفت غلوريا ستاينم - مؤلفة ورائدة في الحركة النسوية -مؤخرًا في كتاب: **الثورة من الداخل: كتاب تقدير الذات**، أنها عانت من تدني تقدير الذات.[1]

وعلى النقيض من ذلك، فإن كثيرا من الأشخاص الذين يتمتعون بتقدير كبير للذات تكمن سعادتهم فقط في كونهم أغنياء أو أنهم يتمتعون بالجمال أو بالعلاقات الاجتماعية، كما أن من الأشخاص الذين لوحظ احترامهم لذاتهم تجار المخدرات، الذين يشعرون عمومًا بالرضا عن أنفسهم، فهم رغم كل شيء، نجحوا في جني الكثير من المال في بيئة معادية وتنافسية.

وقارنت دراسة أجريت عام ١٩٨٩ المهارات الرياضية بين الطلاب في ثماني دول مختلفة، حيث احتل ٥ طلاب أمريكيين المرتبة الأدنى في الكفاءة الرياضية، بينما احتل الطلاب الكوريون المرتبة الأعلى، وطلب الباحثون أيضًا من الطلاب تقييم مدى براعتهم في الرياضيات، فاحتل الأمريكيون المرتبة الأعلى في القدرة الرياضية بحسب التقدير الذاتي، بينما احتل الكوريون المرتبة الأدنى، فيبدو أن تقدير الذات الرياضي له علاقة عكسية بالإنجاز الرياضي!

وهذا بالتأكيد مثال على علم نفس «الشعور بالسعادة» الذي قد يَمنع الطلاب من الإدراك الدقيق للواقع، وتتنبأ نظرية تقدير الذات بأن

---

(1) Gloria Steinem, Revolution from Within: A Book of Self-Esteem (Boston: Little, Brown, 1992).

أولئك الذين يشعرون بالرضا عن أنفسهم هم فقط من سيبلون بلاءً حسنًا - ولهذا تفترض أن كل الطلاب يحتاجون إلى تقدير الذات - لكن الشعور بالرضا عن نفسك قد يجعلك ببساطة مفرط الثقة، ونرجسيًا، وغير قادر على العمل الجاد.

وأنا لا أعني أن تقدير الذات المرتفع يرتبط دائمًا بشكل سلبي بالإنجاز، وفي الواقع، يُظهر البحث المذكور أعلاه أن مقاييس تقدير الذات ليس لها علاقة مباشرة بالسلوك، سواء كان إيجابيًا أو سلبيًا، ويعود ذلك جزئيًا إلى أن الحياة معقدة للغاية بحيث لا يمكن لمفهوم بسيط كهذا أن يكون ذا فائدة كبيرة، ولكن يجب أن نتوقع هذا الفشل مقدمًا، فنحن نعلم جميعًا ونعرف الأشخاص الذين تحركهم دوافع الشعور بعدم الأمان والشكوك الذاتية.

وكثيراً ما يكون هؤلاء أبطال وأشرار التاريخ معاً، ويوثق التاريخ وجود بعض الرجال ذوي المكانة المتدنية في تاريخ القيادة العسكرية العدوانية؛ فقد كان يوليوس قيصر ونابليون وهتلر وستالين جميعًا رجالًا ذوي مكانة متدنية صمموا على إثبات أنهم «كبار».

ولا يبدو غريباً أن يتغلب الرياضيون العظماء وغيرهم على الإعاقات الجسدية الخطيرة، ونقص الثقة بالنفس الناتج عن الإعاقة، ويبدو أن العديد من الإنجازات المتفوقة ترجع إلى ما أسماه عالم النفس ألفريد أدلر «التعويض الزائد» ردًّا على «عقدة النقص».

ولا تكمن الفكرة في أن الشعور بالسوء تجاه أنفسنا أمر حسن، ولكن هناك شيئان فقط يمكنهما حقاً تغيير شعورنا حيال أنفسنا، وهما:

تحقيق إنجازات حقيقية، وامتلاك شعور بالثقة الحقيقية في النفس، فلذلك الإنجاز الحقيقي في العالم الحقيقي يخلق ويبرر مواقفنا.

فمثلاً حين يتعلم الطفل القراءة، ويتمكن من حل مسائل الرياضيات، ومن العزف على البيانو أو لعب البيسبول، سيكون لديه إحساس حقيقي بالإنجاز والشعور المناسب بتقدير الذات.

ولذلك فإن المدارس التي تفشل في تعليم القراءة والكتابة والحساب تفسد الفهم الصحيح لتقدير الذات، والمعلمون الذين يقولون «لا تقم بتقييم الطلاب، ولا تصنفهم، وعليك أن تجعلهم يشعرون بالرضا عن أنفسهم» هم من يسببون المشاكل، فليس من المنطقي أن يشعر الطلاب بالثقة بالنفس إذا كانوا خاويي الوفاض من المعرفة، وسوف تنفجر بالونة أوهامهم عندما يواجهون الواقع، وسيتعين عليهم مواجهة حقيقتين مزعجتين؛ أولاهما أنهم جاهلون، والأخرى أن الكبار المسؤولين عن تعليمهم قد خذلوهم وكذبوا عليهم، ففي العالم الحقيقي، يجب أن يكون الثناء مكافأة لشيء جدير بالاهتمام، أي: يجب أن يكون الثناء مرتبطاً بالواقع.

وهناك طريقة أكثر جوهرية يتوصل بها معظم الناس إلى تقدير الذات الحقيقي، وإلى مشاعر تقدير الذات وما يسميه علماء النفس «الثقة الأساسية» وذلك عبر تلقي الحب، منذ البداية متمثلا في حب الأم لطفلها.

ولكن هذه التجربة التأسيسية للحب والثقة بالنفس لا يمكن تزييفها، فعندما يحاول المعلمون خلق هذه التجربة العميقة والمهمة عبر «التظاهر» بأنهم «يحبون» جميع طلابهم وعبر مدح الجميع بشكل عشوائي، فإنهم يسيئون فهم طبيعة هذا النوع من الحب.

ويمكن القول ببساطة أنه لا يمكن للمعلم «تصنيع» الحب الأبوي في بضع دقائق من التفاعل يوميًا «لكل واحد» من عشرات الطلاب الذين يعلمهم، ولا يعرف الطفل أن هذا الحب مزيف فحسب، بل يعرف أيضًا أنه من المفترض أن يقوم المعلمون الحقيقيون بالتدريس، وأن هذا لا يشمل الدعم فقط، ولكن الانضباط والواجبات وربما التوبيخ عند التقصير.

وغالبًا ما يكون المدربون الرياضيون الأفضل والأكثر إعجابًا والأكثر حبًا في مدارسنا الثانوية اليوم، فهم لا يزالون «يعلمون»، ولا يزالون يطالبون بالأداء، ونادرًا ما يقلقون بشأن تقدير الذات.

وتظهر مشاكل مماثلة لأولئك الذين يحاولون بناء تقديرهم الذاتي المتدهور عبر التحدث بمحبة إلى «طفلهم الداخلي» الذي يشعر بعدم الأمان، ومثل هذه المحاولات محكوم عليها بالفشل لسببين: أولاً: إذا كنا غير واثقين بشأن تقديرنا لذاتنا، فكيف يمكننا أن نصدق مدحنا لأنفسنا؟ وثانيًا: -مثلنا مثل الطفل - نعلم الحاجة إلى الانضباط الذاتي والإنجاز.

ويجب فهم تقدير الذات على أنه ردة فعل وليس سببا، فهو في الأساس استجابة عاطفية لما فعلناه، وما فعله الآخرون بنا، ومع أنه شعور مرغوب أو حالة داخلية، إلا أنه مثل السعادة لا يقدم الكثير، وهو أيضًا مثل السعادة ومثل الحب يكاد يكون من المستحيل الحصول على تقدير الذات عبر محاولة الحصول عليه؛ فلذلك حاول أن تكتسب تقدير الذات وستفشل، ولكن افعل الخير للآخرين وأنجز شيئًا ما لنفسك، وستحصل على كل تقدير الذات الذي تحتاجه وتستحقه.

وهذا الموضوع حيوي بالنسبة للمسيحيين، ويرجع ذلك جزئيًا إلى قلـق الكثيريـن بشـأنه، ومـن ناحية أخرى فقـد وصفت اسـتعادة تقدير الذات أنها بمثابة إصلاح جديد.

ومع ذلك، يجب أن نلاحظ أن تقدير الذات مفهوم علماني للغاية، وليس مفهومًا يجب أن يهتم به المسيحيون على وجه الخصوص، بل يجـب أن يتمتع المسـيحي بإحسـاس هائـل بقيمة الـذات؛ فلقد خلقنا الإله على صورته، وهو يحبنا، وقد أرسـل ابنه ليخلص كل واحد منا، فقدرنـا أن نكـون معـه إلـى الأبـد، وكل واحد منـا له قيمتـه لدرجة أن الملائكة تفرح بكل خاطئ تائب.[1]

ولكـن من ناحية أخرى، ليس لدينا ما نفخر به بمفردنا، فلقد منحنا الحيـاة مـع كل مواهبنا، مع أننـا كلنا خطاؤون مسـاكين، كما لا يوجد بالتأكيد سبب لاهوتي للاعتقاد بأن ارتفاع تقدير الذات مما يحب الإله أو مما يقرب العبد إليه، وفي الواقع، هناك أدلة كثيرة على عكس ذلك: «طوبى للمتوكلين على الإله».

إضافـة إلى ذلـك، يعتمد تقدير الذات على الفكـرة الأمريكية ذاتها بأن كل شخص مسؤول عن سعادته، وهكذا - في السياق المسيحي - فـإن تقدير الذات له جانب خفي ومرضي، فكثيرون يعتبرون «السـعي وراء السعادة» هدفًا شخصيًا أكثر قوة من السعي وراء التقوى.

---

(١) هـذه العقيـدة المسـيحية التي تزعـم أن الله - تعالى الله عما يقولون- قد أرسـل ابنه لفداء البشـرية. وفي الإسـلام خلق الإنسـان مكرما ففي القرآن (لقد خلقنا الإنسـان في أحسـن تقويم) وكذلك (ولقد كرمنا بني آدم) والمؤلف هنا متماشـيا مع خلفيته المسيحية. (الناشر)

واليوم، يُعتقد أن تقدير الذات ضروري للسعادة، فما لم تحب نفسك فلن تكون سعيدًا، ولكن افتراض أننا يجب أن نحب أنفسنا، وأن الإله لن يحبنا بقدر الحب الذي نحتاجه، هو شكل من أشكال الإلحاد العملي، فكأننا نقول إننا نؤمن بالإله، لكننا لا نثق به، ويعيش العديد من المسيحيين وفقًا للشعار غير المتوافق مع الإنجيل «يحب الإله أولئك الذين يحبون أنفسهم».

وهناك مشكلة أخرى وهي أن الأمريكيين بدؤوا في تبرير السلوك الشرير أو المدمر على أساس «تدني تقدير الذات»، ولكن الثقة بالنفس-سواء كانت عالية أو منخفضة - ليست من تحدد أفعالنا، فنحن مسؤولون عن أفعالنا، مسؤولون عن محاولة فعل الخير وتجنب الشر، فتدني تقدير الذات لا يجعل الشخص مدمنًا على الكحول، كما أنه لا يمكّن الشخص من الاعتراف بإدمانه والقيام بشيء حيال ذلك، فالقراران كلاهما متروك لكل واحد منا، بغض النظر عن مستوى تقدير الذات لدينا.

التحيز الذاتي

بالرغم من أن الكثير من الناس يعتقدون أن مشكلتهم أو مشكلة الآخرين تكمن في افتقارهم إلى تقدير الذات، أو عدم وجود شعور إيجابي كافٍ تجاه أنفسهم، إلا أن الكثير من الأدلة النفسية تفيد بعكس ذلك، فقد أظهرت العديد من التجارب في علم النفس الاجتماعي أن لدى الناس ميلا موثوقا لتفسير الأحداث على أنها مواتية لهم، حتى عندما لا تبرر الحقائق ذلك، ويُطلق على هذا الاتجاه المثبت جيدًا «التحيز الذاتي».

فعلى سبيل المثال: في التجارب التي يُسمح فيها للأشخاص بالنجاح أو الفشل -بغض النظر عن أفعالهم -يعزو الأفراد النجاح إلى جهودهم الخاصة والفشل إلى أشياء أخرى غير أنفسهم، فقد يكون الفشل بسبب سوء الحظ، أو صعوبة المهمة، أو إلى الشريك غير الكفء الذي كان معهم في التجربة.

باختصار: يميل البشر إلى تبني مسؤولية النجاح وإلى إلقاء اللوم على الآخرين أو على الظروف في حالة الفشل، ويرتبط بهذا حقيقة أن معظم الناس يرون أنفسهم «أعلى من المتوسط» في معظم نواحي الحياة المهمة.

لقد قيل ذات مرة بأن الصحة العقلية تعني أن الشخص على اتصال وثيق بالواقع، ولديه معرفة موضوعية وواقعية بنقاط قوته وضعفه، لكن من الواضح أن الغالبية العظمى منا متحيزة بشكل كبير لصالح قدراتنا وآفاقنا الخاصة، بحيث يصعب العثور على أشخاص واقعيين حقًا بشأن أنفسهم.

ومثال آخر على هذا التحيز هو ميل الناس إلى الوثوق بأحكامهم الخاصة في العديد من المواقف التي يمكن فيها إثبات أن لديهم أساسًا ضئيلًا للثقة من الناحية الموضوعية، وعلى أية حال، يبدو أن البشر منحازون بشكل كبير لصالح أنفسهم في العديد من المواقف المختلفة، وليس هناك سبب وجيه للاعتقاد بأنه حتى أولئك الذين يُفترض أنهم يفتقرون إلى تقدير الذات يفتقرون أيضًا إلى تحيز يخدم مصالحهم الذاتية.

وأخيرًا؛ فإن التركيز الكامل على أنفسنا يغذي حب الذات غير الواقعي، والذي غالبًا ما يسميه علماء النفس «النرجسية»، وربما كان

المرء يعتقد أن أمريكا لديها ما يكفي من المشاكل مع نرجسية «جيل أنا» في السبعينيات، ومع جيل المهنيين الحضريين Yuppies في الثمانينيات، ولكن البحث اليوم عن تقدير الذات هو أحدث تقليعة في تقاليد أمريكا في الشخصية المهووسة المتمحورة حول الذات.

إن إعطاء أطفال المدارس ملصقات وجوهٍ سعيدة في جميع واجباتهم المدرسية لمجرد تسليمها، أو منحهم الجوائز لمجرد وجودهم في الفريق، هو تملق من النوع الذي وجد لعقود في شعاراتنا التجارية، ومثل هذا الانشغال الذاتي هو تعبير متطرف عن علم النفس الفردي الذي نشأ لأول مرة في مجتمعات معينة وحالياً تدعمه وتفسده النزعة الاستهلاكية.

وتُعزَّز النرجسية اليوم من قبل المعلمين الذين يرضون غرور حتى أصغر أطفالنا بالتغني المتكرر بعبارات مثل:

«أنت أهم شخص في العالم بأسره، وبالكاد تعرف من أنت!»[1].
هذا الشعور بالسعادة الذي تخلقه مثل هذه العبارات ما هو إلا وهمٌ بعيد عن الحقيقة، ولعله أقرب إلى النشوة التي تسببها المخدرات فهي تهدئ وتغوي وتصرف الانتباه، إنها تملأ الذات الفارغة، لكنها تديم السلبية والضعف.

وهذا التركيز النرجسي المستمر في مجتمعنا، وخاصة في التعليم، ما هو إلا شكل مقنّع إلى حد ما من عبادة الذات، ولو تقبلناها فسيكون

---

(١) هذه العبارة وردت في مسلسل الأطفال الأمريكي الشهير «شارع السمسم» "Sesame Street"

"The most important person in the whole wide world is you, and you hardly even know you".

لـدى أمريـكا ٢٥٠ مليـون «أهم شـخص فـي العالم بأسـره» أي ٢٥٠ مليون نفس مُلمَّعة، وإذا لـم تكن عبادة الأصنام هذه خطرة من الناحية الاجتماعية فسيكون الأمر مضحكًا، بل مثيرًا للشفقة حتما.

مجموعات الدعم

لقـد كانـت البيئـة الحاضنـة والمهمـة لنشـر نظريـة الـذات هـي المجموعات الصغيرة المعروفة عمومًا باسم مجموعات الدعم، فوفقًا لروجـرز، فـإن هـذ المجموعـات والتـي تأتـي بأشـكال مختلفـة مثـل مجموعات التدريب وورش العمل الإبداعية لها الخصائص المشتركة التالية:

- يمكـن لمشـرف / مـدرب المجموعة أن يطور- فـي مجموعة تلتقي بشكل مكثف - مناخًا نفسيًا آمناً للتعبير بحرية ويحد من اتخاذ المواقف الدفاعية تدريجياً.
- ينشـأ منـاخ من الثقـة المتبادلـة ناتج عن هـذه الحريـة المتبادلة للتعبير عن المشاعر الحقيقية سواء الإيجابية أو السلبية.
- تشـجيع كل عضو على تقبل كيانه الكلـي - العاطفي والفكري والجسدي - كما هو، بما في ذلك إمكاناته.
- مـع الحد من اتخـاذ المواقـف الدفاعية فإن إمكانيـة التغيير في المواقف والسلوكيات الشخصية، تصبح أقل صعوبة.
- العمل على تطوير التغذية الراجعة من شخص إلى آخر، بحيث يتعلـم كل فرد كيف يبدو للآخريـن وما هو تأثيره في العلاقات الشخصية.

- مع هذه الحرية الأكبر وتحسين التواصل، يمكن أن تظهر أفكار جديدة ومفاهيم جديدة وتوجهات جديدة، ويمكن أن يصبح الابتكار أمرًا مرغوبًا لا يشكل أي خوف.

ويمكن نقل الدروس المستفادة في تجارب المجموعات - بشكل مؤقت أو دائم - إلى العلاقة مع الزوج والأطفال والطلاب والمرؤوسين والأقران، بل وحتى الرؤساء الذين يتابعون تجربة المجموعة.

ولن أخوض في أمثلة على تفاعلات ونشاطات هذه المجموعات؛ لأن شرح روجرز يكفي لمن ليس على دراية -على الأقل بشكل عام، -بماهية مجموعات الدعم.

ولقد شهدت الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي تشكيل مئات الآلاف من هذه المجموعات، والتي شارك فيها ملايين الأمريكيين، ويقدر روجرز أن عدد المشاركين في مجموعات الدعم في عام واحد، ١٩٧٠م، كان حوالي ٧٥٠٠٠.

ويمكن أن نلاحظ قلة الدراسات الدقيقة والمنهجية لفعالية وآثار مجموعات الدعم. وقد قُدِّمت أدلة حاسمة نوعًا ما على تأثيراتها في أول كتاب رئيس -فيما يبدو- حول هذا الموضوع وهو:

Encounter Groups: First Facts, by Morton Lieberman, Irwin Yalom, and Matthew Miles

مجموعات الدعم: حقائق أولى، بقلم مورتون ليبرمان وإروين يالوم وماثيو مايلز.

وتلخص مراجعة قام بها واين جوس Wayne Joosse بإيجاز استنتاجات المؤلفين للكتاب المذكور فيما يتعلق بالادعاءات المقدمة عادةً حول هذا النوع من المجموعات على أساس دراستهم:

لقد كانت العينة الخاضعة للدراسة طلاباً في جامعة ستانفورد، وهذا نموذج لا يكاد يمثل عامة السكان؛ نظرًا لأنه كان عامراً بالشباب اللامعين والفصحاء، مما يؤدي إلى تفضيل النتائج الإيجابية.

وُزِّع الطلاب الخاضعون للدراسة بطريقة عشوائية بالأساس -رُوعي موازنة العمر ونوع الجنس والخبرة الجماعية السابقة- إلى ١٧ مجموعة تمثل الأساليب النظرية العشرة الرئيسة (العلاج الكلي، تحليل التعاملات، أتباع روجرز، إلخ)، واختير القادة من بين أكثر الشخصيات الموصى بها من شمال كاليفورنيا لأنها كانت معقلًا خاصًا لثقافة مجموعات الدعم.

(وهذه القيادة النوعية أدت مرة أخرى إلى تفضيل النتائج الإيجابية المضللة؛ لأن إحدى خصائص هذه المجموعات - في ظل غياب قوانين إصدار الشهادات - تسليم «قيادة» العديد من المجموعات إلى من كان تدريبهم وخبرتهم منحصرة في هذه المجموعة فقط).

لقد شهد حوالي ثلث المشاركين فقط تغيرات إيجابية، وعانى ما يقرب من ثمانية في المئة من إجمالي المجموعة من «إصابة نفسية بَالغة».

ويبدو أن «التوجه النظري» مهم إلى حد ما، فبالرغم من أن «أسلوب القائد» كان له تأثير أكبر، فقد حقق القادة الأكثر تعاطفًا

ودعماً أكبر عدد من التغييرات الإيجابية، بينما ارتبط القادة الأكثر قسوة والقادة «الكاريزميون» بنتائج سلبية.

ولعل من المحزن أن القادة أنفسهم لم يتمكنوا من تحديد هوية أولئك «الضحايا»، وأظهروا - بدلاً من ذلك- إيمانًا أعمى بأنفسهم وبتقنياتهم.[1]

مجموعات التعافي

المجموعة الأحدث والأكثر حماساً في أمريكا هي حركة مجموعة التعافي، وتعتمد معظم مجموعات التعافي على ما يُسمى «برامج الخطوات الاثنتي عشرة» - التي طورها في الأصل مدمنو الكحول المجهولون Alcoholics Anonymous.

وكثير من الخطوات الاثنتي عشرة لها بعد ديني وأخلاقي قوي، وكانت هذه المجموعات هي الأشكال الأولى من العلاج النفسي الأمريكي لتقديم الدين والأخلاق، وهما إنجازان رئيسان وإيجابيان للغاية.

ومع ذلك، فقد تأثرت العديد من مجموعات التعافي بشدة بحركة مجموعات الدعم وبكثير من علم النفس الأمريكي، وهذا الانشغال بالذات يضعف ويشوه العديد من الجوانب الإيجابية لمجموعات التعافي.

أولاً: تعزز العديد من هذه المجموعات النرجسية عبر التركيز بشكل أساسي على مشاكل الشخص -سواء النفسية أو غيرها- إلى

(1) Joosse, "Do Encounter Groups Work?"

درجة قصوى، مع أنه في كثير من الجوانب، يكون حديث الناس عن مدى سوء حياتهم وعما فعلوه أشبه بتمثيل مسرحي منه باعتراف.

ثانيًا: تركز العديد من هذه الأحاديث بشكل أساسي على أفعال الآخرين بهم، فينصب التركيز على الذات كضحية، ولذلك ليس من المستنكر أن تسود التجمع عقلية «طلب الشفقة».

ولقد رأينا جميعًا ضيوفًا في البرامج الحوارية يمتعون الجمهور بقصصهم المحزنة عن سوء المعاملة وحاجتهم إلى الاعتماد على الآخرين ونحو ذلك، وفي النهاية، غالبًا ما يصفق الجمهور، مما يترك لدى الإنسان انطباعاً بأن هذه الاعترافات المكتوبة بشكل جيد ما هي إلا عروض منحت الشخص «الضحية» الشهرة.

كما وجه انتقاد آخر لـ «الخطوات الاثنتي عشرة» وهو أن البرنامج يتضمن فكرة غريبة عن الإله، حيث تعمل مجموعات التعافي اليوم على فكرة أن الإله يجب أن يُعرّف كما يريد كل فرد.

وهذا النوع من «الانفتاح» -من منظور مسيحي أو يهودي- ليس هرطقة فحسب، ولكن يمكن أن يؤدي أيضًا إلى إحداث ضرر نفسي، وبالنسبة لبعض الناس، يصبح الإله أكثر بقليل من مجرد إسقاط نرجسي لاحتياجاتهم ورغباتهم وآرائهم الغريبة، وقبل بضع سنوات، كان للمتكلم من بطنه إدغار بيرغن «دمية» اسمها تشارلي مكارثي، و في هذه المجموعات، يصبح الإله بالنسبة للبعض تشارلي مكارثي، فيجعلون الإله يوافق على ما يريدون منه الموافقة عليه، فمفهوم إله العدل الذي «أفكاره ليست أفكارنا»، ومخافته «بداية الحكمة»، يتعارض بشكل خطير مع هذا النوع من إله «افعل ذلك بنفسك».

المساعدون الذاتيون

جاء أول ظهور هام للنظرية الذاتانية للأفراد في عام ١٩٦٤ مع نشر إيريك بيرن كتابه *ألعاب يلعبها الناس* Eric Berne's Games People Play، والذي بيع منه أكثر من ثلاثة ملايين نسخة.

ويصف بيرن الشخصية على أنها تتكون فقط من حالات الأنا (لا ينظر لجوانب الشخصية الأخرى غير الأنا تمامًا)،

وهذه الحالات هي:

(١) تلك التي تشبه الشخصيات الأبوية.
(٢) تلك الموجهة بشكل مستقل نحو التقييم الموضوعي للواقع.
(٣) تلك التي تمثل آثارًا قديمة - حالات الأنا المتجمدة في الطفولة المبكرة و لا تزال نشطة -.

وعادة ما تسمى هذه الحالات الوالد والبالغ والطفل، على التوالي، مع سلوك غير مرغوب فيه تسببه حالات الوالد والطفل.

وأصبح التحدث إلى «الطفل الداخلي» شائعًا في هذا النوع من تحليل التعاملات، ويُفترض أن شعبية كتاب بيرن تعكس قدرته على وصف التعاملات بين الناس، أو «الألعاب»، بوضوح وذكاء.

وتُعرف صياغته الخاصة للنظرية الذاتية باسم تحليل التعاملات، ويوضح أن الهدف من علاجه هو مساعدة الناس ليصبحوا بالغين مستقلين يتميزون بالعفوية والوعي بالواقع دون تحيز ويتميزون ايضاً بالألفة مع الآخرين.

ومتابعةً وتطويراً لنظرية بيرن صدر كتاب: *أنا بخير - أنت بخير* لمؤلفه توماس هاريس، وقد بيعت منه أكثر من مليون نسخة، وصدرت منه أكثر من اثنتي عشرة نسخة مطبوعة بغلاف ورقي.

وفي هذا الشكل من تحليل التعاملات أيضًا، فإن حالات الأنا الثلاث - الأب، والبالغ، والطفل - هي الجهات النفسية الثلاث الفاعلة، وهنا أيضاً الهدف هو تطوير علاقات إنسانية إبداعية ومتنامية خالية من الخوف، وركز محللو التعاملات في وقت لاحق بشكل خاص على نجاح الأعمال والفوز في «لعبة الحياة» وكان شعارهم «لقد ولدت لتفوز».

وهناك كتابان شائعان آخران في فئة تحقيق الذات هما كتاب ناثانيال براندن: *«التحرر من الحرية» و«علم نفس تقدير الذات»* Nathaniel Branden's Breaking Free and The Psychology of Self-Esteem.

وكان هدف براندن هو تطوير الاستقلالية الشخصية وتقدير الذات الضروريين لرفاهية الفرد، وبالمثل، أعلن جيس لاير في كتابه: *ليس لدي الكثير ولكني كل ما لدي* أن كتابه سيساعدك على «تحرير نفسك عبر هذا البرنامج لقبول وإثراء الذات والحب».

ويمكن أن يندرج في هذه الفئة كتاب: *شخص لشخص* لكارل روجرز وباري ستيفنز Person to Person by Carl Rogers and Barry Stevens، وكذلك الكتب التي تقدم: **العلاج الكلي Gestalt Therapy** لفريدريك بيرلز.

ويكاد يكون من المستحيل تقديم حصر كامل لمختلف النظريات الذاتانية المشهورة، حيث يبدو أن شهية الجمهور لهذا النوع من

الكتب لا تشبع، وتحتوي المكتبات الآن على أقسام للمساعدة النفسية الذاتية، حيث سيجد المرء العديد من العناوين الأخرى المشابهة لتلك التي تناولتها هنا.

إن أحد الأشكال المثيرة للاهتمام للمساعدة الذاتية هو التدريب على الإصرار، وهو علاج يهدف إلى جعل الشخص الخجول أو المتردد أو الانطوائي أكثر قدرة على الثقة في المواقف الشخصية.

ففي جلسة علاج نموذجية، يوضع الشخص في موقف لعب الأدوار حيث يمكنه أن يقوم بردات فعل قاسية وربما عنيفة ضد المعالج، الذي يلعب دور شخص يحاول استغلاله، ومن المفترض أن تكون نتيجة جلسات التدريب هذه زيادة في الثقة بالنفس لدى الشخص، ولا يقتصر هذا التدريب على تقدير قيمة الإصرار فحسب، بل ينطوي أيضًا على التقليل من قيمة الحب.

وقد نشر التطبيق الأكثر مبيعًا لعالم الأعمال من فلسفة التعظيم الذاتي في كتيب بواسطة روبرت رنجر Robert J. Ringer تحت عنوان: **الفوز عبر الترهيب** Winning Through Intimidation، ويوضح هذا الكتيب الخاص بالنجاح الشخصي بأن الفوز في المعاملات التجارية والشخصية يعتمد على اتخاذ موقف مرهب وحازم، ويدعي رنجر أنه يقدم برنامجًا واقعيًا للنجاح الشخصي، وهو يهمل الوصية التي تحثنا على أن نهتم بمصلحة جيراننا باعتبارها حيلة قد يستخدمها الآخرون ضدنا.[1]

---

(1) Robert J. Ringer, Winning Through Intimidation (New York: Funk and Wagnalls, 1974)

منتدى منظمة EST

بالرغم من أنه كان شكلاً شائعًا جدًا للنظرية الذاتية، إلا أن منظمة EST Erhard Seminar Training - أدخلت بعض الخصائص الجديدة المهمة، (في الثمانينيات، أُعيدت تسمية المنظمة إلى منتدى).

وفي المقام الأول كان المنتدى نشاطًا تجاريًا، يديره بكفاءة مؤسسه ورئيسه وارنر ايرهارد Werner Erhard بغرض تحقيق الربح، وفي الواقع، لقد كان الانضباط الداخلي للمنظمة قوياً لدرجة أن أسلوب عملها وُصف بالفاشي.

وابتداءً من عام ١٩٧١م، نمت أعمالها إلى عمليات بملايين الدولارات، وتضم مجموعة من قادة الندوات المدربين تدريباً عالياً بالإضافة إلى طاقم عمل من آلاف المتطوعين، وكانت الندوات عبارة عن جلسات ماراثونية لمدة أربعة أيام مع ما يصل إلى ٢٥٠ مشاركًا، دفع كل منهم ما بين ٥٠٠ دولار إلى ٧٠٠ دولار مقابل السلسلة الكاملة، و تطلبت الندوات وجود قائد منضبط ومدرب جيدًا ومشاركين على استعداد لاتباع القواعد بصرامة طوال تجربة الستين ساعة، وقد كان لجلسات الماراثون هذه أوجه تشابه مع اجتماعات الإحياء القديمة والطويلة، لكن مكانها -في الفنادق الكبيرة الفاخرة - كان مختلفًا تمامًا.

ودُرِّب قادة الندوات على محاكاة طريقة تعليم وشخصية فيرنر إيرهارد، وكان الهدف الرئيس من التدريب هو حث المشاركين على «تحويل قدراتهم إلى تجربة يعيشونها»، فالكلمة الأساسية هي

التجربـة؛ لأن الدافع الرئيس ليس العثور على طرق جديدة للإيمان أو التفكيـر ولكـن علـى طـرق جديـدة للتجربـة، وتحقيقـا لهـذه الغايـة استُخدِمت تقنيـات مختلفـة، وكلهـا كانـت تتمحـور حـول ذوات المشاركين.

وتأتـي التقنيـات من مجموعـة متنوعة من المصـادر - مجموعات الدعـم، ماسـلو، العـلاج الكلـي، والسـيانتولوجيا[1]- بالرغـم من أن بعض التقنيات المستعارة من الأديان الشرقية تعطي مثل هذه الأساليب نكهة «روحية» مميزة -على الأقل بالمقارنة مع العلاج الذاتي السابق- إلا أن التركيز الكبير لا يزال على الذات.

ولنطلع إلى بعض عينات من فلسـفتها الرائعة، وهي اقتباسـات من كتـاب: «EST لعـب اللعبـة بالطريقة الجديـدة» Playing the Game the New Way, by Carl Frederick، مـن تأليـف كارل فريدريـك، أحد خريجي المنتدى:

أنت الكائن الأسمى.

«الواقع» هو انعكاس تام لمفاهيمك أنت.

فلـو كان لديـك فكـرة أن تلعـب لعبـة صغيـرة مـع نفسـك، وقلت لنفسـك، شـيئًا مثل: «يا إلهي، أشـعر بالملل، ألن يكون التواصل أكثر متعة» ولذلك قمت بإنشاء لعبة كلمات.

هـذه هـي الحياة .. لعبـة كلمات كبيرة، لا تكذب على نفسـك بعد الآن، حتى أنهم كتبوها بعد وقت قصير من البداية،

---

(١) السـيانتولوجيا: نظـام ديني يقوم على البحـث عن معرفة الـذات والارتقاء الروحي عبر دورات دراسية وتدريبية متدرجة أسسه كاتب الخيال العلمي الأمريكي إل رون هوبارد في عام ١٩٥٥ (المترجم).

فقالوا: وكانت الكلمة هي الإله.

بالطبع كان كذلك.

لاحظ أيضًا أنه لا يوجد أي خطأ أو صواب .. إنه ببساطة لا معنى أن تكون غير أخلاقي.

لقد كان لديك فكرة أن التواصل سيكون أكثر متعة، وقمت بإنشاء جميع القواعد؛ لذا فأنت مسؤول عن اللعبة كلها كما هي.

وهكذا الحياة عبارة عن تساؤلات واختيارات.

وينتهي هذا الكتاب بالذات بموقف روجيري خالص ممزوجًا باهتمام وجودي شائع بالاختيار.

عليك التخلي عن المفاهيم التي أخبروك عنها «هم»، وإنشاء مفاهيمك الخاصة، هذا ما تعنيه الحياة.

ولعلك ترى - من وجهة نظري - أن الغرض الوحيد من الحياة هو الاعتراف بأنك المصدر، ثم اختر أن تكون ما تعرفه أنت، وسيبدأ كل شيء من هناك.

إذا كنت تعتقد أن فريدريك قد قلل من أهمية الرسالة الأصلية وشوهها في تعميمه، فيمكنك مقارنة وجهات نظره مع آراء كارل روجرز، فعلى سبيل المثال، يقول روجرز صراحة: «أنا من يختار» و«أنا من يحدد قيمة كل تجربة بالنسبة لي».

ولعل الأمر الأكثر إثارة للاهتمام هو مقارنة رسالة فريدريك بالفلسفة الوجودية لجان بول سارتر:

إذا تخلصت من الإله الأب، فلا بد من وجود من يخترع القيم، فالقول بأننا نخترع القيم لا يعني شيئًا سوى أنه ليس للحياة معنى ابتداءً.

وتعتبر الحياة لا شيء قبل أن تعيشها. إذن، الأمر متروك لك لمنحه معنى، وقيمة الحياة ليست سوى المعنى الذي تختاره أنت.

ومن المثير للدهشة أن مئات الآلاف من الأفراد ذوي التعليم الجيد من الطبقة المتوسطة العليا يدفعون مبالغ طائلة لسماع هذا التأليه الذاتي المذهل مقترناً بقدرة الذات المطلقة على اختيار السعادة والصحة وبالتالي الفوز في لعبة الحياة، كل ذلك يأتي بالرغم من الاعتقاد بأن لعبة الحياة ليس لها معنى أو أهمية جوهرية.

المساعدة الذاتية عبر الجنس

بالرغم من أننا لم نذكرها في مناقشتنا حتى هذه النقطة، فإن إحدى الطرق الرئيسة من تقبل التجربة والتعبير عن الحب هي عبر الجنس، وقد دعا جميع المؤلفين الذين نوقشت آراؤهم حتى الآن إلى الانفتاح على الجنس والاستكشاف النشط للجنس.

وتدين الكثير من المؤلفات التي تحظى بشعبية كبيرة مثل كتاب أليكس كومفورت: «**الجنس والمزيد من المتعة الجنسية**» بالكثير من نجاحها لأشخاص متأثرين بنظرية الذات، وقد دعا جون موني - الذي قدم رأيا مشابهًا لرأي كومفورت -إلى ما أسماه الجنس «الترفيهي» الجديد -على عكس الجنس «الإنجابي» القديم - والذي لم يعد يُنظر إليه على أن وظيفته محصورة في الإنجاب.

إن الصلة بين النظرية الترفيهية للجنس ونظرية الذات جاءت جزئيًا من الأهمية التي أعطتها الأخيرة لتجنب الحواجز الثقافية وللانفتاح خاصة على التجربة الشخصية والحسية.

ومن ثم، فإن الجنس يمكن أن يُفسَّر بسهولة على أنه تعبير عن الحب، وقد جعلت هذه العوامل مجتمعة الجنس التركيز الأساسي لنظرية الذات، ويمكن القول إن المبدأ الأساسي هو أن الجنس في خدمة الذات.

في كتاب: **الزواج المفتوح** الأكثر مبيعًا، زعم المؤلفان نينا وجورج أونيل أنه يتحتم إعادة تعريف الإخلاص الجنسي من أجل التخلص من عناصر الواجب والالتزام، والتي اعتبروها تهديداً للحب والنمو والثقة، وهذه بعض المقتطفات:

ويُعاد تعريف الإخلاص في الزواج المفتوح، باعتباره التزامًا بنموك الخاص، والتزامًا متساويًا بنمو شريكك، ومشاركة اكتشاف الذات المتحقق عبر هذا النمو، وهو ولاء وإخلاص للنمو والاستقامة واحترام للآخر، وليس عبودية جنسية ونفسية لبعضنا البعض.

وفي الزواج المفتوح، حيث يكون كل شريك مقتنعاً بهويته ولديه ثقة في الآخر، توجد إمكانيات جديدة لعلاقات إضافية، كما ان الحب المفتوح -على عكس المحدود- يمكن أن يتسع ليشمل الآخرين.

ويمكن بالطبع أن تشمل هذه العلاقات الخارجية الجنس، فذلك مَتروك تمامًا للشركاء المعنيين، وعندما يقيم الشركاء في زواج مفتوح علاقات جنسية خارجية، فذلك على أساس علاقاتهم الداخلية الخاصة، أي بسبب أنهم عاشوا حباً ناضجاً، وعندهم ثقة حقيقية،

ولديهم القدرة على تحرير أنفسهم ليحبوا ويستمتعوا بالآخرين ليعود بعدها هذا الحب والمتعة إلى زواجهم دون غِيرة.

ولسوء الحظ -بعد سنوات قليلة من نشر كتابهم- انفصل الزوجان أونيل، وعلى ما يبدو لم يكن أي منهما «ناضجًا» بما يكفي لاتباع نصائحهما الخاصة.

وقد شُرِحت حجج الجنس المفتوح في الزواج في: *دليل كارولين جوردون للمبتدئين لممارسة الجنس الجماعي* وقد أخذ هذا الكتاب أطروحة أونيل وجادل بقوة في أن تبادل شركاء الزواج لممارسة الجنس، كان علامة حقيقية على زواج جيد وناضج.

وفي النهاية يجب أن يشعر كل شخص سواء كان رجلا أو وامرأة لديه الرغبة في تجربة جديدة بالراحة لممارسة الجنس بشكل طبعي ومنفتح، وقد وصف غوردون تقنيات وآداب الجنس الجماعي في أقسام بعناوين مثل: «ماذا أرتدي في حفلات الجنس الجماعي»، «المنشطات والأدوات»، وباختصار، يُنظر إلى الجنس الجماعي على أنه متعة مجردة.

وكشف ملخص الكتاب إلى أي مدى تُعتبر هذه القرارات عرضية:

مثلما لا يناسب الجميع مقاس الحذاء الواحد، فكذلك لا يناسب الجميع عقد معاشرة واحد - أو عقد زواج - أيضًا، فمن الأفضل أن تستكشف ما هو أكثر «راحة» لك ولشريكك.

ولذلك فإن الاختيار بين ممارسة الجنس الجماعي وعدمها ليس نهائيًا، مثلما قد ترغب في تجربة تناول عينات من أرجل الضفادع،

فـإذا أعجبتك، فستسـتمر في طلبهـا، وإذا لـم تعجبك فلا حاجة لك أن تجربها مرة أخرى.

وهكـذا يمكن الاسـتمرار في ممارسـة الجنس الجماعـي أو تركه، ويمكن ممارسـته باعتدال أو بكثرة بعـد تجربته، فلكل زوجين الحرية في تقرير ما يناسب ذوقهما.

وبالرغـم من بيع ملايين النسـخ مـن العديد من الكتـب والكتيبات الإرشادية التي تتحدث عن الرضا الزوجي والجنسي، فقد ارتفع عدد حالات الطلاق إلى أعلى مستوياته على الإطلاق في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات.

وتعزى الزيادة في معدل الطلاق إلى حد كبير إلى القيم التي قدمتها نظرية الذاتانية -على الأقل إذا أخذنا تعليقات الشـركاء السابقين على ظاهرهـا- وخاصة عندما يكون هنـاك مزيج من قيم نظرية الذاتانية مع نسخة حادة من النسوية، وليس من المستغرب أن تصر النساء على أن لهـن الحـق في عيش نفس النـوع من الحياة المتمحـورة حول ذواتهن التي يعيشها كثير من الرجال منذ سنوات.

وربما يجب أن يكون واضحًا أن درجة عالية من الاستقلالية التامة أمر مستحيل في أي علاقة إنسانية جادة طويلة الأمد، ناهيك عن علاقة تنطوي على واجبات الحب الحقيقي والعائلة.

وقـد كتب كريسـتوفر لاش: إن فكرة الحـب باعتبارها تنطوي على التَضحيـة بالنفـس والخضـوع لولاء أعلى سـوف تضـر بقابلية العلاج باعتبارها قمعية لا تطاق؛ لأن مهمة «معالجات ما بعد فرويد» أصبحت بشكل عام «إشباع» كل رغبة.

ولقد بيع كتاب مادونا الأخير: «الجنس» بشكل كبير وساعد في إدخال الجنس السادو-ماسوشي (أو السادو-مازوخي)[1] إلى التيار السائد في أمريكا. بالنسبة لكتابها فهو في الأساس دليل المستخدم باهظ الثمن المعروض على طاولة قهوة لممارسة السادو-مازوحية. وكذلك طُرِح مثالٌ آخر للإشباع العلاجي لكل رغبة في كتاب: **المتعة الجديدة للجنس المثلي**، حيث تجد فيه مناقشاتٍ عن الجنس مع الأطفال وممارسة الجنس مع الحيوانات، ويمكنك أيضًا التظاهر بممارسة الحب مع والدك. وبعد كل ذلك، فالقيم والمعاني متروكة لكل واحدٍ منا، وإلى جانب ذلك، فإن المحظورات -كما نعلم جميعًا- تجعل تحقيق ذواتنا أصعب، لذا يمكن القول ببساطة إنها سخيفة للغاية!

---

(١) هو نيل وحصول المُتعة من خلال القيام بالأعمال التي تتضمن إيصال أو إلحاق الألم أو الإذلال.

الفصل الثالث

هل الذاتانية علم

من الوصف المقدم في الفصل السابق، يتضح بما لا يدع مجالا للشك أن نظرية الذات هي مذهب أو «دين» يحظى بشعبية علمانية وإنسانية كبيرة، وليست فرعًا من فروع العلم، وسنعرض المزيد من الأدلة على الطابع الديني لنظرية الذاتانية فيما بعد، ولكن لغرض النقاش الحالي المتمثل في إظهار أن علم النفس الذاتي يعمل بشكل عام باعتباره دينًا أو مذهبًا، فمن المناسب استخدام تعريف فروم للدين: وهو أي نظام فكري وعمل مشترك من قبل مجموعة ما، تمنح الفرد إطارًا توجيهياً وموضوعًا للإخلاص.

ولوضع هذا في السياق، دعونا نستشهد بمثال مهم للغاية للادعاءات الدينية للتوجه الإنساني من جون ديوي John Dewey، مؤسس فلسفة التعليم السائدة اليوم.

حيث يختتم ديوي كتابه: *الإيمان المشترك common faith* بالحث على جعل الإنسانية «إيمانًا مشتركًا» عاماً، ففي الإنسانية جميع عناصر الإيمان الديني والذي يجب أن لا يقتصر على طائفة أو طبقة أو عرق، ولطالما كان هذا الإيمان ضمنيًا العقيدة المشتركة للبشرية[1].

وحدد تعريف فروم ونصيحة ديوي بجرأة الطابع الأيديولوجي العدواني لنوع الإنسانية العلمانية التي كنا نتحدث عنها، بتكريسها «للذات»

(1) John Dewey, A Common Faith (New Haven: Yale University Press, 1934)

وللإنسانية، وسنستخدم مصطلح الذاتانية للإشارة إلى هذا الدين ومبرراته للتعبير عن الذات والإبداع ونحو ذلك، وسنتجنب مصطلحات مثل الأنانية والغرور، والتي لا تصف هذه الظاهرة الحديثة بدقة.

وقبل تناول انتقادات محددة في الفصول التالية، دعونا نسجل ملاحظة نقدية عامة، وهي أن علم النفس الذاتي يؤكد على قدرة الإنسان على التغيير إلى درجة التجاهل التام تقريبًا لفكرة أن الحياة لها حدود وأن معرفة هذه الحدود هي أساس الحكمة، ولكن بالنسبة لأصحاب النظرية الذاتانية، يبدو أنه لا توجد واجبات محددة ولا موانع أو قيود مقبولة.

وبدلاً من ذلك، فهناك فقط حقوق فردية وفرص للتغيير، ويفترض عدد هائل من أنصار الذاتانية أنه لا توجد علاقات أخلاقية أو شخصية ثابتة، ولا توجد مكانة دائمة للأفراد، فكل شيء مكتوب على الرمال من قبل الذات المتغيرة باستمرار.

إن الميل إلى إعطاء الضوء الأخضر لأي هدف محدد ذاتيًا هو بلا شك أحد المبادئ الرئيسة للذاتانية، لا سيما لأشخاص من ثقافة طالما كان يُنظر إلى التغيير فيها على أنه شيء جيد.

الطب النفسي وعلم الأحياء وعلم النفس التجريبي

يأتي النقد العلمي للذاتانية من ثلاثة مصادر رئيسة:

(١) التحليل النفسي والطب النفسي.

(٢) دراسات حول سلوك الحيوان، مثل تلك التي أجراها علماء الأحياء أو علماء السلوك.

(٣) بحث علماء النفس التجريبيين.

وتؤكد جميع التخصصات الثلاثة نفس النقطة: أن العنف أو العدائية، بما في ذلك العدائية المدمرة، هي خاصية طبعية جوهرية للإنسان موجودة منذ الولادة.

ويرفض الأطباء النفسيون من مختلف المعتقدات الذاتانية باعتبارها ارتدادًا للتفسير المتفائل والسطحي والواعي تمامًا للعقل والذي كان شائعًا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

وكان أحد إنجازات فرويد المعترف بها على نطاق واسع هو تصور العناصر اللاشعورية القوية في الطبيعة البشرية، وقد رفض الكثيرون فكرته للمقابلة الثنائية بين غرائز الحياة (على سبيل المثال، الجنس) وغرائز الموت (على سبيل المثال، العدائية أو العنف)، ولكن أدلة الدراسات السريرية، التي جُمعت على مدى سنوات عديدة من مجموعة كبيرة وغير متجانسة من الناس، لمثل هذه السلوكيات مثل السادية، والعدوانية، والتلاعب النرجسي بالآخرين، والأحلام المتكررة والمرعبة، وما إلى ذلك، تعتبر قاطعة، ولذلك بدلاً من التفسيرات المتفائلة المعقدة حول كون المجتمع سببٌ لمثل هذه الأشياء، من الأسهل -والأكثر قبولا وفقًا للنظرية- قبول الطبيعة المزدوجة للبشرية.

على سبيل المثال، أسست المحللة النفسية البارزة ميلاني كلاين نظامها النظري على افتراض أن كل طفل يولد بشحنات كبيرة من الغضب والكراهية والحسد، وهذه المشاعر البدائية تنخفض فقط عبر حب الأم.

كما افترضت كلاين -في كثير من النواحي- أن كل واحد منا يولد «شريراً» وأن «الخير» لا يأتي إلا من الخارج، على سبيل المثال، من حب الأم له.

ومعلوم أنه لا يتعين على المرء اتخاذ مثل هذا الموقف المتطرف، والعديد من المحللين النفسيين الآخرين لا يوافقونها الرأي، ولكن حتى أولئك الذين يفترضون أن البيئة تلعب دورًا كبيرًا في خلق الكراهية والغضب والحسد يفترضون أيضًا أننا ولدنا بميل قوي للاستجابة لهذه المشاعر السلبية بمجرد أن نشعر بالإحباط أو غيره من أشكال الألم.

وفي العقود الأخيرة، ركز العديد من علماء النفس والمحللين النفسيين على اضطرابات الشخصية النرجسية والحدية، وعادة ما يمتلئ هؤلاء المرضى شديدو الاضطراب بشحنات هائلة من الغضب والحسد وغيرها.

ومع استكشاف أعماق النفس البشرية، أصبح من الواضح أن «حلاوتنا ونورنا» الطبعيين يقابلها على الأقل «مرارتنا الطبعية وظلامنا»، ولم تكن بالتأكيد صدمة حقيقية في عام ١٩٨٣م لمعظم علماء النفس الإكلينيكيين ذوي الخبرة عندما اعترف الطبيب النفسي الشهير إم سكوت بيك بوجود الشر ونشر تحليله له في كتابه: **أهل الكذب** The People of the Lie.

ولُخِّص موقف جاك لاكان، المحلل النفسي الفرنسي البارز - أن قوة الأنا ما هي إلا نوع من الوهم - على النحو التالي:

لقد انفصل لاكان عن علم النفس الأمريكي بشكل كامل، وفي حين احتفظ المنظرون الأمريكيون بالمفهوم الفرويدي للأنا كعامل للتوليف والإتقان والتكامل والتكيف، كانت نقطة انطلاق لاكان هي إحياء مفهوم أكثر إثارة للقلق عن الأنا.

ففي حين يكتب الأمريكيون عن إتقان الأنا، كان لاكان يسعى لوضع هذا الإتقان في جدلية (هيجل) للسيد والعبد، وما كان يعتبر عامل قوة بالنسبة للأمريكيين، لم يكن بالنسبة للاكان إلا ضحية وهم القوة، وستكون الأيديولوجيا هي الحارس على الموضوعية بامتياز، والتي تتمثل وظيفتها الرئيسة في عزل الأنا عن العار المترتب على عملية التفكير الأولية (علم النفس اللاواعي لدينا).

باختصار، من منظور علماء نفس «العمق» وغيرهم ممن يعملون مع الأشخاص ذوي الاضطرابات الخطيرة، فإن الذاتانية نظرية سطحية تؤدي إلى إحداث تأثيرات إيجابية عرضية قصيرة المدى لدى الأشخاص الأصحاء بالفعل أو أولئك الذين يعانون من صعوبات عصبية طفيفة فقط.

ويقبل علماء الأخلاق - على سبيل المثال، الحائزان على جائزة نوبل كونراد لورنز ونيكو تينبرجن - العدائية/ العنف كواحدة من الخصائص الأساسية للحيوانات -وخاصة الرئيسات[1]- والبشر على وجه الخصوص.

وهم يرون أن العدائية عادةً ما تؤدي وظيفتها في الحفاظ على التنظيم الاجتماعي وعلى إبقاء المجموعات الأخرى من نفس النوع على مسافة آمنة، كما أن لدرء الحيوانات المفترسة فوائد واضحة.

وبالنسبة لعالم الأخلاق، يمكن أن تكون العدائية، مثل جميع السمات، إما «جيدة»، أي: تؤدي وظيفتها، أو «سيئة»، أي: لا تؤدي وظيفتها المطلوبة، اعتمادًا على الظروف المحيطة.

---

(١) وهي الثديّات العليا، أي: مجموعة من الثدييات تشمل الإنسان والحيوانات القريبة الشبه به وفقًا لنظرية التطور.

أما الادعاء بأن طبيعة البشر عدم العدوانية، فهذا مناف للعقل، وفي الواقع، فإن نجاحنا وهيمنتنا كنوع يشير بقوة إلى غلبة العدائية على طبيعتنا.

ويعتقد كل من تينبيرجن ولورينز أن القدرة العدائية للبشر أصبحت الآن غير متوازنة مع التغيرات الثقافية الأخيرة، وهما يقودان نقاشًا حيويًا حول الطبيعة الدقيقة لعدائيتنا وكيفية السيطرة عليها، وحتى عالم الأحياء رينيه دوبوس - وهو عالم إنساني بارز يشترك في العديد من القيم مع منظري الذاتانية - يفترض مع ذلك أن أي تحليل للإمكانات البشرية يجب أن يبدأ بالعدائية كخاصية أساسية لشخصيتنا، ويضيف «في ضوء حقيقة أن البشر تطوروا كصيادين، فليس من المستغرب أنهم ورثوا ميلًا بيولوجيًا للقتل».

ويقبل لودويج فون بيرتالانفر -وهو عالم أحياء وإنساني بارز آخر- إمكانية الخير والشر باعتبارها جوهرية في الطبيعة البشرية، ويناقش على أسس بيولوجية بحتة أن القواعد الأخلاقية الأساسية - مثل تلك التي تحرم القتل والاغتصاب والسرقة وما شابه ذلك- ضرورية للبقاء على قيد الحياة، كما أن هناك حاجة بيولوجية إلى روابط إيجابية قوية من الرفقة والحب، ويشير إلى أن السلوك المتوافق مع هذه المعايير الأخلاقية أمر شائع في الكثير من الحيوانات الاجتماعية والجماعات البشرية البدائية.

وبالتالي فإن الأخلاق الأساسية تتكون ببساطة من غرائز لفظية، ويمضي في تطوير تفسير مثير للاهتمام لأساس العنف البشري عبر القول بأن السمة الإنسانية الأساسية هي القدرة على صنع الرموز.

فلذا فإن أصل ومنشأ الحروب هو «الصدام بين الأيديولوجيات أو الرموز»، وليس الحاجة البيولوجية للبقاء،

وبمعنى آخر، فإن الحرب هي النتيجة الطبيعية للعدائية البشرية التي يُعبَّر عنها في أكثر أشكال الرموز المميزة للبشر، وقصة العهد القديم عن أصل الشر التي وجدها دقيقة بشكل ملحوظ، وأعاد صياغتها على هذا النحو: «الذلك على الإنسان أن يدفع ثمن التفرد الذي يميزه عن غيره من الكائنات، وشجرة المعرفة هي شجرة الموت».

ونادرًا ما يأخذ دعاة الذاتانية ومنظروها في الاعتبار أن التعبير عن ما يسمى بالدوافع الإيجابية مثل الجنس يمكن أن يكون مُختلًا، ولكن اليوم، أصبحت الدولة بأكملها على دراية ببعض عواقب الثورة الجنسية المتمحورة حول الذات، فبالإضافة إلى الملايين من حالات الأمراض المنقولة جنسياً، بعضها الآن غير قابل للعلاج، مثل: الإيدز والهربس [1]، وحالات العقم التي لا حصر لها الناجمة عن التهاب الحوض والأمراض الأخرى المنقولة جنسياً، فقد شهدنا مؤخراً المجتمع النفسي يقر بأن العديد من السلوكيات الجنسية غالبًا ما تكون نوعًا من الإدمان، ويمكن أن يشمل الإدمان الجنسي ارتياد أماكن البغاء، والاستمناء (الرجال والنساء على حد سواء)، ومشاهدة المشاهد والصور الإباحية، بالإضافة إلى الطوفان المثلي الذي لا يمكن السيطرة عليه.

وهناك أمراض أخرى قد تكون مسببة للإدمان وقد لا تكون كذلك، مثل السادو-مازوخية، وهناك مؤلفات كبيرة مكرسة لمتع جنسية

---

(١) (كلاهما الآن قابل للعلاج -المترجم)

غريبـة، مثـل: متعـة الجنـس Joy of Sex، والمزيـد مـن متعـة الجنس More Joy of Sex، والجنـس الجماعـي Group Sex، والمتعـة الجديدة للجنس المثلي The New joy of Gay Sex.

كما ظهرت كُتب تدافع عن الأطروحة القائلة بأن السادو-مازوخية جيدة إذا كنت ترغب في ذلك، وتجادل بأنه إذا لم تكن قد جربتها، فلا تنتقدها، وتُعرض الإعلانات عن هذا النوع من السلوك بشكل بارز في منشورات مثل: صوت القرية The Village Voice .

قـد نلتهم أنفسـنا والآخرين في محاولة إرضـاء جوعنا البيولوجي، ومـع ذلـك لا نتلقى سـوى القليل مـن التركيز من أصحـاب النظريات الذاتانية، بالرغم من المبدأ النفسـي الموثق جيدًا بأن مسـتوى التكيف مـع المتعـة (أو مسـتوى الإثـارة الأمثـل) يرتفع باسـتمرار مـع الخبرة أوالتجربـة، وتدفـع «نسـبية المتعة» الناس إلى ممارسـات متطرفة أكثر وأكثر لمجرد الحفاظ على مقدار المتعة ثابتًا.

وفي الممارسة العملية، يؤدي هذا إلى تناقص المتعة، بسبب الآثار الجانبية السـلبية المتزايدة للممارسـات الأكثر تطرفاً، وقد لاحظ عالم النفس دونالد كامبل في الزواج والعلاقات الشـخصية الأخرى ظاهرة معاصرة شـائعة متمثلة في زيادة توقع المتعة جنبًا إلى جنب مع ارتفاع مستوى التكيف، مما قد يؤدي إلى إحباط قد يدمر الكثير من الزيجات الحاليـة، ولذلـك يرى إن المبدأ الذي تؤكد علـى واجب الالتزام بدلاً منَ الوعد بالمتعة؛ قد ينتج قدرًا أكبر من الرضا.

واستشـهد ماسـلو بأدلة مختلفة لدعم افتراضه أن الطبيعة البشـرية مطبوعة على إمكانات الخير فقط، وقد ذكر كوفر وأبلي - في كتابهما

المعـروف؛ الدافعية: البحث والنظريـة Motivation: Research and Theory -بـأن هـذا الدليل العلمي المحـدود - مثل التنظيم اللاواعي لوظائـف معينـة فـي الجسـم، والاختيـار الذاتـي للنظـام الغذائي عند الأطفال والحيوانات - دليل بعيد الصلة وضعيف للغاية.

وأضافا: *إن من الأدلة الأخرى على وجهة نظر ماسـلو عن الطبيعة البشـرية، مـا نعرفه عـن أن الأطفال طبيعيـون، وعفويـون، وتلقائيون، وفضوليـون، وبطريقتهم، مبدعون إلـى حد أكبر من الكبار العاديين أو الأطفـال الأكبر سـنًا في ثقافتنـا، وهذه نقطة يصعـب الاختلاف معها، رغـم قلـة البيانـات التي تدعم صحتها بشـكل مباشـر، سـوى الطريقة الانطباعية.*

ومـرة أخـرى، مـن الصعب تحديـد سـبب اعتبار هـذه الخصائص بمثابـة دعـم لرؤيـة عامـة للطبيعة البشـرية دون الإشـارة أيضًـا إلى أن الأطفـال كثيـراً مـا يكونون عصبييـن، ومندفعيـن، ومحـدودي النظر، وعدائييـن، ومتمركزيـن حـول ذواتهـم، ومحكوميـن بالاحتياجـات الفسيولوجية.[1]

أمـا بالنسـبة لمفهـوم ماسـلو المعروف عـن «تحقيق الـذات»، فإن الدراسـات القليلة نسـبيًا التي بحثت هذه الفكرة كانت بعيدة كل البعد عـن دعمهـا، فعلـى سـبيل المثـال: يفتـرض ماسـلو أن الأشـخاص المحققيـن لذواتهـم يتمتعون بدرجة عالية من الإبداع، ومع ذلك، فإن الاختبـار الـذي أجـراه ماثيـس Mathes، لـم يجـد أي دليـل على هذا الافتراض الأساسي.

---

(1) Charles N. Cofer and Mortimer H. Appley, Motivation: Theory and Research (New York: Wiley, 1964),

كما توقع ماسلو أيضًا بأن الشخص المحقق ذاته، يميل إلى أن يكون قويًا جسديًا، ولم تجد دراسة أجريت للتحقق من هذا التوقع أي دعم لها، ومن الصعوبات الرئيسة الأخرى مع ماسلو تكمن في التسلسل الهرمي للاحتياجات، كما أشار أحد علماء نفس الشخصية، «هناك أشخاص على استعداد للمعاناة من الجوع والعطش حتى الموت من أجل القيم التي افترض ماسلو أنها أقل قوة من الاحتياجات الفسيولوجية» ولا يمكن لنظرية ماسلو تفسير ذلك، كما أن تعريفه لتحقيق الذات غير كافٍ.

ويوجد اختبار ورقي واحد يقيس الفروق الفردية في تحقيق الذات، ولكنه تعرض للكثير من الانتقادات بسبب العديد من المشكلات الخطيرة، بما في ذلك التحيز الواضح ضد الدين.

كما وُجه نقد أساسي آخر لماسلو؛ وهو أنه افترض أن أكثر احتياجات الإنسان الأساسية هي الاحتياجات الفسيولوجية واحتياجات السلامة الجسدية.

والمشكلة هنا هي أن الشيء الذي يحتاجه المولود الجديد أكثر من أي شيء آخر هو وجود أم محبة، فما لم يُحتَضَن المولود الجديد والعناية به، فسوف يموت بسرعة.

وقد أظهرت الدراسات أيضًا أن الأطفال الذين تلبى جميع احتياجاتهم الجسدية بشكل جيد، ومع ذلك - لا يكون نموهم طبيعياً وكثيراً ما يموتون -إذا لم يتلقوا الاهتمام المناسب والرعاية الشخصية.

باختصار: يرتبط الحب ارتباطًا وثيقًا بصحتنا الجسدية منذ البداية، ومن التعسفي والمضلل الإيحاء - كما يفعل ماسلو- بأنك تلبي

احتياجاتك الفسيولوجية أولاً، ثم تأخذ احتياطات سلامتك، وبعدها تفي باحتياجاتك من الحب والانتماء، ومن ثم ترضي احتياجات احترام الذات، فلا وجود لمثل هذا النظام.

وهناك مشكلة أخيرة في تحقيق الذات وهي أن ماسلو -في نهاية حياته - صرح بوضوح شديد أن تحقيق الذات موجود فقط لدى البالغين، وقال على وجه التحديد إن هذا المفهوم لا ينطبق على الأطفال، وأنه حتى طلاب الجامعات لا يمثلون تحقيق الذات بشكل كبير.

ومع ذلك، فقد جاء الكثير من الحماس لفكرة تحقيق الذات من المدارس العامة، وتجاهل المعلمون تراجع ماسلو، وحتى العديد من الدراسات التي حاولت استكشاف معنى تحقيق الذات إنما أجرت دراساتها على طلاب الجامعات.

وقد كان ماسلو شخصيًا أكثر واقعية مما أظهرته نظرياته على الإطلاق، لقد كان مدركًا تمامًا لوجود الشر، وفي نهاية حياته، في عام ١٩٧٠م، كان يحاول تصحيح بعض مساهماته الخاصة في «حماقات» عصره.

وباختصار، فإن دعم الدراسات التجريبية لفكرة تحقيق الذات ضئيل مقارنة بالحماس الواسع النطاق الذي أحاط بها.

وبدأ كارل روجرز بعضًا من أولى الدراسات التجريبية البدائية جدًا عن العلاج النفسي عن طريق تسجيل المقابلات العلاجية وتحليل التسجيلات، وكانت عادةً ما تكون دراسات نوعية.

كما كان له دور فعال في بعض التحقيقات المبكرة للمفاهيم الذاتية للمرضى باستخدام تقنية طورها ستيفنسون تسمى Q-sort.

أو طريقة كيو، وهي دراسة تحاول التحقق من أن آراء المشاركين تعبر عن مفاهيمهم الذاتية.

ولكن بالرغم من هذه المحاولات الأولية الواعدة، فإن البحث اللاحق الذي أجراه روجرز وأتباعه كانت نتائجه ضئيلة.

وفي الواقع، تحول تركيزه كثيرًا في الاتجاه المعاكس لدرجة أنه يهاجم الآن علم النفس باعتباره تركيزًا تعسفيًا أحادي الجانب على المنهجية وتصميم البحث.

ورداً على ذلك، اتهم علماء النفس الإكلينيكي البارزون مثل هانز ستروب روجرز وأتباعه بأنهم مصدر من اللاعقلانية الغامضة وتهديدًا خطيرًا للسلامة العلمية لعلم النفس الإكلينيكي.

ويجادل أصحاب النظريات الذاتانية بأن أفكارهم تستند في الواقع إلى بيانات تجريبية واسعة النطاق، أي بيانات وعواطف وسلوك مرضاهم أو عملائهم.

ويزعمون أن التجارب السريرية مصدر ثري للأدلة التي لا يمكن إنكارها لمجرد أنها لا تتناسب مع المتطلبات التقليدية الصارمة للتجارب العلمية القياسية.

وهذا الادعاء مهم للغاية بالنسبة للمسيحية والديانات الأخرى أيضًا، لأنه إذا كان مسموحًا به، فهذا يعني أن نفس المعايير لما يشكل دليلاً تنطبق أيضاً على اللقاءات بين رجال الدين والتائهين روحياً الذين يلتمسون إرشادهم.

وغالبًا ما استُخدام «الدليل الإكلينيكي» حول تأثير التحول أو إعادة الميلاد الروحي للتشكيك في صحة مثل هذه التجارب.

وتشكل الروايات الشفوية (سواء أكانت سيرة ذاتية أم شهودًا) عن الفرح العظيم والشعور بالحكمة وعن قدرات القديسين بعض البراهين التقليدية الرئيسة على المسيحية، ونسمع الآن أن مثل هذه الملاحظات -في هذا النوع من الوضع والعلاقة- تعتبر بمثابة دليل علمي مقبول!

ولا يكفي الرد بأن هذا النوع من الأدلة يجب أن يؤخذ فقط على أنه المرحلة الأولى من جمع البيانات، وبعد ذلك ينتقل إلى الإجراء التقليدي الأكثر دقة لاختبار الفرضيات بطريقة علمية.

وفشل مثل هذا الرد مرده إلى ٣ أسباب:

(١) أن الادعاء المقدم في حالة نظرية الذات هو أن هذا النوع من الأدلة مقبول في حد ذاته.

(٢) في حالة أصحاب النظريات الذاتية، مرت عشرون إلى ثلاثين عامًا دون أي دليل مهم على تطور المرحلة العلمية للنظرية.

(٣) قال الأطباء النفسيون وعلماء النفس الإكلينيكي مؤخرًا بأن الموقف العلمي التقليدي أو النموذج العلمي لم يعد مناسبًا من حيث المبدأ.

فعلى سبيل المثال: يتساءل علماء النفس الوجوديون «عن الدور النظري لجميع الحركات الرئيسة في علم النفس المعاصر: أي: الافتراض بأن دراسة الإنسان يمكن أن تكون علمًا طبيعيًا بالكامل».

وقد بدأ يتضح فقدان المعايير العلمية فيما يتعلق بعلم النفس الإنساني وعلم النفس ذي الصلة حتى في عالم كتب علم النفس.

فعلى سبيل المثال: يصف أحد النصوص البارزة حول نظريات الشخصية نظرية ماسلو بأنها نظرية «من الصعب تحديد أين ينتهي العلم ويبدأ الإلهام».

وأظهر نقد حديث للتحليل النفسي - وبتضمينه المباشر جميع نظريات العلاج النفسي المستمدة من الأدلة المأخوذة من الجلسات العلاجية - أن علم النفس لا يمكن أن يكون علميًا حتى من حيث المبدأ.

بعبارة أخرى، فإن أساس الحصول على الدليل - أي الجلسة العلاجية - متحيز وشخصي للغاية، وغير خاضع للتحكم، وبالتالي لا يمكن تقييم أي معلومات حُصل عليها منه علميًا.

ولجعل الأمور أكثر إثارة للاهتمام، زعم العديد من المنظرين الحديثين للعلاج، أن العملية عبارة عن سرد قصة أو عملية سردية وليست عملية علمية.

ويرى هؤلاء المنظرون (مثل دونالد سبنس) العلاج النفسي على أنه تطور لنوع من التاريخ الشخصي، لا يمكن التحقق من حقيقته جيدًا.

وبالإضافة إلى سبنس، يقبل عدد كبير من المعالجين فكرة أن العلاج النفسي ليس علميًا ولن يكون أبدًا، وهي حقيقة يحتفون بها كثيرا، أي: أن المعالجين النفسيين قد تخلوا بشكل متزايد عن النموذج العلمي والطبي أو رفضوه بشكل كامل حتى لو كان نموذجًا مثاليًا.

ويستند التحول عن المنظور العلمي إلى أنواع مختلفة من الحجج التي تفيد بأنه لا العلم الطبعي ولا النموذج الطبي للعلاج النفسي كافيين للتفسير.

وقد طور المنظرون الرئيسون - على سبيل المثال، فرانك وفرانك - فكرة أن العلاج النفسي عبارة عن عملية إقناع، تُخفف فيها المعاناة عبر إيمان المريض بالمعالج ودعم المعالج للمريض وتعاطفه جنبًا إلى جنب مع التطبيق المناسب لمجموعة متنوعة من النظم النظرية.

وبالرغم من أن أنظمة اليوم يجب أن تتمتع بخصائص من شأنها أن تبرر بشكل فعال إيمان المريض المعاصر، إلا أن التركيز لم يعد ينصب على محاولات «إثبات حقيقة» نظريات العلاج النفسي المختلفة.

واعتاد علماء النفس الإكلينيكي أن يجادلوا بقوة بأن تخصصهم كان علمًا «حسن النية » - ينوي الحصول على معرفة جديدة بطرق علمية صارمة- من أجل دعم مطالبته بالحقيقة (ولمساعدته في الحصول على ملايين الدولارات من الضرائب لدعم وتبرير مطالبات التأمين)، ويصنف الكثيرون اليوم علم النفس في فئات لا يمكن تمييزها عن تلك المستخدمة في العلاجات والتحولات الدينية.

وقد كانت هناك بعض المحاولات المدروسة والمنهجية والعلمية لتصور وتقييم ما إذا كان العلاج النفسي يعمل بشكل فعال، وكانت النتائج متواضعة للغاية، لا سيما فيما يتعلق بادعاءات المناصرين.

ومع ذلك، هناك أدلة معقولة على أن العلاج النفسي والاستشارة يفيدان نسبة كبيرة من الأشخاص الذين يلجؤون إليهما.

ومـع ذلـك، فإن هـذه الفوائد لا ترجع إلى النظريـات الخاصة التي يتبناهـا المعالجـون، وبالتالي لا يبدو أنه يهم كثيـرًا ما إذا كان المعالج فرويديًـا أو يونغيًـا أو فرويديًا جديدًا أو إنسـانيًا أو معالجًـا انتقائيا، بل تشـير الأدلـة بقـوة إلـى أن فوائـد العـلاج النفسـي تأتـي مـن العوامـل المشتركة الموجودة في كل نوع من أنواع العلاج.

وتشمل العوامل الرئيسة التي تحدث فرقًا؛ التزام المريض بالعلاج والدعـم الإيجابـي مـن المعالج للمريـض، جنبًا إلى جنـب مع القدرة (غالبًـا ما تسـتند إلـى الخبرة) علـى تصحيح الأفـكار الخاطئة للعميل وتسهيل التغييرات الإيجابية.

والاسـتثناء الوحيد لهذه الصورة هـو أن هناك بعض الأدلة على أن الأساليب المعرفية السلوكية -عند تطبيقها على مشاكل نفسية محددة للغايـة مثل الرهـاب، ونوبات الهلع، وغيرهـا- يمكن أن تكون أفضل من الأشـكال المختلفة للعلاج «بالكلام» (لكن هذه الأسـاليب ليست جزءًا من علم النفس الإنساني)[1].

هل نحن في جوهرنا خيرون؟

يبـرز سـؤال: إلـى أي مدى بالضبـط يبلغ تطـرف قناعـات منظري الذاتانية حول الخير الكلي الكامن في الطبيعة البشرية؟

الجـواب: متطـرف للغاية، فالمشـهورون الذين يبلغ عـدد مبيعات كتبهـم الملاييـن يفترضـون بالإجمـاع تقريبا وجود الخيـر في الذات، وَنادرا ما يناقشـون مشـكلة هـذا التمحور حول الـذات الذي قد يؤدي إلى الاستغلال أو النرجسية أو السادية.

---

(1) Lambert, Shapiro, and Bergin, "The Effectiveness of Psychotherapy

ومن الواضح أن الجمع بين التغافل عن هذا الجانب والصياغة المستمرة لرسالة واضحة مفادها عليك «أن تحب وتثق بنفسك وتفعل ما تريد» هو أحد أسباب شعبيتها الكبيرة.

وقد يتحفظ المنظرون بشأن هذه القضية، لكن ليس بالقدر الكبير ولا في كثير من الأحيان، حيث يصف هول وليندزي- في نصهما المشهور عن نظريات الشخصية -موقف ماسلو بأنه يشير بالتأكيد إلى أن «الإنسان له طبيعة فطرية هي في الأساس خيرة وليست شريرة أبدًا».

ولعلك تذكر مقولة فروم السابقة بأن الأخلاق الإنسانية لا يمكن الدفاع عنها إذا كانت «عقيدة الشر الفطري الطبعي للإنسان صحيحة».

وقد أدى تفاؤل روجرز باستمرار إلى الفشل في المعالجة المنهجية لمشاكل مثل العدائية العنيفة، والسادية، والنرجسية.

وفي اثنين من تصريحات روجرز الرسمية حول نظريته في العلاج أشار إلى الحدود التي يذهب إليها.

وفي أهم ملخص نظري له، يفترض روجرز كعمليات أساسية مركزية للعلاج أن يشعر العميل على نحو متزايد بـ «احترام الذات الإيجابي غير المشروط» ويرى «نفسه كمركز للاهتمام».

ولا يوجد في أي مكان من أعماله أي ذكر لهذه المبادئ أو تحديد الأشخاص أو الشروط التي لا تنطبق عليهم، ولم أجد مثل هذه الشروط في أي من كتاباته الأخرى، بل إن التشجيع على النرجسية والانتماء والانغماس في الذات واضح.

كان فروم أكثر وعيًا بمشكلة الشر وأهميتها النظرية بالنسبة لموقفه، وكرس كتابًا: **تشريح الإنسان المدمر** ليناقش في موقفه الإنساني ضد النقد المتزايد، وبالرغم من طوله، فشل العمل بشكل كبير في الدفاع عن شكله الخاص من الإنسانية «المتفائلة».

وهناك العديد من نقاط الضعف الرئيسة في حجة فروم.

أولاً: يقسم العدائية إلى نوعين: عدائية دفاعية مفيدة، أي: عدائية جيدة، وعدائية عنيفة خبيثة.

وهذه الأخيرة هي الشر الحقيقي الوحيد، وهي ناتجة حصريًا عن المجتمع الاستغلالي وليس جزءًا من الطبيعة البشرية.

وتكمن الصعوبة الأولية في أن وجود المجتمعات الاستغلالية بحد ذاته لا يُنظر إليه على أنه مرتبط بالطبيعة البشرية، فلو كان الناس طيبين، فكيف ساءت المجتمعات إلى هذا الحد؟

وهناك أيضاً مشكلة أخرى لا تقل أهمية عن هذا التمييز ففي الحياة الواقعية، يمكن لعدد قليل من الناس - إن وجد - أن يميزوا مثل هذا التمييز بشكل موثوق عندما يتعلق الأمر بشؤونهم الخاصة، فلدينا تحيز قوي لإساءة فهم ردود الفعل الدفاعية المشروعة للآخرين على أنها عدوان عدائي وهجوم، وهذا الاتجاه شائع حتى في الأطفال الذين تقل أعمارهم عن عام واحد، والذين يكون دور العوامل الاجتماعية لديهم ضئيلًا.

وعلى هذا النحو، فإن هذا التحيز هو لب الكثير من العدائية المدمرة والخبيثة، وجزء مهم مما يعنيه المفهوم اللاهوتي للخطيئة الأصلية، وهذا هو التحيز الذي يشوه حكمنا وإرادتنا.

ثانيًا: حاول فروم شرح شخصية بعض الشخصيات التاريخية السادية والخبيثة المعروفة، وقد فشل شرحه في تحديد أي ظروف بيئية غير عادية في طفولتهم، يمكن أن تفسر العنف والشر اللذين ارتكبوها عندما صاروا بالغين.

وإذا كان لبعض الشخصيات التاريخية آباء و / أو أمهات مسيئون بشكل رهيب، فإن هذا يثير أسئلة أعمق: (١) لماذا يجب أن نكره الذين يسيئون إلينا ويؤذوننا؟ لماذا لا نتجنبهم مثلما نتجنب سوء الاحوال الجوية؟ (٢) من أين جاءت دوافع الآباء المسيئين؟ هذا هو السؤال، كيف وصلوا إلى هذا الطريق؟

إن القول بأنهم كانوا جميعًا جزءًا من مجتمع استغلالي أمر لا يمكن التسليم به، علاوة على ذلك، لماذا يجب أن يكون للمجتمعات الاستغلالية مثل هذه الآثار ما لم يكن لدينا استعداد لتطوير القدرة على العنف؟

وباختصار: لماذا يجب أن يأتي العنف والكراهية بهذه السهولة، أي بشكل طبيعي؟

ونقطة الضعف الرئيسة الثالثة هي أن أمثلة فروم مأخوذة كلها من حالات تاريخية متطرفة- وهذا ليس من قبيل الصدفة- لأنه يحمل في طياته الإيحاء بأن الشر نادر نسبيًا.

وبالرغم من توافق ذلك مع نظرية فروم، فإن الشر للأسف تجربة مألوفة في حياة الناس العاديين، وتحدث المعاناة من التدمير والخسة والكراهية يوميًا في الأقسام الأكاديمية بالجامعات والمعاهد اللاهوتية والوكالات الحكومية ومنظمات الأعمال وخطوط التجميع والمنازل

في المدن الكبيرة والبلدات الصغيرة، فالكلام البذيء، والطعن في الظهر، وما شابه ذلك هي أفعال يرتكبها حتى الأشخاص «اللطفاء» في كثير من الأحيان.

والمتوحشون عبر التاريخ ليسوا بالضرورة أسوأ مني أومنك، صحيح، لقد استطاعوا الوصول إلى قوة سياسية كبيرة لتعزيز نواياهم، ومعظمنا لا يملك قدرة الوصول لهذه القوة، لكن الشر هو نفسه إلى حد كبير.

ويعتبر التعزيز لأوهام العنف والانتقام هواية مفضلة في جميع أنحاء العالم؛ وعندما نشعر بالملل، يمكننا أن ننتقل إلى الكم الهائل من البرامج التلفزيونية والأفلام والأدب المتخصص في الانتقام والعنف.

وفشل فروم أيضًا في تقدير عامل الملل في تحفيز النشاط العدواني، فمن أعظم إغراءات العنف والحرب هو أنه يسمح للكثيرين بالهروب من الملل عبر توفير مهرب مثير.

ويصف عالم النفس والأنثروبولوجيا أرنست بيكر الدافع التاريخي للحرب بهذه الطريقة: من الواضح أن الأولاد الذين يتجولون في مجموعات صغيرة يلعبون لعبة الحرب يفعلونها بدافع المتعة ونادرًا ما يظهرون كراهية أو عنفًا حقيقيًا في مثل هذه الألعاب.

إن الملل أو الحاجة إلى التحفيز -كقوة محفزة- يُقَلل من شأنها بشكل خطير كعامل في العديد من المشاكل الاجتماعية اليوم، مثل جرائم الأحداث والمخدرات والمشاكل الجنسية.

أخيرًا، الأدلة البيولوجية لفروم لا تمثل الواقع إطلاقاً، فهو يتجاهل الدليل على العدائية المميتة داخل الأنواع؛ على سبيل المثال: يقتل

ذكور الأسود - مثل العديد من القطط الذكور- صغارهم بشكل متكرر، وينطبق هذا أيضًا على بعض ذكور الرئيسات.

ولم يناقش فروم أبدًا الدليل على أن الحيوانات المتماسكة اجتماعيًا - الشمبانزي والبابون مثلاً - غالبًا ما تُظهر الصفتين معاً؛ التعاون داخل المجموعة والعدائية خارج المجموعة.

ولكن هذه الانتقائية تتضاءل بجانب إغفاله للنظريات التطورية للمجتمع، بما في ذلك النظريات التطورية للفضائل والأخلاق التي اقترحها علماء الأحياء.

وفي الشكل المتطرف، تعمل حجة هؤلاء العلماء على النحو التالي: «الكائن الحي لا يعيش لنفسه، وظيفته الأساسية ليست حتى إعادة إنتاج كائنات أخرى؛ إنه يستنسخ الجينات ويعمل كحامل مؤقت لها» (تذكر موقف برتالانفي بأن المبادئ الأخلاقية غرائز لفظية)، ولا يحتاج المرء إلى قبول مثل هذا الاختزال البيولوجي الجذري ليرى مع ذلك أن طبيعتنا البيولوجية توفر أساسًا نظريًا لفهم المجتمع، وهو أساس مختلف تمامًا عن المفاهيم الغامضة التي تقترحها النظرية الذاتانية الإنسانية.

والشكل المتطرف من حجة علماء الأحياء الاجتماعية هي أن علم الأحياء يحدد كثيرا من / كل بنيتنا الاجتماعية وأدوارنا، تمامًا كما يحدد لون أعيننا.

وعلى سبيل المثال: يؤكد العديد من علماء الأحياء الاجتماعية على الحتمية الصارمة والأنانية الجوهرية لجميع الأفراد، ويتم تفسير الإيثار على أنه محدد بيولوجيًا وكشكل مقنّع من الأنانية الفردية أو

الجماعية؛ أي: أنهم يقدمون الادعاء المعاكس للإنسانيين، أي: أن البشر أنانيون تمامًا.

وفي السنوات الأخيرة، أصبح عدد قليل من علماء النفس يقولون بوجود الخير الكامل للذات الطبعية، وربما كانت الأحداث التاريخية والاجتماعية سببًا رئيسا لهذا التحول.

فعلى سبيل المثال: أثارت الهولوكوست أسئلة عميقة حول قدرة الإنسان على الشر، كما أن الصراعات العرقية والمذهبية والدينية الرهيبة في العالم في الشرق الأوسط والهند وأوروبا الشرقية وأيرلندا، على سبيل المثال - والصراعات العرقية المستمرة والمؤلمة داخل الولايات المتحدة أيضًا - جعلت الافتراضات المتفائلة لعلماء النفس السابقة تبدو ساذجة، بل ربما سخيفة.

دعونا نختتم عرضنا للنقد العلمي للموقف القائل بأن الطبيعة البشرية خير خالص تقريباً، وأن الشر نوع من خطأ المجتمع، مع بعض الملاحظات التي أدلى بها عالم النفس الاجتماعي دونالد كامبل، رئيس الجمعية الأمريكية لعلم النفس وأحد دعاة التفسيرات الاجتماعية والبيولوجية التطورية للمجتمع البشري.

يرى كامبل في المجتمع الأمريكي المعاصر «إنتاجًا غير مثالي لأفراد نرجسيين، فوضويين وأنانيين بشكل مفرط»، ويلقي اللوم على علم النفس بقوله:

يوجد في علم النفس اليوم افتراض عام مفاده أن الدوافع البشرية البيولوجية صحيحة ومثالية، على الصعيدين الفردي والاجتماعي، وأن التقاليد الأخلاقية القمعية أو الكابحة خاطئة.

وقد يُنظر إلى هذا الافتراض الآن على أنه خطأ علميًا، فعلم النفس -عبر نشر هذا المفهوم في تعليمه ربما لنسبة ٨٠ أو ٩٠ ٪ من طلاب الجامعات الجامعيين وطلاب المدارس الثانوية والمدارس الابتدائية -يساعد على تقويض الحفاظ على ما قد يكون قيمًا للغاية من الأنظمة الاجتماعية الكابحة والتي لم نفهمها بالكامل بعد.

وعلى وجه التحديد، كما يقول، هناك «وظيفة اجتماعية وإصلاحية نفسية لمفاهيم الخطيئة والإغراء والخطيئة الأصلية بسبب الطبيعة البشرية الجسدية الحيوانية».

الفصل الرابع

من وجهة نظر فلسفية

مسألة تعريفات

من منظور فلسفي، فإن أكثر الصعوبات وضوحًا مع نظرية الذاتانية هي أن مؤيديها يفشلون في تحديد أو وصف مفهومهم المركزي- الذات- بشكل كاف.

ولعل أقرب ما توصلوا إليه من إدراك لهذه المشكلة جاء في كتابات الوجوديين، ومع ذلك، فهناك صعوبات شديدة، كما سنناقش أدناه.

وقد تجاوز هذه القضية الأساسية بشكل أساسي المنظرون الذاتيون الأمريكيون، فبالنسبة لهم، معنى مفهوم «الذات» بدهي، حيث يُعمد على قبول «أنا»، كما يفهمها كل شخص بطريقته، وبالطبع، تُطرح العديد من الأمثلة على الذات المنغمسة في تحقيق ذاتها، لكن هذه الأمثلة لا تحل الصعوبات الأساسية.

فعلى سبيل المثال: هل تنبثق الذات من علم الأحياء؟ وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا يتجاهل أصحاب النظريات الذاتانية طبيعتنا البيولوجية؟ ويقدمون أوصافًا رائعة مثل قول ستيفنز:

في البداية كنت شخصًا واحدًا لا أعرف شيئًا سوى تجربتي الخاصة، ثم قيل لي أشياء وأصبحت شخصين، في البداية كنت أنا وكنت طيباً، ثم جاءت سلطة خارجية أخرى.

إن مثل هذا التلخيص الموجز -بنبرته المتفائلة حول طيبتنا الأصلية -مع افتراضه كلمة «أنا» غامضة غير محددة، وعُبّر عنها بلغة قصة الخلق التوراتية (يبدو السطران الأخيران وكأنهما محاكاة ساخرة)، واستكمل عبارته بالتبرير المريح بأن كل الشر سببه الآخرون، هو عبارة عن تحفة من التفكير الصوفي.

ولكن السؤال الواضح حول كيف تمكن الأشخاص الآخرون -الذين ولدوا جميعًا على قدم المساواة من الخير - من اكتساب القوى الاجتماعية الشريرة؟، فهذا لم يُناقَش أبدًا.

ومشكلة أخرى مهمة في نظرية الذاتانية وهي: ألا يوجد العديد من الأجزاء والأحوال المتضاربة للذات؟ لأن من المؤكد أن الصراع بين الأهداف الذاتية المختلفة والمثل العليا وغيرها تجربة مشتركة.

وإذا كان الأمر كذلك، ما هي الذات «الحقيقية»؟ وكيف يختار المرء من بين الذوات المختلفة؟ وإذا ما قيل إن هناك نفسا «حقيقية» واحدة فقط، أو أن الذوات الحقيقية المختلفة لا تتعارض، فما هو أساس هذا الادعاء؟ وكيف يُتَعرف على الإمكانات الحقيقية للذات؟ وهل مفهوم الذات لا يحتوي على طبيعة أو جوهر يحد من الوجود الأصيل وبالتالي يجب رفضه؟ ألم يقدم المجتمع- لا سيما المجتمع الغربي الحديث- مفهوم الذات في الواقع؟

ويبدو أن المنظرين الذاتيين لا يؤمنون بذلك؛ لأنهم دائمًا ما يضعون الذات في مواجهة المجتمع، الذي يُنظر إليه عادةً على أنه العدو.

ولقد أثيرت مثل هذه التساؤلات الصعبة لسنوات بالرغم من أن موقف سكينر نفسه لم يكن كافياً ولا ثابتًا، ويتعاطف المرء مع الاعتراض الذي أشار إليه في مناظرة عام ١٩٥٦ مع روجرز:

ما الدليل على أن العميل/ المريض أصبح حقاً موجهًا ذاتيًا؟ ما الدليل على أنه سيتخذ يومًا ما خيارًا داخليًا حقيقيًا للفكرة أو الهدف؟

فبالرغم من أن المعالج لا يقوم بالاختيار، بالرغم من أنه يشجع «تحقيق الذات»، فلا تزال لديه السيطرة طالما أنه مستعد للتدخل عندما يتطلب الأمر، على سبيل المثال: لو اختار العميل/ المريض هدفاً مثل أن يكون نصّاباً أو أن يقتل رئيسه.

لكن لنفترض أن المعالج انسحب تمامًا أو أنه لم يعد موجوداً، فماذا عن القوى الأخرى التي تؤثر على العميل/ المريض؟ هل الهدف الذي اختاره بنفسه مستقل عن تربيته الأخلاقية والدينية المبكرة؟ عن الإرث الثقافي لجماعته؟ عن آراء ومواقف الآخرين الذين يهمه أمرهم؟ بالتأكيد لا. ولم يرد روجرز في ذلك الوقت ولا بعده ابداً.

الذات الخاوية

حظيت مشكلة الطبيعة الاجتماعية للذات ببعض الاهتمام الجاد في السنوات الأخيرة، ولتوضيح هذه النقطة بشكل خاص، سألخص تحليل فيليب كوشمان Philip Cushman في مقالته: «لماذا تكون الذات خاوية: نحو علم نفس متناسب تاريخيا»[1]؛ لأنني أعتقد أن تصويره الخاص لهذه القضية مختصر ومقنع.

---

(1) Philip Cushman, "Why the Self Is Empty: Toward a Historically Situated Psychology, American Psychologist 45 (1990)

حيث يقدم دليلًا قويًا على أن «الذات» هي في الأساس بناء اجتماعي، وبالتالي يُحدد معنى الذات عبر المجموعة أو السياق التاريخي الذي يعيش فيه الفرد، وبالتالي فالذات لها طبيعة متحركة، من حيث إنها تتغير وتتطور باستمرار، إلى جانب التغيرات في الظروف الاجتماعية والتاريخية، وبالرغم من أن بعض جوانب الذات قد تظل ثابتة، إلا أن الكثير منها في حالة تغير مستمر.

ويقارن - ضمنيًا في كثير من الأحيان -البناء الأمريكي الحديث للذات بالمفاهيم السابقة الأكثر تقليدية، فعلى سبيل المثال: يقترح أن الذات الأمريكية قد تغيرت ببطء من نسخة سابقة كان الناس فيها بحاجة إلى توفير المال وإلى كبح جماح دوافعهم الجنسية والعدائية.

وعلى النقيض من ذلك، فإن لدى الذات الأمريكية الجديدة - التي نشأت منذ الحرب العالمية الثانية - حاجة ماسة إلى إنفاق الأموال والانغماس في الرغبات، وهي المعروفة في السياق الحالي باسم «تحقيق الذات».

وقد كانت الذات السابقة - وفقًا لكوشمان - أكثر تركيزًا على بناء الشخصية الأخلاقية والدينية، بينما أصبحت الذات الأحدث معنية بالشخصية العلمانية، وهذه الذات الحديثة كانت أيضًا موجهة بشكل أكبر نحو الآخرين وأقل اعتمادا على النفس، بالإضافة إلى ذلك، فإن الذات السابقة والأكثر تقليدية كانت متجذرة في العلاقات الشخصية الراسخة في العائلات الممتدة وفي مجتمعات الأحياء والبلدات الصغيرة، وأيضاً في الإيمان الديني.

ومع حدوث تغييرات اقتصادية وسياسية حديثة، تقلصت الأسر إلى الأسرة النووية، ومؤخراً، إلى الأسرة شبه النووية، مع وجود والد واحد فقط.

بالإضافة إلى ذلك، يعيش الكثير من الناس اليوم حياة منعزلة، بعيدًا عن العائلة والأصدقاء، وفي البيئات الحضرية؛ يتنقل كثير من الناس في عالم الشركات والأعمال بشكل مستمر، ومع هذه التنقلات المستمرة تتقلص بشكل كبير فرص إقامة علاقات شخصية مستمرة.

وتتمثل أطروحة كوشمان الأساسية في أن الذات التقليدية - التي جُردت من هويتها الاجتماعية القديمة - كانت «فارغة» أساسًا، ومُلِئ الفراغ الداخلي - الناجم عن المجتمع الحديث -من قبل قوتين اجتماعيتين جديدتين: علم النفس والدعايات الإعلانية.

الدعايات الإعلانية - أو ما يسمى هنا «المجتمع الاستهلاكي» - يعمل على إشباع الرغبات الشديدة للذات بشكل متزايد بدون منح أي هوية.

وبالتالي، فإننا اليوم نفهم هويتنا عبر المنتجات التي نستخدمها، وعبر الصور النمطية المرتبطة بتلك المنتجات، وعبر أنشطتنا الحياتية، مثل أماكن قضاء إجازاتنا ووسائل ترفيهنا، بمعنى آخر، عبر ما يُعرف عمومًا باسم «نمط الحياة».

ويجادل كوشمان بأن العلاج النفسي، جنبًا إلى جنب مع النشاط التجاري، يُلجأ إليهما لإعطاء معنى وهوية للأشخاص الذين يعانون من الشعور بالخواء الروحي.

وأوافق كوشمان هنا بأن النظريات النفسية قد وضعت صراحة وأصبحت شائعة بسبب هذه الحاجة على وجه التحديد، فعبر تقديم نظريات عن الذات وتحقيقها، يُملأ الفراغ الاجتماعي.

وعلى سبيل المثال: لنأخذ نظرية يونغ، التي نصت صراحة على أن الغالبية العظمى من مرضاه كانوا أشخاصًا في الثلاثينيات أو الأربعينيات من العمر فقدوا معنى الحياة، واعترف يونغ أيضًا أن معظم هؤلاء الأشخاص كانوا يعانون أيضًا نوعاً من الأزمة الدينية.

وتقترح نظرية يونغ أن اللاوعي الشخصي والجماعي للمريض تتجسد فيه أنواع القوى الشخصية، ويشمل اللاوعي لدى كل شخص نماذج أولية، تُرَمَّز بشكل مميز لكل فرد تشمل النماذج الأصلية للذات، والشخصية، والظل، والأنيموس Animus (الجانب الذكوري اللاواعي للمرأة) والأنيما Anima (الجانب الأنثوي اللاواعي للرجل)، وتضم مجموعة من الشخصيات الأخرى مثل أم الأرض، والرجل العجوز الحكيم، والبطل، وما إلى ذلك.

وفي ضوء تحليل كوشمان، أود القول إن يونغ يمكن أن يعتبر المنظر الذي يملأ الذات الفارغة للشخص بمجموعة كاملة من الشخصيات التي تستوعب طرقها الرائعة التي لا نهاية لها المرضى لبقية حياتهم، حيث يحل المجتمع النفسي الداخلي محل العلاقات الاجتماعية الخارجية.

ومع ذلك، يعتقد كوشمان أن الذات المعاصرة ما زالت - في كثير من النواحي - فارغة، بالرغم من مجهودات الدعاية وعلم النفس، والسبب هو أن علاقات العلاج النفسي - تعامل الفرد مع المعالج أو

مع مجموعة التعافي - ليست بدائل كافية للهوية الشخصية التقليدية القديمة.

وأود أن أضيف أن العلاقات مع «شخصيات يونغ» المستمدة من اللاوعي الخاص بك تفشل أيضًا في تلبية الحاجة العميقة للمجتمع البشري.

وأخيرًا، لا يكاد يوجد من يصدق حقاً أن المنتجات التي نشتريها ونمط الحياة الذي نعيشه، يمكن أن تلبي حقًا حاجتنا للهوية الشخصية، فباختصار، لقد فشلت الحلول الحديثة لملء الذات الفارغة!

تناقض أساسي

وُصِف المفهوم الوجودي للذات - باعتباره متميزًا عن مفهوم الذات النفسية الإنسانية العام - بشكل جيد، فعلى سبيل المثال: يقدم ماكلنتاير MacIntyre التوصيف التالي للذات الوجودية:

يشبه الفرد الوجودي الأنا الديكارتية بدون الكوجيتو (مبدأ إثبات وجود الكائن من واقع تفكيره أو وعيه) وقد ورث سارتر من الفينومينولوجيا ديكارتيّة صريحة.

فالفرد عند سارتر باعتباره الفاعل العارف هو الأنا الديكارتية المنعزلة، الفرد ككائن أخلاقي هو رجل كانطي استبدل المبادئ العقلانية الأولى بخيارات لا معايير لها، فلا وجود محسوس للإله ولا للطبيعة لجعل الكون منطقيًا وذا مغزى، ولا توجد خلفية لمعايير راسخة ومعترف بها اجتماعيًا في المعرفة أو الأخلاق، فلذا ففرد الوجودية هو الوريث الحقيقي لديكارت.

ويكشف ملخص ماكلنتاير أن فكرة الذات الوجودية تمثل صعوبات فلسفية كبيرة، فأولاً، يبدو أن مثل هذه الذات - المبنية على مفهوم الاختيار غير المعياري - مستحيلة، فالاختيار على أساس عدم وجود معيار ليس اختيارًا.

فعلى الأقل، يجب تحرير هذا المفهوم - المتناقض والغريب جدًا، ولكنه مركزي جدًا للوجودية - قبل قبول الذات الوجودية التي تعتمد عليها.

وفي الواقع العملي، بالطبع، تُقبَل المعايير من قبل الجميع -غالبًا عن طريق اللاوعي- والفلسفة الوجودية الشخصية تنطلق منها، ولكن الوجودية المتسقة لا يمكن أن تسمح بقبول أي معايير - خاصة معايير لم تخضع للفحص - بسبب عبثية الوجود، أي: أنه لا توجد مبادئ مسبقة أو صالحة خارجيًا، حتى الحياة نفسها ليست ذات مغزى جوهري.

وبالتالي، لا يمكن للوجودي الشامل أن يبدأ الحياة الوجودية أبدًا؛ لأن عملية الاختيار لا يمكن أن تبدأ أبدًا، فلا يمكن للوجودي تجاوز مشكلة معايير الاختيار الأول.

ومن حين لآخر، أدرك الوجوديون هذه الصعوبة؛ كما حدث عندما اعترف كامو بأن السؤال الفلسفي الوحيد المهم هو ما إذا كان يجب الانتحار أم لا؟

ومع ذلك بشكل عام، فإن الوجودي ينتهك مبدأ العبثية الكاملة ويهرب من العدمية بافتراض أن الذات وعملية الصيرورة وبعض القيم الأخرى (المعايير) صحيحة وليست تماماً بلا معنى.

ويسمح هذا للنظام ببدء عملية الاختيار، لكنه لا يزال يترك السؤال مفتوحًا حول الهدف الفعلي لتحقيق الذات، فما هي القيم والإمكانيات -من بين العديد من الخيارات المتاحة لي- علي أن أختار؟ عندما يتعلق الأمر بتعريف «الذات الأصيلة» الشهيرة، فإن الوجودية لا تساعد في ذلك.

ومن الناحية العملية، من الواضح أن أي فلسفة اجتماعية أو سياسية هي أساس مقبول لتحقيق الذات، وحياة الكتاب الوجوديين الرئيسن تثبت ذلك بشكل كبير.

كان مارتن هايدجر- أعظم وجودي في القرن العشرين- نازيًا لفترة، كما كان كارل جاسبرز ليبراليًا، وكان جان بول سارتر شيوعًا أو ماركسيًا من نوع ما لفترة، وكذلك كان كيركجارد محافظًا صارمًا وافق على القمع الملكي للحركات الليبرالية الشعبية عام ١٨٤٨، وقد وُصف نيتشه بأنه يمثل كل شيء من الفاشي إلى الإنساني المعذب إلى مناهض المسيح.

ولقد حُجبت مشكلة النسبية الأخلاقية للوجودية ولكثير من النظرية الكامنة وراء الذاتانية الأمريكية عبر النزعة الإنسانية الليبرالية عند منظري الذات الأمريكيين، ولكن لا يوجد سبب جوهري في نظرية الذات يفرض ربطها بالقيم الإنسانية الليبرالية، ويرجع السبب في ذلك عمومًا إلى إدماجها (غير المعترف به عادةً) للافتراضات والقيم من التراث اليهودي المسيحي للمنظرين الأمريكيين مع فكر المجتمع الغربي الاشتراكي أو الليبرالي المهيمن في الأجيال الأخيرة.

ومع انتقال الأمريكيين إلى مناخ سياسـي وفكري مختلف ومتزايد الاضطراب، أصبح التباين الشديد في المواقف الشخصية والاجتماعية والسياسـية التـي يُنظـر إليها على أنها متوافقة مع الـذات واضحًا الآن، فعلى سـبيل المثال: تتفق العنصرية البيضاء والسـوداء تمامًا مع نظرية الذات.

ودعونـا نلقـي نظـرة فاحصـة علـى بعـض الافتراضـات الوجودية الرئيسـة والتناقضـات والصعوبـات الداخليـة التـي تخلقهـا، يقبـل الوجوديـون وجود الذات، لكنهـم مثل منظري الذاتانية الأمريكيين لـم يطـوروا أبـدًا نظرية عن كيف تكون الذات مشـروطة بعوامل بيولوجية فطرية؟

ويبـدو أيضًـا أنهـم يتغاضـون عـن الطريقـة التـي تكون بهـا الذات الوجوديـة نتاجًـا لمجتمـع غربـي حديث للغاية، وبسـبب هذا الفشـل المـزدوج في معرفة كيفيـة تأثير العوامل العقليـة الاجتماعية والفطرية علـى الذات، فإن المجال الذي تعمل فيه الذات الوجودية غير محدد، ومـن الواضـح أن مثل هذه العوامل يجب أن تحـدد «الذات الوجودية الأصيلـة»، ومـع ذلك - بدون هذه المعرفـة -فإن البحث عن الأصالة غامض جداً لدرجة السخافة.

فعلـى سـبيل المثال -نظرًا لأنك لم يكن لـك الخيار فيها- فإن كل ما يلي وكثير غيرها، ليست أشياء أصيلة فيك:

عمرك وجنسك وعرقك وجنسيتك ومجموعتك العرقية وعائلتك، ولغتـك وسـمات شـخصيتك اللاواعيـة (السـيئة والجيـدة) ومزاجك الحـاد أو الهادئ وصحتك وذاكرتك وطولك ووزنك وذكاؤك، ونبرة

الصوت، والأسنان الجميلة (أو القبيحة) وشكل الأنف ولون البشرة ولون العين، وما إلى ذلك.

ولو جُردت من هذه الأشياء غير الأصيلة فيك، فستظهر الذات مثل بصلة مقشرة تمامًا، وكل ما يتبقى هو القوة الروحية الخالصة للحياة.

ومن الناحية العملية، فإن معظم منظري الذات اليوم يتوقفون قبل ذلك بوقت طويل، عند مستوى معين (غير أصيل)، ولكن أولئك القلائل الذين يتبعون المنطق يتركون العلم وراءهم وينتهون إلى لغة لا يمكن تمييزها- في كثير من الأحيان- عن الفكرة التقليدية لروح بلا جسد.

وتنبع مشكلة رئيسة أخرى من حقيقة أن الوجودية قد قبلت «المنطق» - أي: المنطق والرياضيات والاستدلال العلمي - كمكوّن أساسي في الحياة العقلية للجميع، ويوفر الوجود المسبق للمنطق دليلاً على أن جزءًا واحدًا على الأقل من وجود الشخص - أي عقله - له بالفعل جوهر أو طبيعة؛ وهذا الجوهر يسبق وجود الذات.

علاوة على ذلك، فإن عملية التفكير مركزية في اختياراتنا، والتي عبرها -وفقًا للوجودية- تتطور طبيعتنا، وهذا يعني أن العقل له طبيعة موجودة في بداية وجودنا، وعبر تفعيل هذا النشاط المسبق، تُتخذ القرارات، وبالتالي تتطور طبيعتنا كأفراد، ولذلك- إلى حد كبير- ينطلق إحساس الذات من جوهر العقلانية.

ويمكن النظر إلى إهمال أنصار الذات لكيفية أن العقل يسبق ويحدد القرارات التي ينطوي عليها «اختيار»، وهو ما يسمى بالذات الأصيلة، ويمكن النظر إليه كجزء من ميلهم لتجاهل جميع الخصائص البيولوجية أو الفطرية للبشرية.

انتقاد براوننج

بالرغم من أن براوننج يقدم عددًا من الانتقادات الموجهة لعلم النفس الإنساني، إلا أنه يمكن التركيز على جزء واحد مهم هنا، فقد لاحظ أن كلا من روجرز وماسلو يحولان تحقيق الذات من فكرة وصفية إلى معيار أخلاقي،[1] فهم ينزلقون من وصف ماهية تحقيق الذات إلى الفكرة القائلة بأن تحقيق الذات أمر جيد - ويجب البحث عنه بعد ذلك - وأخيرًا إلى التأكيد على أن تحقيق الذات يوفر وصفة لحل جميع مشاكلنا الأخلاقية العليا.

وقد كتب روجرز أن أي شخص يعتمد على مبدأ تحقيق الذات سيكتشف أنه أداة مناسبة لاكتشاف السلوك الأكثر إرضاءً في كل موقف يمر به الإنسان.

وفي وقت لاحق، قال روجرز إن الذين يعتمدون على ميولهم نحو تحقيق الواقع سوف يتعلمون أن «فعل ما يشعر بأنه صحيح» يثبت أنه دليل دامغ وجدير بالثقة للسلوك المُرضي حقاً، وبعبارة أخرى، تحقيق الذات دليل صالح لاتخاذ قراراتنا الأخلاقية.

ويقوم ماسلو بالقفزة نفسها من وصف تحقيق الذات إلى افتراضه كمبدأ عام ودليل للسلوك الأخلاقي، ويجيب ماسلو على سؤال «ما هو الجيد؟» بقوله: هو «تحقيق الذات»، وعلى سؤال «ما هو السيء» فيجيب: «هو أي شيء يحبط أو ينكر طبيعة تحقيق الذات الأساسية للبشرية».

---

(1) Don S. Browning, Religious Thought and the Modem Psychologies (Philadelphi Fortress Press, 1987)

هناك - كما يوضح براوننج - عدة مشاكل جدية هنا: الأولى: هي الافتراض - دون أي مبرر مستقل - أن تحقيق الذات أمر جيد. ومشكلة أخرى وهي: أن تحقيق الذات دليل أخلاقي موثوق لجميع أو معظم القرارات الأخلاقية.

ومرة أخرى، لم يقدم روجرز أو ماسلو أي دليل مقنع على هذه الافتراضات، والمشكلة الأخيرة والخطيرة هي أن هؤلاء المنظرين يفترضون أنه يمكن تحقيق الإدراك الذاتي للأشخاص المختلفين دون تعارض.

فهم يفترضون أنه سيكون هناك انسجام رائع بين جميع المحققين لذواتهم، ويلخص براوننج هذا الموقف الساذج بشكل مبسط:

يفترض روجرز وماسلو نوعًا من الانسجام المحدد مسبقًا في العالم والذي يعمل بطريقة تجعل تحقيق جميع الإمكانات تكاملية في الأساس، بحيث لا يمكن أن تتعارض القدرات المختلفة أبدًا.

مغالطات أخلاقية وعلمية

يجب أن يتناول النقد النهائي الجاد -على طول الخطوط الفلسفية -الميل المشترك للذاتانية لتقديم نفسها كعلم وكأخلاق في الوقت ذاته، فالادعاء بأن نظرية الذات هي علم باطل بكل معنى مفيد لمصطلح العلم، لأن التعريفات الإنسانية لم تعد تميز علم النفس والعلاج النفسي عن الدين والأدب والإيديولوجيا السياسية والأخلاق.

ومع ذلك، عبر الحفاظ على اسم علم النفس - الذي قُدِّم كعلم لعقود -وعبر تعليم النظرية الذاتانية من قبل علماء النفس (أي:

الخبـراء) فـي فصـول جامعية لا حصر لهـا، وعبر طرح طـرق غامضة لاختبار نظرية الذات، فقد استفادت النظرية الذاتانية بشكل خاطئ من مكانـة وقيمة الحقيقـة الخاصة المعتـرف بها عمومًـا والممنوحة لأي علم.

ونقطـة الضعـف ذات الصلة هي ميـل أنصار الذاتانية إلى الإشـارة إلى أن علم النفس كعلم قد تحقق بطريقة ما عبر قيم الإنسانية العلمانية الموجـودة فـي نظرية الـذات، ويدرك العديد من أنصار الذات بشـكل عـام تمامًـا الطابـع الأخلاقي لنظامهم، وفـي الواقع، يجادلون بشـكل مقنع بأن علم النفس العلاجي لا يمكن أن يعمل بدون قيم.

وهـذا الموقـف مقبول على نطاق واسـع من قبـل معظم المفكرين اليوم، ولكن كيف تبرهن علميًا على الخير الجوهري للذات، والرغبة الأخلاقيـة في «تحقيق الذات » و«تجربة العيش في الحاضر» و« رغبة الإبداع»؟، إن من الواضح أن هذه القيم لم يُتَحقق منها علميًا.

وفـي الوقـت الحاضـر لا يوجد دليل مـرضٍ علـى أن العلم يمكنه التحقق من أي من هذه القيم، ومع ذلك، فإن هالة السلطة التي اشتقها علم النفس من مكانته العلمية غالبًا ما يستخدمها أولئك الذين يعلّمون الذاتانيـة للإشـارة إلى أن مفاهيمهـا وقيمها لها -أو تقتـرب بطريقة ما -من حالة الحقيقة العلمية.

وأنا هنا أتحدث من تجربة شخصية كبيرة، فعنما كنت طالباً جلست في العديد من الفصول، وبعد أسـابيع قليلة من الاستماع إلى الحديث الجـاد عن علـم النفس باعتبـاره «علم السـلوك» أو «الدراسـة العلمية للعقل»، واستمعت إلى محاضرات حول «تحقيق الذات» و «مجموعة

الدعم: الخطوات والأهداف»، ولكن لم تُطرح أي أسئلة حول ما إذا كانت الحجج الأولية للوضع العلمي لعلم النفس لا تزال قائمة.

وبصفتي أستاذًا شابًا خلال الستينيات، قدمت دورات حول الدافع والشخصية، حيث تلتها محاضرات حول نظريات ماسلو وفروم وروجرز وتبعتها محاضرات حول التفسيرات الغريزية والهرمونية والكيميائية الحيوية للدوافع.

كان كل هذا، ولا يزال، نموذجًا للمناهج الدراسية فيما يسمى بالدراسة العلمية للدوافع والشخصية، ومع ذلك، لو ألقيت محاضرة أيضًا حول التفسيرات المسيحية للدوافع البشرية على أنها تقدم توليفة معقولة وقائمة على الملاحظة لمشاكل الذات، لكان من الممكن أن يُنظر إليها - وسينظر إليها اليوم - على أنها تدخل تعسفي وغير مقبول للدين في تخصص علماني، لا يزال الكثيرون يعتقدون أنه علم.

وأقوم حاليًا بتدريس مقرر الدراسات العليا حول نظريات الشخصية، والذي يغطي العديد من المنظرين الذين ورد ذكرهم هنا، وبالرغم من أن الفهم العلمي لهذه النظريات قد تضاءل على مدار الخمسة عشر عامًا الماضية، إلا أنها لا تزال تُفهم على أنها موضوعية وعلى أنها شبه علمية على الأقل.

ويمكن للمرء أن ينتقد افتراضاتهم الفلسفية، وربما الأخلاقية، ولكن لو اقترح المرء نظرية شخصية مسيحية (أو يهودية)، فسيُنظر إلى هذا على أنه غير مقبول، ولعل من الغريب أن أحد الكتب الجامعية المعروفة حول نظرية الشخصية - وهو أحد الكتب المقررة في جامعتي - يحتوي على فصل مخصص للنظرية البوذية عن الشخصية!

الفصل الخامس

الذات والأسرة

الفرد المعزول

يتضح من الفصول السابقة أن مفاهيم وقيم الذاتانية لا تساعد على تكوين علاقات شخصية دائمة ولا على الحفاظ عليها، كما أنها لا تقدر قيماً مثل الواجب والصبر والتضحية بالنفس.

وهناك أسباب عديدة للاعتقاد بأن انتشار الفلسفة الأنانية في المجتمع قد ساهم بشكل كبير في تدمير العائلات، وليس من قبيل المصادفة أن العديد من القصص في الأدب الذاتي تدور حول أشخاص في صراع مع أزواجهم أو آبائهم حول هدف محدد ذاتيًا، وتنحاز الأدبيات الذاتانية -بانتظام رتيب- إلى القيم التي تشجع على الطلاق، أو الانفصال أو فسخ الروابط الزوجية أو الأسرية، وكل هذا يأتي باسم النمو والاستقلالية واستمرار التغيير أو باسم التجديد.

ولعلي أجادل هنا بأن التدمير الاجتماعي لكثير من العلاج النفسي اليوم يمكن أن يُعزى إلى خصائص عملية العلاج نفسها، فبالرغم من أن علماء النفس يفترضون أن السمات الاجتماعية أو الشخصية هي المسؤولة عندما - على سبيل المثال - ينتهي زواج العميل بالطلاق، وتبدأ المشكلة بانشغال العلاج النفسي العصابي بالمريض على حدة،

وينعكس هذا في غياب إشراك الأبناء والزوجة والوالدين وغيرهم أثناء عملية العلاج.

ويميل المعالجون إلى التماهي بقوة مع مرضاهم، كما هو الحال في العلاقة التقليدية بين المحامين والعملاء، ومع ذلك، لا يوجد في العلاج النفسي ما يشبه حقيقة أن جميع الأطراف الرئيسة المعنية في العلاقة القانونية لها يوم في المحكمة، أي أن لكل طرف فرصة للتعبير عن جانبه.

إن الإفراط في الاقتراب من المرضى والثقة المفرطة بهم، أحد مشاكل العلاج النفسي منذ البداية، وأحد الأمثلة الأكثر شهرة هو اعتقاد فرويد المبكر بأن قصص مرضاه عن تعرضهم للاعتداء الجنسي في الطفولة كانت في الواقع صحيحة دائمًا، وقد دهش عندما علم -عبر معلومات خارجية - أن أغلب هذه القصص كانت غير صحيحة.

وعادةً يمكن للمعالج ذي الخبرة الذي يعرف خلفية المريض وربما يكون على دراية ببعض أفراد الأسرة الآخرين أن يصحح مثل هذه التحريفات، خاصةً إذا تطورت علاقة الانتقال (بمعنى آخر، إذا بدأ المريض في التواصل مع المعالج كما لو كان الأب أو الأم).

ويكشف تحليل الانتقال عن كيفية تحريف المريض لطبيعة العلاقات الشخصية، مما يسمح للمعالج بأخذ هذه التحريفات في الاعتبار.

وعلى النقيض من ذلك، في العلاج قصير المدى الذي يركز على العميل، حين يكون الطرفان عادةً غريبين عن بعضهما تماماً، وحين يكون العلاج موجها من المريض، فنادرًا ما يناقش تفسير المريض

للحقائق، وحيث تكون الثقة الكاملة مطلوبة حسب مبادئ العقيدة النظرية، وحيث يمكن بالكاد حصول الانتقال، فعندها يوجد ميل كبير لقبول رواية المريض للأحداث دون تمحيص.

ويبدو أن هذه الضغوط في العلاج تميل إلى الانحياز إلى القيم المعادية للأسرة، وتتفاقم أكثر بسبب النسبة العالية من المعالجين النفسيين الذين هم أنفسهم مطلقون أو معزولون عن عائلاتهم ودياناتهم التقليدية، فيكون لدى هؤلاء المعالجين رغبة إنسانية طبيعية للتأكيد الاجتماعي لنمط حياتهم الخاص، وبالتالي قد يصبحون أكثر ميلًا لتشجيع مثل هذا النمط لدى الآخرين.

ومن الشائع أن يتخيل الأطفال الصغار أنهم عاشوا قصصًا سمعوها من الآخرين أو أشياء شاهدوها في التلفزيون أو في الأفلام، وعلاوة على ذلك، غالبًا ما تتضمن ذكريات أحداث الطفولة التي تُستَعاد بعد سنوات من الحدث خلطًا بين الأشخاص والأماكن.

وفي الواقع، يعتقد العديد من علماء النفس أن جميع ذكريات الكبار عن الطفولة لا يمكن الاعتماد عليها إطلاقاً، وربما تُستَحضر في المقام الأول عبر دوافع الشخص - أو معالج الشخص - في وقت استعادتها.

وغالبًا ما تكون هذه الدوافع نتيجة ضغط معالج ملتزم نظريًا بإيجاد إساءة معاملة وراء كل ذكرى طفولة، وفي الآونة الأخيرة، اعترف عدد من المرضى باختلاق ذكريات إساءة معاملتهم كأطفال تحت ضغط المعالجين، ولا شك في أن العديد من المرضى سيظهرون في السنوات المقبلة، حتى أن هناك جمعيات مكرسة للدفاع عن الوالدين ضد الاتهامات الباطلة من قبل أطفالهم (وغيرهم).

النظرية الذاتانية والطلاق

يعطي العديد من أصحاب النظريات الذاتانية -وخاصة كارل روجرز -قيمة ضئيلة جدًا للزواج ويشجعون بالفعل على الطلاق على أسس نظرية، ولقد لفت منطق روجرز انتباه والاش ووالاش، وسألخص أهم النقاط هنا:

يقول روجرز إن «العلاقة بين الرجل والمرأة مهمة، وتستحق محاولة الحفاظ عليها، فقط عندما تكون تجربة معززة ومتنامية لكل منهما»، ولاحظ والاش الفردية المتطرفة لهذا الموقف وتساءلا بحق: «ما الذي يحدث عندما يمرض أحد الشركاء، على سبيل المثال؟»[1]

وقد يتساءل المرء أيضًا: وماذا عن الأطفال؟ نحن نعلم الآن أن الطلاق يلحق خسائر فادحة بالأطفال، وتشير الأدلة العلمية المعتبرة إلى أن ما يصل إلى ثلث أطفال الطلاق لا يتعافون أبدًا من الناحية النفسية.

ولسوء الحظ، كان ثمن تحقيق العديد من الوالدين لذواتهم تدمير أطفالهم، إن المفهوم الكامل للزواج الذي ينطوي على الالتزام قُفِز عليه بفكرة مفادها: أن شخصًا ما بمجرد أن يقرر - بشكل صحيح أو غير صحيح - أن تحقيقه ذاته أو تحقيقها ذاتها يتأثر، فعندها قد حان الوقت للمغادرة.

ومن الواضح أن طفرة الطلاق التي بدأت في أمريكا في الستينيات وبلغت ذروتها في أوائل الثمانينيات تدين بالكثير لهذا النوع من

(1) Wallach and Wallach, Psychology's Sanction for Selfishness

التفكير، وبالنسبة لمئات الآلاف من الأطفال الأمريكيين، يمكن النظر إلى الطلاق على أنه شكل من أشكال إساءة معاملة الأطفال.

وربما يمكننا تلخيص كل هذا بشكل أفضل عبر الإشارة إلى أن مفهوم روجرز للزواج أوجد تعبيرًا شائعًا مفاده أن الزواج «التزام غير ملزم»، والالتزام غير الملزم تناقض صارخ في المصطلحات؛ إنه أمر سخيف مثل القول بوجود مربع دائري.

الوالدان كمصدر لمشاكلنا

تتفاقم آثار الذاتانية المعادية للأسرة بسبب التحيز النظري الشديد ضد الوالدين في مدارس العلاج النفسي المختلفة، وقد وُجد هذا التحيز منذ البداية مع فرضية فرويد حول عقدة أوديب: أن الكراهية الشديدة بين الأب والابن -والتي تظهر لأول مرة لدى الطفل في سن الرابعة - هي التجربة الأساسية العامة في تكوين الشخصية الذكورية، ولكن ما الذي فعله الأب لاستحقاق هذه الكراهية؟ هذا ليس واضحًا بشكل مفهوم، ويبدو أن جرائمه أنه زوج أم الطفل وأنه شخص بالغ.

ويمكن تحييد عداء أوديب عبر وسائل مختلفة، مثل الخوف؛ ولكن بالنسبة للكثيرين، من المفترض أن تبقى نشطة طوال الحياة، وتعتبر دائمًا قابلة لإعادة التنشيط، وأيضًا لا يوجد تأكيد مماثل على حب الأب عند فرويد ولا في العلاج الذاتي، بالرغم من أن الدليل على هذا الحب أوضح من الشمس في رابعة النهار.

وفي الآونة الأخيرة، تحول الانشغال النظري إلى الأم، التي كانت تحت وابل قصف مفاهيمي حقيقي لكونها - (اختر ما تشاء من هذه

الأوصاف) - مهيمنة، متحكمة، متلاعبة، عاطفية، فلذلك حتى الأم الحديثة لم تسلم أيضًا.

وفي حالة كلا الوالدين، حان الوقت لتسمية هذه «التفسيرات» باسمهما الحقيقي، وهو نوع جديد من تحيز قديم يُعرف باسم «كبش الفداء»، فمتى تكون النظرية النفسية صادقة وشاملة بما يكفي للسماح لنا جميعاً بقبول أن الخطأ ليس في آبائنا ولكن في أنفسنا؟

ولا يزال من الممكن العثور على شبح عقدة أوديب والأم السيئة في تحليل المعاملات، حيث يدمج الأب والأم في حالة «الأنا» التي تسمى «الوالد».

في كتاب أنا بخير - أنت بخير[1] على سبيل المثال، ليس هناك شك في أن الوالد -بالرغم من وجود بعض الخصائص الجيدة - يُنظر إليه على أنه السبب الرئيس لمشاكلنا.

ويوصف الطفل بأنه هش، ولكن ما عدا ذلك فهو بريء وسعيد وصالح، تأمل هذا المقطع، على سبيل المثال:

قال إيمرسون «يجب أن نعرف كيف نقدر تأثير نظرة بغيضة»، ولكن الطفل لا يعرف كيف يفعل هذا، فيمكن أن تؤدي نظرة بغيضة نحوه إلى مشاعر تضيف إلى مخزونه من الأفكار السلبية عن نفسه، فيلوم نفسه ويقول هذا خطئي مرة أخرى وسيبقى دوما خطئي أنا، ويستمر في عالم بلا نهاية من الأفكار السلبية.

---

(١) (وهو كتاب للمساعدة الذاتية صدر عام ١٩٦٧ للطبيب النفسي توماس أنتوني هاريس، كدليل عملي لتحليل المعاملات كطريقة لحل المشكلات في الحياة).

وخلال هذا الوقت من شعوره بالعجز، هناك عدد لا حصر له من المطالب مفروضة على الطفل، فمن ناحية، لديه الرغبة في الاستكشاف، والمعرفة، والحركة والضرب، والتعبير عن المشاعر، وتجربة كل الأحاسيس الممتعة المرتبطة بالحركة والاكتشاف، ومن ناحية أخرى، هناك طلب مستمر من البيئة المحيطة- وخاصة الوالدين - للتخلي عن هذه الإشباع الأساسي مقابل الحصول على استحسان الوالدين، وهذا الاستحسان الذي يمكن أن يختفي بالسرعة التي ظهر بها، يبقى لغزاً لا يستطيع الطفل سبر أغواره، فالطفل لم يتعلم الربط بعد بين السبب والنتيجة.

فالمحصلة البارزة إذن هي المشاعر السلبية، ولكن هناك جانب مشرق أيضًا، ففي الطفل أيضًا مخزن كبير للأفكار الإيجابية، وفيه يكمن الإبداع، والفضول، والرغبة في الاستكشاف والمعرفة، والحث على الشعور والتجربة، وتسجيل المشاعر البكر للاكتشافات الأولى.

وتُسجَّل تجارب لا تعد ولا تحصى عند الطفل، والاحتفاء بكثير من اللحظات الأولى في حياة الشخص الصغير، مثل أول رضعة من الأم، وأول مرة يشرب من خرطوم الحديقة، وأول لعب مع القطة، وأول مرة يدير المفتاح لينير فيها المصباح.

وهذه الأسطورة عن الطفل الخير والسعيد بطبيعته (تذكر افتراض ماسلو المماثل) -وكل التأثيرات السلبية تأتي جميعها من الخارج -هي شكل من أشكال العاطفة البالغة السذاجة، ففي الواقع، يقدم الوالدان والمجتمع مجموعة كاملة من التأثيرات الإيجابية مثل الحب والطعام والموسيقى ورفقاء اللعب والرقص والحضانة والألعاب والسفر والحرف اليدوية والقصص، ومثل هذه الأشياء لا تمنح الطفل

فرحًا كبيرًا فحسب؛ وإنما تشكل الأنشطة العامة والإيجابية التي تحافظ على الحياة اليومية للطفل العادي، و لكن لم يرد ذكر أي من هذه التجارب.

وفي المقابل لم تؤخذ التجارب السلبية التي يفعلها الطفل بنفسه - وهي جوهرية في الطبيعة البشرية منذ البداية - في الاعتبار، مثل أول غيرة لطفل عمره عام واحد والكراهية الأولى، التي يُعبَّر عنها عبر ضرب طفل آخر (الأنشطة التي يبدو أن الأطفال يتمتعون بها بقدر ما يتمتع بها البالغون)، والسهولة التي يتعلم بها الأطفال مفهوم «ملكي أنا» والصعوبة التي يواجهونها في تعلم مفهوم «لك»، وكذلك التركيز الشديد على الذات لدى الأطفال، وقدرتهم الفائقة على أن يصبحوا عنيدين متطلبين، فكل هذا قوبل بالتجاهل.

إن الجهود التي يبذلها الآباء والمعلمون لمساعدة الأطفال على المشاركة واللعب الجماعي والتعاون وما إلى ذلك هي تجسيد للقدرة السلبية الطبعية للأطفال والتأثير الإيجابي الطبعي للوالدين والمجتمع، وعلى النقيض من ذلك، يرى تحليل المعاملات أن الطفل هو مستودع للمشاعر السلبية التي يسببها الوالدان، وتُشبه التجارب السلبية بالتسجيلات التي تُعاد باستمرار لاحقًا في الحياة.

وللهروب من الوقوع في فخ هذا الماضي الرهيب الناجم عن الوالدين، يقدم هاريس حالة «أنا» ثالثة -للجنسين- تسمى «البالغون».

ويبدأ البالغ في التطور على النحو التالي:

وجد الطفل البالغ من العمر عشرة أشهر أنه قادر على فعل شيء ينبع من وعيه وفكره الأصلي، وهذا الإدراك الذاتي هو بداية ظهور

«البالـغ»، وتتراكـم بيانـات «البالغيـن» كنتيجـة لقـدرة الطفـل على أن يكتشـف بنفسـه ما هو مختلف في الحياة من المفاهيم التي علمها إياه والداه عن المفاهيم التي أحسها بنفسه.

ويوصف هذا الإدراك الذاتي (تحقيق الذات) بأنه نوع من العمليات الحاسوبية الرائعة؛ فالبالغ يهتم بشكل أساسي بتحويل المحفزات إلى أجزاء من المعلومات، ومعالجة تلك المعلومات وحفظها على أساس الخبرة السابقة.

فالبالـغ هنـا، عبارة عن جهـاز كمبيوتـر لمعالجة البيانـات، والذي يتخـذ القـرارات بعـد حسـاب المعلومات من ثلاثـة مصـادر: الوالد، والطفل، والبيانات التي جمعها.

وكمـا قـد يتوقع المـرء، فإن الإبداع ليـس له علاقـة بالوالد، ولكنه ينشأ من فضول الطفل الطبعي ويُطوَّر بواسطة الكبار «البالغ-الكمبيوتر المعالج للبيانات».

فبينمـا يقـدم الطفل «الرغبة فـي»، يقدم البالـغ «كيـف» -عن طريق الكمبيوتر- وهو المطلب الأساسي للإبداع، ولعل من المثير للاهتمام أن الفضـول يعتبـر دافعًـا إيجابيًـا تمامًـا؛ وأُهمِلـت علاقتـه الأساسـية بالعدائية والعنف.

باختصـار، فـإن الحبكـة الأساسـية للمسـرحية الأخلاقيـة لتحليل المعاملات هي أن الطفل المسكين - الذي لا حول له ولا قوة، ولكنه في جوهره سعيد، خير، ومبدع - مثقل بالوالد العجوز اللئيم، ويمكن إنقـاذه مـن خسـارة «لعبـة الحيـاة» بتحقيق الـذات عن طريـق كمبيوتر معالجة المعلومات الذي يسمى «البالغ».

وأحد الأنشطة الرئيسة في مجموعات التعافي هو أن ينتقد كل فرد ويهاجم والديه وأفراد الأسرة الآخرين، ويكتشف جميع أعضاء مجموعة التعافي أن عائلاتهم كانت - في الواقع - «مختلة وظيفياً».

وفي الواقع، تعد عبارة «الأسرة المختلة وظيفياً» واحدة من أكثر المصطلحات استخدامًا في عالم مجموعات التعافي، ولقد أصبح هذا التركيز شديدًا لدرجة أنه ذُكر مؤخرًا أن أربعة وتسعين بالمائة من العائلات مختلة وظيفيا.

وربما يُفهم مصطلح «مختل وظيفيًا» بشكل فضفاض لدرجة أن مثل هذا الكلام لا معنى له، كما لو قال المرء إن أربعة وتسعين ٪ من الناس ليسوا أصحاء تمامًا، ومن ناحية أخرى، بدون البحث والإحصاءات والأدلة الجيدة الأخرى، فإن مثل هذه الادعاءات سخيفة لدرجة أن الذين يقدمونها يمكن تصنيفهم على أنهم بائعو وهم محتالون، يحاولون بيع حلول وهمية لمشاكل عامة.

ودعونا ننظر عن قرب إلى الادعاءات التي قدمها الكثير من الناس بأن عائلاتهم هي سبب مشاكلهم.

أولاً: دعونا نفكر في مسألة ما إذا كانت ادعاءات إساءة المعاملة- على سبيل المثال - صحيحة، فهناك العديد من الأسباب التي تدعو إلى الشك في الشهادات التي ذكرت في مجموعات التعافي وغالبًا في العلاج النفسي؛ وأُشيرَ إلى بعض هذه الأسباب في وقت سابق.

لكن القضية الحاسمة للغاية هي أن هناك ضغطًا اجتماعيًا قويًا على كل عضو في مجموعات التعافي للإدلاء بشهادة حول مدى سوء عائلته، وهذا يعزز الفهم الشخصي لكل عضو لمشكلته، ويؤكد التحيزات النظرية أو الأيديولوجية العامة للحركة بأكملها.

كما يجب على المرء أن يضع في اعتباره أن العديد من التهم المتعلقة بما فعله الآباء متطرفة للغاية وهي في الواقع تهم تتعلق بسلوك إجرامي، وبالرغم من خطورة هذه الاتهامات، نادرًا ما يتواجد الوالدان أو الأشقاء الآخرون للتعليق على صحتها، ناهيك عن الدفاع عن أنفسهم، وباختصار، غالبًا ما تكون بيئة مجموعات التعافي هي بيئة الجماهير الغوغائية النموذجية.

لكن دعونا نفترض أن التهم صحيحة - ولا شك أن هذا هو الحال في كثير من الأحيان- فما علاقة المرء بهذه الحقائق ومعرفتها؟ وهل هذا حقًا شيء يستحق التفكير فيه أكثر مما هو ضروري؟ فعلى سبيل المثال: من الواضح أن المضمون العام للعديد من مجموعات التعافي والكثير من العلاج النفسي هو أن المريض أو العميل كان ضحية صدمات تعرض لها من قبل الآخرين في الماضي، ووضع الضحية هذا يحمل في طياته نتيجتان خطيرتان وضارتان:

أولاً: وضع الضحية سلبي في الأساس، وفيه شعور الشفقة على الذات، وقبل كل شيء، يعزز حالة ما يشبه التنويم المغناطيسي أمام الكوبرا؛ فيظل العملاء متعلقين بشياطين ماضيهم لا يستطيعون منها فكاكا.

ثانيًا، إن وضع الضحية هذا يجلب معه شعورًا قويًا بالتفوق الأخلاقي، ويأتي جزء كبير من جاذبية هذا الشعور من الاعتقاد بأن الطفل الآن أكثر أخلاقية - أي أفضل - من الوالدين.

وكثير من الناس في مجموعات التعافي يحكمون على آبائهم بقسوة شديدة، وينخرطون في توجيه أصابع الاتهام وإلقاء اللوم بشكل

متكـرر، وغالبًا مـا يقومون بمحاولات قليلة -إن قامـوا- لفهم ما كان يحـدث في حياة والديهـم، لفهم أن والديهم لديهم آبـاء وأجداد وآباء أجداد على طول الطريق إلى آدم وحواء، اللذين ارتكبا بعض الأخطاء بأنفسـهم، وكثيـرًا مـا يطلـب أعضاء مجموعـة التعافي الرحمة بسـبب إخفاقاتهم ونقاط ضعفهم، ولكن ليس لديهم سوى القليل من الرحمة أو الفهم لوالديهم.

عـلاوة علـى ذلك، دعونا ننظر إلى هذا في سـياق مسـيحي، فبادئ ذي بدء، من الواضح جدًا أننا لا يجب أن نحكم على الآخرين: «يقول يسوع هذا مرارًا وتكرارًا، وبطرق عديدة مختلفة: لا تقلق بشأن البقعة في عين شخص آخر قبل إخراج اللوح الخشبي من عينك» [1].

« لا تحكمـوا، حتـى لا يحكم عليكـم»؛ لذا فإن قول: «أشـكر الإله أننـي أفضل من والدي» قد يعد من الرياء، ويشـتكي العديد من هؤلاء الأشـخاص من إصـدار والديهم أحكامًا مفرطة - على سـبيل المثال، بشأن السلوك الجنسي للآخرين - لكنهم هم أنفسهم أكثر حكمًا على والديهم.

المسيحية والعائلة

وبالرغم من تبسـيط موضوع العداء تجاه الوالدين، فقد سـاد لفترة طويلـة لدرجة أنه أصبح اليوم طبيعة ثانيـة للمعالجين وللمرضى على حَد سواء، ونسمع ونقرأ مرارًا وتكرارًا الاختلافات في محاكاة ساخرة

---

(١) يشـبه هـذا حديـث النبي ﷺ عنـد ابن حبـان: «يبصر أحدكـم القذاة في عيـن أخيه، وينسى الجذع في عينه» (المترجم).

لكلمات الضال العائد في موعظة يسوع: «أبي، لقد أخطأت ولم تعد مستحقًا أن تُدعى أبي».

والموقف القائل بأن العلاج الشافي يجب أن يبنى على الحب والامتنان والاحترام والتسامح تجاه الوالدين مغفل تمامًا في الكتابات الذاتية.

وتخيل علاجًا يقوي أسرة المريض بانتظام، فلماذا لا تستخدم العلاج لإعادة اكتشاف ما هو مشترك بين أفراد الأسرة، لتذكر الحقائق المنسية التي قدمها الوالدان، ولكن المريض رفضها، لتذكر محاولات الوالدين للمساعدة التي رفضها طفل دلل ه رفاقه أو دلل نفسه؟

لقد ارتكب العديد من الشباب اليوم فظائع نفسية ضد والديهم المحبين المحتارين أكثر من العكس، وفي الواقع، لقد حان الوقت بين عائلات الطبقة المتوسطة العليا للاعتراف بـ «الوالد المعنف نفسيًا على أنه متلازمة مألوفة».

وعلى عكس علم النفس الذاتاني، تدعم المسيحية التقليدية واليهودية الأسرة والمجتمع بشكل فعال، فبالنسبة للمسيحي، الأسرة هي النموذج الأساسي للمجتمع؛ والأب والأم والأخ والأخت مصطلحات شائعة للمسيحيين في كل من المجتمعات الكاثوليكية والبروتستانتية، وجميع المسيحيين إخوة وأخوات كأعضاء في جسد المسيح الصوفي الذي تمثله الكنيسة الأم على الأرض.

وينصب التركيز الاجتماعي للكنيسة في كل مكان على التكامل والتآلف، كما أن دعم اليهودية القوي للعائلة معروف جيدًا أيضًا، ولقد فسر الكثيرون بقاء اليهود بسبب هذا التبجيل للعائلة.

وبالنسبة للمسيحية، الأسرة هي تجسيد حي على نطاق صغير لكثير من لاهوتها؛ الإله الأب، والمسيح الابن، ومريم الأم، وكلنا كأولاد الإله، وهي مواضيع بارزة في الإنجيل.(١)

ألا يمكننا إذن أن ننظر إلى أيديولوجية تشوه سمعة الأسرة أو تهاجمها بشكل منهجي - عبر القياس البنيوي - كقوة تهاجم المسيحية؟ تأمل أيضًا اليوم المقدس الرئيس لعيد الميلاد، وهو احتفال بهيج بالأمومة والولادة، ألا يمكننا أن نرى أن طبيبًا نفسيًا ينصح بالإجهاض يتصرف بعدائية ضد البنية العميقة للمعتقدات والمعنى الذي يحتفل به في قصة عيد الميلاد؟ تذكر أن مريم الشابة كانت حاملاً في ظل ظروف تنتهي بشكل روتيني اليوم بالإجهاض، وفي السياق اللاهوتي المهم لعيد الميلاد، فإن قتل الطفل الذي لم يولد بعد هو قتل رمزي للطفل المسيح.

وفي العقود الماضية، أصبح الغرب على وجه الخصوص مدركًا بشكل متزايد لكيفية تسبب النظم الاقتصادية والتكنولوجية الحديثة في التلوث عبر معالجة جزء من البيئة بشكل منفصل عن البقية، والموقف التحليلي -(التحليل يعني التقسيم إلى أجزاء)- الذي يهيمن على العلوم والتكنولوجيا المعاصرة سرعان ما يدمر نمط وسلامة البيئة المحيطة، وحجتي هي أن علم النفس الحديث بطريقة مماثلة قد خلق «تلوثًا اجتماعيًا» واسع النطاق عبر تركيزه التحليلي

---

(١) نلاحظ اهتمام المؤلف ببيان موقع الأسرة في المسيحية واليهودية تبعا لخلفيته الثقافية، ولا يخفى على أحد من القراء العرب المركز المحوري للأسرة في الإسلام وعنايته بها وهناك العديد من البحوث والدراسات التي توضح أهمية الأسرة وأنها ركيزة أساسية في الحياة الاجتماعية (المراجع)

(وكذلك الاختزالي) على الفرد المعزول، وعدائه المستمر للروابط الاجتماعية كما يعبر عنه في التقاليد وهياكل المجتمع والأسرة، و ليس من قبيل المصادفة أن المجتمع الصناعي الحديث هو الذي اختصر الأسرة الممتدة في البداية إلى الأسرة النووية، ثم اختزل الأسرة النووية إلى الأسرة الفرعية شبه النووية لأحد الوالدين، والآن يعمل نحو الأسرة غير الأبوية حيث تقوم على تربية الطفل برامج حكومية.

وبالطبع، كانت الحكمة التقليدية منذ عدة سنوات أن الأسرة قد فشلت - ومن هنا تزايد عدد الأشخاص الذين يلتمسون العلاج النفسي- ولكن ما فشل ليس العائلة، ما فشل هو الحداثة بتركيزها التحليلي على الفرد المستقل المتنقل المنغمس في الأهداف النرجسية، وهذا البحث الفردي غير المنضبط عن الإشباع الشخصي مدمر للبيئة الاجتماعية مثل تدمير السعي غير المنضبط لتحقيق الرفاه الاقتصادي للبيئة البيولوجية.

والجواب على الحياة التي لا معنى لها لشباب اليوم هو تقليص عدد الأطفال الذين يتربون في أسر ممزقة أو أسر غير مهتمة، وليس من المحتمل أن يحدث هذا ما لم يكن هناك تغيير في المعتقدات المقبولة على نطاق واسع حول قيمة وأهمية الأسرة وحول الروابط الاجتماعية بشكل عام.

هناك علامة واحدة مفعمة بالأمل عبر تلك الأساليب في العلاج النفسي وهي التي تسمى: «العلاج الأسري»، ويفترض هذا العلاج بالطبع نظرية للعائلة المرغوبة أو المثالية، ويثير أسئلة دينية وأخلاقية مهمة.

وهنـاك بعض المخاطـر هنا، خاصة مع بعـض التعريفات الجديدة للأسـرة، ومـع ذلـك، فـإن الاهتمـام بوحـدة الأسـرة والحفـاظ عليها متماسـكة هـو اهتمـام بالتكامـل الاجتماعـي وابتعـاد مرغـوب عـن العلاجـات المتمحـورة حول الذات والتي حولـت الكثير من النفوس إلى ذرات اجتماعية نرجسية.

الفصل السادس

نظرية الذاتانية والمدارس

إيضاح القيم

يقدم هذا الفصل تقييمًا نقديًا لما كان ولا يزال النموذج الأكثر تأثيرًا في التربية الأخلاقية في الولايات المتحدة في السنوات الأخيرة، وكونه نموذجًا قائمًا على الذاتانية لا ينبغي أن يكون مفاجئًا.

وقد طُوّر هذا النهج المحدد، المعروف باسم: إيضاح القيم value clarification، بواسطة لويس راثس Louis E. Raths وسيدني سيمون Sidney B. Simon بالتعاون مع عدد من زملائهم، ونشر النموذج لأول مرة في الستينيات، بينما ظهر استخدامه على نطاق واسع في نظام المدارس العامة في السبعينيات وأوائل الثمانينيات، ولا يزال تأثيره سائدًا إلى اليوم.

ويمكن تعريف إيضاح القيم أنه مجموعة من الإجراءات المتصلة، مصممة لإشراك الطلاب والمعلمين في الصياغة النشطة للقيم واختبارها، فهو لا يعلم مجموعة محددة من القيم، ولا يحتوي خطب أو مواعظ أخلاقية، إنما الهدف هو إشراك الطلاب في الخبرات العملية، وجعلهم على دراية بأفكارهم ومشاعرهم ومعتقداتهم

الخاصة، بحيث تكون خياراتهم وقراراتهم واعية ومدروسة، بناءً على أنظمة القيم الخاصة بهم.[1]

وكما يوضح هذا المقطع، يتناقض نهج إيضاح القيم مع التقدير التقليدي الصريح للفضائل وإنكار مخالفتها (يشار إليها بازدراء باسم «المواعظ»).

ويرفض سايمون وراثس أي شكل من أشكال «غرس قيم الكبار في نفوس الشباب»؛ لأن التعليم المباشر للقيم عفا عليه الزمن، كما يقولون، فمجتمع اليوم المعقد يقدم الكثير من مصادر القيم غير المتسقة.؛ فالوالدان يقدمان مجموعة من القيم حول ما ينبغي وما لا ينبغي، بينما تقترح الكنيسة في كثير من الأحيان مجموعة أخرى، كما تقدم مجموعة الأقران وجهة نظر ثالثة للقيم، وفي هوليوود والمجلات الشعبية وجهة نظر رابعة، والمتحدث باسم اليسار الجديد والثقافة المضادة وجهة نظر أخرى، وهكذا دواليك.

وفي سياق المشهد المعاصر المربك، يرفض مطورو إيضاح القيم تدريس الأخلاق، كما أنهم يرفضون اللامبالاة بمشكلة القيم؛ لأن اللامبالاة تتجاهل المشكلة وتترك الطلاب عرضة لتأثيرات غير مدروسة من الثقافة الشائعة.

وبدلاً من ذلك، يجادل راثس وسيمون وزملاؤهما بأن كل الطلاب بحاجة إلى معرفة أنها عبارة عن عملية، وباستخدام هذه العملية، سيتمكن الطلاب من اختيار الأفضل ورفض الأسوأ من حيث قيمهم الخاصة وحسب ظروفهم الخاصة.

---

(1) Simon, Howe, and Kirschenbaum, Values Clarification

ولتمكين الشباب من «بناء نظام القيم الخاص بهم»، يركز نظام راثس على ما يُنظر إليه على أنه عملية (بناء القيم) وتتكون هذه العملية -وفقًا لإيضاح القيم - من ثلاث عمليات أساسية، لكل منها فئات فرعية، وستُعرَض في الترتيب التالي:

اختيار معتقدات الفرد وسلوكياته

١. الاختيار من عدة بدائل.
٢. الاختيار بعد النظر في العواقب.
٣. الاختيار بحرية.

تقدير معتقدات الفرد وسلوكياته

٤. التقدير والاعتزاز.
٥. حرية الحديث علنا عنها، إذا اقتضى الأمر.

التصرف بناءً على معتقدات المرء

٦. الالتزام بالمعتقدات في الأفعال.
٧. الثبات على المعتقدات بشكل مستمر.

فبدلاً من تعليم قيم معينة، فالهدف هو مساعدة الطلاب على تطبيق العناصر السبعة للتقييم على المعتقدات وأنماط السلوك التي تشكلت بالفعل وتلك التي لا تزال في طور الظهور، ويقترح أصحاب النظريات في إيضاح القيم تمارين دراسية مصممة لتنفيذ هذه العملية، وتمثل التدريبات- المسماة «الاستراتيجيات» - المساهمة الرئيسة لكتاباتهم الحديثة.

نظرية الذات مرة أخرى

لاحظ راثس وزملاؤه تشابه توجهاتهم الأساسية على وجه التحديد مع توجهات عالم النفس كارل روجرز - أحد منظرينا الرئيسين الملتزمين بتحقيق الذات والصلاح الفطري للذات - وهذا يعطي دليلاً إضافياً على أن منظري « إيضاح القيم» لا يمكنهم قبول وجود أي نزعة لفعل الشر أو إيذاء الآخرين كجزء من الطبيعة البشرية، وهي الحقيقة التي لم يناقشوها أبدًا.

ويفترض أن تثير مشكلة الشر قضية موضوعية القيم، وكذلك مسألة كيفية التعامل مع الذات المعيبة في جوهرها، أي تلك التي تُمنح القوة المطلقة في نموذج إيضاح القيم.

وليست الأدلة العلمية التي نوقشت سابقًا والتفكير النظري فقط هي ما يضعف افتراض «الخير الجوهري الكلي» فحسب، بل الواقع أيضاً، فلم يؤد نمو القدرة على التعبير عن الذات في فصولنا الدراسية في العقدين الماضيين إلى زيادة ملحوظة في سعادة الطلاب وصحتهم العقلية، بل إن الارتفاع الكبير في عنف الطلاب والانخفاض المستمر في درجات اختبارات الطلاب دليل على حدوث العكس.

وباختصار، فإن الافتراض حول «الخير الجوهري الكلي للذات»- والذي يقع في قلب نظرية إيضاح القيم - افتراض خاطئ، وهذا الضعف وحده يكفي ما زالته كفكرة معقولة لنظرية التربية الأخلاقية.

ونادرًا ما تُعرض الافتراضات النفسية والتربوية لمنظري إيضاح القيم، وعلى حد علمي لم يُدافَع عنها صراحةً، ولكن مقدماتهم ضرورية للنهج، ويمكن بسهولة استنتاج افتراضاتهم الأساسية حول

الطبيعـة البشـرية والتعليم من النموذج الـذي يقدمونه، ومفهوم الذات فـي قلـب نمـوذج إيضاح القيـم، مـع التركيز علـى التعبير عـن الذات وتحقيـق الـذات، والطريقـة التي يرتبط بهـا هذا المفهوم النفسـي عن الذات بالنظرية التربوية لمنظري إيضاح القيم شُرِحت بشكل جيد من قبل الفيلسوف نيكولاس ولترستورف، حيث كتب:

الأطروحـات الأساسـية هـي أن كل شـخص يتعامل مـع مجموعة متنوعـة مـن الرغبـات والاهتمامـات والدوافـع الفطريـة، وأن الصحة العقلية والسـعادة سـتتحقق إذا سـمح لهـذه الرغبـات الفطرية أن تجد رضاهـا فـي البيئـة الطبيعيـة والاجتماعيـة، وأن صحـة الفـرد العقليـة وسعادته تشكل هدفه النهائي في حياته.

ويؤكـد هؤلاء المنظرون بشـكل مميز على مرونـة البيئات الطبيعية والاجتماعيـة، ولكـن مـا يجـب تجنبـه بـأي ثمـن هـو فـرض رغبات وتوقعات الآخرين على الذات؛ لأن هناك تكمن التعاسة والمرض.

إذن، فـإن الهدف الصحيح للمربي هو تزويد الطفل ببيئة منفتحة - حيث لا توجد محاولة لفرض رغبات الآخرين على الطفل - ومغذية، تقدم ما يرضي رغبات واهتمامات الطفل.

ويـرى البعـض أن البيئـة المدرسـية المنفتحة والمغذيـة هي كل ما يحتاجه الطفل:

ومع ذلك، يجادل آخرون بأن الأشخاص عادة ما يواجهون عوائق داخليـة أو مثبطات لرغباتهم واهتماماتهـم الطبيعية، مما قد يؤدي إلى وقوعهم في التعاسـة والمرض العقلي؛ لذا لا ينبغي أن توفر المدرسـة بيئة منفتحة ومغذية فحسب، بل يجب أن تعمل أيضًا على إزالة موانع التعبير عن الذات.

ويتبنى دعاة إيضاح القيم هذا الرأي الأخير، وتهدف استراتيجياتهم إلى إزالة أي موانع في مجال القيم، قد يتعرض لها الطلاب في المنزل أو الكنيسة أو أي مكان آخر، فجميع الموانع والمثبطات سلبية.

إن الرأي القائل بأن الذات خيرة في جوهرها، وأن الفساد يأتي فقط من الوالدين ومن المجتمع، نشأ في العصر الحديث مع روسو، واستمر خلال القرن التاسع عشر، وبلغ ذروته في القرن العشرين، وخاصة في الولايات المتحدة.

وفي الماضي القريب، سيطرت نظرية التعبير عن الذات أو تحقيق الذات على الكثير من النظريات، حتى أكثر من سيطرة مجال علم النفس نفسه.

فمن العلاج الروجيري إلى تحقيق الذات لماسلو إلى فتح الفصول الدراسية لبرامج تقدير الذات وإيضاح القيم، سعى «منظرو الذاتانية» كمعلمين إلى تعزيز السعادة والصحة العقلية عبر الباب السحري المسمى «التعبير عن الذات».

فهم يزعمون أنه إذا طورنا ثقة غير مشروطة بين الطلاب، وبين الطلاب والمعلمين، وأزلنا الموانع، ودعمنا النسبية الأخلاقية، وتركنا كل أحد يقوم بعمله الخاص، فسيكون كل شيء على ما يرام، ولكن- لسوء الحظ - لم تثبت صحة هذا الزعم.

نقد فلسفي

عادة ما يكون الموقف الأخلاقي الفعلي لإيضاح القيم هو النسبية الشخصية؛ فنقول إن هذا الشيء جيد أو سيء بالنسبة لشخص معين

فقط، وفي أوقات أخرى، يبدو أن النموذج يفترض الموقف الأكثر تشددًا وهو أن القيم ليست موجودة أصلا، فهناك فقط أشياء يحبها المرء أو يكرهها.

في كلتا الحالتين، يترتب على ذلك تجنب لوم أو مدح قيم أو سلوك أي شخص، وتكمن المشكلة في أن الموقف النسبي يشمل إيضاح القيم في عدد من التناقضات الأساسية للغاية، وهذه التناقضات، ككل، تقوض تماسك النظام بشكل كامل.

التناقض الأساسي الأول هو أنه بالرغم من النسبية الشخصية لجميع القيم، يعتقد المنظرون بوضوح أن إيضاح القيم أمر جيد.

أي -بغض النظر عن النسبية- يجب على الطلاب تقدير نموذجهم لكيفية إيضاح القيم، ويهاجم سيمون وراثس Raths و Simon غرس القيم التقليدية من قبل المعلمين، ولكنهم في الوقت نفسه يحثون المعلمين على غرس إيضاح القيم، ففي الواقع -عندما يجادلون من أجل نظامهم - فإنهم يوجهون الأخلاق والقيم مثل أي شخص آخر.

إنهم ينتقدون التعليم التقليدي للقيم على أنه «بيع» و«دفع» و«فرض للقيم الشخصية» على الأطفال، ولكن عندما يتعلق الأمر بقيم موقفهم، فإن النسبية تختفي بسهولة، فتجدهم يدفعون بموقفهم الأخلاقي عن طريق خطبهم الخاصة.

وينشأ التناقض الرئيس الثاني في إيضاح القيم أنها تنبع من العبثية الأساسية للنسبية الأخلاقية، وقد حُدِّد هذا بشكل جميل من قبل ولترزستروف Wolterstorff، في تحليله التالي:

عندما يطرح منظرو إيضاح القيم السؤال حول ما إذا كان يجب السماح للأطفال في الفصل باختيار أي شيء يرغبون فيه، فإن الإجابة هي: «لا».

فللمعلمين الحق في تحديد بعض «الاختيارات» باعتبارها خارج الحدود المقبولة، لكن لديهم هذا الحق -ليس لأن الاختيارات خاطئة - ولكن لأن بعض الخيارات لا يرغبها المعلم، وهنا -كما يستنتج ولترستورف بشكل مقنع- يتحول إيضاح القيم إلى سلطة تعسفية.

وقد صوّر منظرو إيضاح القيم هذا «المنطق» الأكثر إثارة للقلق بشكل توضيحي في المثال التالي:

المعلم: يعتقد البعض منكم أنه من الأفضل أن نكون أمناء في الاختبارات، هل هذا صحيح؟ (بعض الرؤوس تومئ برأسها إيجاباً) والبعض منكم يعتقد أن الكذب لا بأس به؟ (عدد قليل من الإيماءات المترددة والخفيفة)، وأعتقد أن البعض منكم غير متأكد (رؤوس قليلة تومئ).

الطالب جينجر: هل هذا يعني أنه يمكننا أن نقرر بأنفسنا ما إذا كان علينا أن نكون أمناء في الاختبارات هنا؟

المعلم: لا، هذا يعني أنه يمكنك تقرير القيمة، فأنا شخصيا أقدر الأمانة؛ وبالرغم من أنك قد تختار أن تكون غير أمين، إلا أنني سأصر على أن نكون أمناء في اختباراتنا هنا، أما في مجالات أخرى من حياتك، فقد يكون لديك حرية أكبر في أن تكون غير أمين، لكن لا يمكن للمرء أن يفعل أي شيء في أي وقت، وفي هذا الفصل أتوقع الأمانة في الاختبارات.

الطالب جينجر: ولكن كيف يمكننا أن نقرر بأنفسنا؟ ألست تخبرنا ماذا يجب أن نقدر؟

الطالب سام: بالتأكيد، أنت تخبرنا بما يجب أن نفعله ونؤمن به.

المعلـم: ليـس بالضبط، فـلا أقصد أن أخبرك بما يجـب أن تقدره، فالأمـر متروك لـك، لكنني أعني أنه في هذا الفصل -وليس بالضرورة فـي أي مـكان آخر- يجب أن تكون أميناً في الاختبارات أو أن تتحمل العواقب.

أعنـي فقـط أنه لا يمكنني إجـراء الاختبارات بـدون قاعدة الأمانة، وكل من يختار عدم الأمانة كقيمة يجب أن لا يمارسها هنا، هذا كل ما أقوله، هل هناك مزيد من الأسئلة؟

ومـن هـذا المثـال الرائـع، ربما يمكننـا اقتـراح المقارنـات التالية: «يمكنك أن تسـرق في متاجر أخـرى، لكنني أتوقع وأصر على الأمانة في متجري»؛ وبالمثل، «يجب أن لا تكون عنصريًا – أو مغتصبًا – في صفـي، ولكـن في أي مـكان آخر الأمر متروك لـك»، فقد يكون لديك «مزيد من الحرية» في مكان آخر!

فالأسـاس المنطقي الوحيـد لحظر اختيار معين فـي الفصل هو أن المعلم-شـخصياً- يجد الاختيار مسـيئًا أو غير مقبـول، وبالطبع، فإن المعلمين -عادةً- لديهم أيضًا القدرة على فرض إرادتهم.

كما ذكرنا سابقًا، يدعم منظرو إيضاح القيم صراحة الموقف الذي يقول إنه يجب على كل طالب اختيار وتكوين أخلاقه وقيمه الخاصة.

أي أن الأخـلاق نسـبية لـكل فـرد، ولكـن يجب على دعـاة إيضاح القيم أن يعترفوا – بالرغم من أنهم لا يفعلون – بأن نظريتهم ونظامهم

تدفع وتلقن تفسيرًا معينًا للأخلاق، فمن بين كل المقاربات المختلفة للأخلاق والقيم، فنهجهم فقط هو ما يحظى بالموافقة.

وهناك مشكلة رئيسة أخرى أثارتها النسبية الأخلاقية وهي أنها ترفض صراحة جميع التفسيرات المطلقة أو غير النسبية للحياة الأخلاقية.

ويمثل إيضاح القيم - على وجه الخصوص -هجومًا مباشرًا على الأخلاق الدينية التقليدية، وهي مرفوضة من قبل اليهود والمسيحيين والمسلمين والهندوس.

وبالمثل، فإن أخلاق أرسطو أو أي ممثل معاصر لمثل هذه النظرة «الوثنية النبيلة» مرفوضة أيضًا من قبل دعاة إيضاح القيم، وهناك قضية سياسية خطيرة هنا، فقد أعطت المدارس الحكومية في السنوات الأخيرة دعمًا كبيرًا لجماعات إيضاح القيم، وبالتالي أعطت المدارس النسبية الأخلاقية موقعًا متميزًا.

أي أن المدارس العامة استخدمت أموال الضرائب بشكل منهجي لمهاجمة قيم الطلاب وأولياء الأمور الذين يعتقدون أن قيمًا معينة صحيحة، لا سيما من لديهم موقف ديني تقليدي، وتعتبر مثل هذه السياسة ظلمًا خطيرًا لدافعي الضرائب الذين يتوقعون أن تعامل قيمهم باحترام في الفصول الدراسية بالمدارس العامة أو على الأقل يتركون وشأنهم.

نقد الإجراءات والاستراتيجيات

يتكون جزء كبير من إيضاح القيم عبر التمارين الفصلية التي تجسد النظام عملياً، وتسمى هذه التمارين «الاستراتيجيات»، وهي أدوات

سهلة الاستخدام لمناقشة القيم وتوضيحها في إطار فلسفة إيضاح القيم.

وهناك أكثر من سبعين استراتيجية، وقد كانت سببًا رئيسا لشعبية هذا النهج، وحتى التربويين الذين على دراية بالفلسفة النسبية لإيضاح القيم استخدموا التمارين في كثير من الأحيان مفترضين أنها أدوات محايدة للتعامل مع موضوع التربية الأخلاقية.

أولاً: تتضمن الاستراتيجيات أسئلة تُطرح على الطلاب، أسئلة تجسد الأيديولوجية الاجتماعية لشريحة صغيرة من المجتمع الأمريكي، وهذه الأسئلة علمانية ونسبية ومنفتحة للغاية ومناهضة للدين علانية ومتطرفة بشكل عام، وهذا -بالطبع -موقف شرعي تمامًا في المجتمع الأمريكي، ولكن ليس له الحق في أن يُمنح مكانة خاصة في مدارسنا العامة.

إضافة إلى ذلك، تركز الاجراءات دائمًا على الفرد المعزول، المنفصل عن الأسرة والمجتمع، الذي يتخذ الخيارات بناءً على النظرة الشخصية لكل قيمة بديلة، ومثل هذه الإجراءات -كما يشير بينيت ودلاتر - تشجع الطالب بقوة على فهم الأخلاق على أنها إرضاء للذات.

وللإجراءات المشتركة لإيضاح القيم عواقب سلبية أخرى، فالهدف الإجرائي المتمثل في أن يحاول المعلم زيادة عدد المواقف الأخلاقية البديلة التي يطرحها الطلاب حول قضية معينة يعزز فكرة أن القيم نسبية لكل شخص.

ومـن المحتمـل تبني آراء متعـددة للقيم المختلفـة- مثل العفة قبل الـزواج -مـن قبـل واحـد علـى الأقل مـن الطـلاب، وهـذا يجعل من الصعب نفسيًا الحفاظ على إيمان راسخ بأي قيمة مطلقة دون التعرض لرفـض الأقـران المؤلـم، ولعـل من الصعب جـدًا حتى علـى البالغين رفض معتقد ما دون أن يبدو أيضًا أنهم يرفضون الشخص الذي يحمل هذا الاعتقاد.

وهنا مثال آخر من التحيز في إسـتراتيجية إيضاح القيم للاسـتخدام مع البالغين من مقال كتبه بينيت وديلاتر:

فـي موضـوع الأولويـات، يطلـب سـيمون منك ومـن عائلتك على مائـدة العشـاء، أو يطلـب مـن أصدقائـك علـى مائـدة الغـداء، ترتيب الاختيـارات والدفـاع عـن اختياراتـك فـي مناقشـة ودية وهـي إحدى هوايات سيمون لأحاديث مائدة الطعام:

لو كان زوجك / زوجتك شخص جذاب/ ـة للغاية، وانجذب له/ ها أفضل صديق/ ـة لك، فكيف تريدهم أن يتصرفوا؟

أ. الحفاظ على علاقة سرية حتى لا تعرف عنها.
ب. أن تقبل حقيقة العلاقة.
ج. أن تطلب الطلاق.

ويتضح في هذا المثال كيف تجوهلت جميع الاحتمالات الأخرى مثل ضبط النفس أو الإخلاص أو احترام الآخرين أو احترام العلاقات والالتزامـات المتبادلة، وهذا المثـال - بخياراته المنحازة والمحدودة -يتحدث بنفسه عن نظام إيضاح القيم.

تقييم إيضاح القيم في الأبحاث العلمية

وعلى النقيض من الآثار الجانبية السلبية الواضحة لإيضاح القيم المذكور للتو - مثل دفع أيديولوجية اجتماعية معينة أو تشجيع الانغماس في الذات أو تجاهل القيم الوالدية أو رفضها - فإن الآثار المباشرة والمقصودة لإيضاح القيم محدودة للغاية.

وبالرغم من المستوى العالي من الاهتمام والكتابة عن هذا النهج، إلا أن نسبة صغيرة فقط من هذه الكتابات تمثل بحثًا علمياً حسب القواعد العلمية الصارمة.

وبعبارة أخرى، كان جزء كبير من الكتابة إما من مجموعة « كيف تفعل ذلك» أو مرافعات عامة عن النهج، ولم يكن هناك سوى اهتمام متواضع للبحث فيما إذا كانت تفعل فعلاً ما يقول مؤيدوها إنها يفترض أن تفعل.

ويؤكد دعاة إيضاح القيم أن هدفهم ليس تغيير الحالة الذهنية للطلاب ولكن سلوكهم الفعلي، ولكن عندما ننظر إلى تعريفاتهم للسلوك، نكتشف أن «السلوكيات» المرغوبة تقترب من الحالات الذهنية.

فيريد المؤيدون أن يتغلب الطلاب على اللامبالاة والطاعة العمياء والعبث وغيرها، كما يريدون منهم اكتساب أنماط سلوك هادفة وإيجابية ومتحمسة ومعتزة بالذات.

ويمكن ملاحظة أن كل هذه الصفات الإيجابية المعتدلة يمكن أن توجه نحو غايات أخلاقية أو غير أخلاقية (على سبيل المثال، كان

هتلر وستالين بالتأكيد فخورين ومتحمسين ولهما أهداف محددة) والحقيقة العملية هي أن معظم الأبحاث المحدودة حول إيضاح القيم كانت موجهة نحو الاختبارات الورقية التي تقيم الحالة الذهنية للطلاب.

وفي هذه الدراسات، تعرض بعض الطلاب لمناهج إيضاح القيم، والبعض الآخر لم يتعرض لها، ثم اختُبِرت كلتا المجموعتين من الطلاب لمعرفة ما إذا كانت المجموعة التجريبية أو المجموعة الضابطة قد غيرت أنماط قيمها لتصبح أكثر إيجابية وفخرًا وما إلى ذلك.

قام ليمنج Leming بفحص عدد من الدراسات القليلة عالية الجودة نسبيًا لنهج إيضاح القيم[1]، وحدد أن هذه الدراسات طبقت، فيما بينها، سبعين اختبارًا منفصلاً ذات دلالات إحصائية للبيانات المجمعة (طبقت العديد من الدراسات اختبارين أو أكثر من هذه الاختبارات).

ومن بين السبعين اختبارًا، أظهر خمسة عشر (واحد وعشرون ٪) فقط أن المجموعة التجريبية تحركت بشكل ملحوظ في الاتجاه المناسب، أما في الاختبارات الخمسة والخمسين الأخرى، فإما لم تكن هناك حركة كبيرة أو كانت الحركة في الاتجاه الخاطئ.

وكشفت مراجعة شاملة أخرى للبحث عن استنتاجات سلبية مماثلة تقريبًا، حول وجود أيٍّ من التأثيرات المتوقعة لإيضاح القيم.

---

(1) J. S. Leming, "Curricular Effectiveness in Moral Values Education: A Review of the Research, (1981)

وهكـذا يبـدو أنه، حتى في الاختبارات الورقية، لا ينتج عن إيضاح القيـم عادةً الآثار التي يدعي مؤيدوها أنها تسـببت فيها، وهذا لا يعني أنـه لا توجـد آثـار لإيضاح القيـم، إنما يعنـي فقط أنه لا يبـدو أنه يولد التأثيـرات التـي يأمـل مصمموهـا في إنتاجهـا، أما موضوع مـا إذا كان ذلـك يعزز الآثـار الجانبية السـلبية على الطلاب أومـا إذا كانت الآثار الناتجة جيدة أو سيئة، فلم تُناقَش هذه القضايا في البحث التقييمي.

وبالطبـع يجـب علينـا أيضًا أن نهتم بمسـألة مـا إذا كان النهج -إذا نجح- فكرة جيدة من حيث افتراضاته الخاصة به.

والافتراضات الواضحة التي يقوم عليها هذا النهج هي:

(أ) أنه من المهم أن يؤمن الناس بشـكل عام -والشـباب على وجه الخصوص- بقوة بما يقدرون.

(ب) أن القيم التي يختارونها -دون تدخل الكبار -تكون مرغوبة أو جيدة.

وبالطبـع لا تدعـم الفطـرة السـليمة ولا البحـث العلمـي هـذه الافتراضات.

ويتضـح فـي العديـد مـن المناسـبات أن التجريـب والانفتـاح هما خصائـص طبيعيـة وصحيـة، فهمـا تشـيران إلـى الرغبـة فـي التعلم أو التفكير في كلا الجانبين.

وبالإضافـة إلـى ذلـك، عندما يكون لدى شـخص مـا رأي صحيح ويحتـاج أن يقـف في مواجهة المقاومـة، فقد تكون الثقة أمـرًا مرغوبًا فيـه، ولكن فـي ظل ظروف أخـرى، يمكن أن ترتبط هـذه الخصائص بالغطرسة والدوغمائية.

أما فيما يتعلق بافتراض أن الشباب عادة ما يختارون القيم الجيدة دون توجيهات خاصة- كما أشرنا أعلاه- فهذه نظرة ساذجة للطبيعة البشرية، ففي الواقع، تتشكل آراؤنا حول القضايا الاجتماعية المهمة دائمًا إلى حد كبير عبر البيئة الاجتماعية من حولنا.

وهكذا، فإننا نرى تصريحات المراهقين على عكس ذلك، فمعلوم أن قيم الشباب تتأثر بشكل كبير بالبالغين، وإذا لم يحاول البالغون المسؤولون - مثل المعلمين - الترويج لقيم الخير، فقد تنجح المصادر غير المسؤولة - مثل العصابات أو التلفزيون أو وسائل الإعلام الأخرى - في الترويج لقيم الشر، حتى لو اعتقد الشباب الذين يطبقون مثل هذه القيم أنهم إنما يتوصلون إلى استنتاجاتهم الخاصة.

نقد انتهاك الخصوصية

غالبًا ما تنتهك تقنيات واستراتيجيات إيضاح القيم بشكل خطير خصوصية الطالب وأسرة الطالب، وفي الواقع، كان الآباء المنزعجون من فقدان الخصوصية الشخصية من أكثر الأصوات المنتقدة لإيضاح القيم وإجراءاتها في المدارس.

وقد أوضح البروفيسور آلان لوكوود الطبيعة الدقيقة لهذا النقد المهم وهنا ملخص لتحليله:

بادئ ذي بدء، تعتبر الخصوصية الشخصية لجميع الأمريكيين شيئًا مهمًا للغاية، ويفترض وجود حق عام في مثل هذه الخصوصية، ولذلك أسباب جديرة بالذكر؛ فمنها أن الخصوصية تحمينا من الإحراج والسخرية.

فمثلاً، ضع في حسبانك احتمال المشاكسات والتنمر التي يمكن أن يتعرض لها قائد فريق كرة القدم حين يُعرف أنه ينام مع دمية دب قديمة ممزقة، وبالمثل يمكننا التنبؤ بردود فعل اجتماعية سلبية لو عُرف أن شخصًا -يعيش حاليًا في مجتمع عنصري- يؤمن بالتكامل العنصري.

وتساعد الخصوصية أيضًا في الحفاظ على صحتنا النفسية، فنحن بحاجة إلى الخصوصية لنرتاح من ضغوط الحياة ومتطلباتها، ونحن بحاجة إلى وقت للتأمل في حياتنا بشكل خاص.

ومن الصعب أن نتخيل كيف يمكن فعل هذا التأمل لو كنا تحت ضغط متكرر للكشف عن مشاعرنا وأفكارنا وخططنا، وهي غالبًا قد تكون مبدئية وجزئية فقط.

والأمر الأكثر أهمية للرفاهية النفسية هو الجوهر الداخلي الخاص جداً للمعتقدات والآمال والإيمان والأسرار المطلقة التي لدى كل شخص في صميم شخصيته، وإن إجبارك على كشف هذه الأمور للجمهور قد يكون بالنسبة لمعظم الناس تهديدا للسلامة النفسية الأساسية.

كما يشير لوكوود أيضًا إلى أن «الخصوصية ضرورية للحفاظ على الحريات التي تتميز بها الديمقراطية السياسية».

فالاقتراع السري، والحق في التجمع، والعديد من حرياتنا الأخرى ممكنة فقط عندما نحافظ على خصوصيتنا، وعندما تكون المراقبة الاجتماعية والحكومية محدودة.

ويشير لوكوود إلى أن الحق في الخصوصية ليس حقًا مطلقًا، نظرًا لوجود العديد من أنواع المعلومات التي تحتاجها الدولة والمدارس

والمؤسسـات العامـة الأخرى لتعمل بشـكل صحيـح، ومع ذلك، فإن الحق في الخصوصية حق مهم للغاية، ولا ينبغي أبدًا السماح بانتهاكه إلا بوجود مبررات قوية.

فمـن أجـل الحفـاظ علـى خصوصيتنـا، نحتـاج إلـى القـدرة على التحكـم في معلوماتنا الخاصة، وهذا يعني أنه عند طلب المعلومات، يجـب إبلاغ الشـخص بالمعلومـات المطلوبة وكيف ستسـتخدم، أي يجب أن تكون هناك موافقة مستنيرة.

وتنتهـك طـرق معينـة للحصـول علـى المعلومـات مبـدأ موافقـة الشـخص المسـتنيرة، فأولاً: تتطلب الموافقة المسـتنيرة حكمًا راشدا وهـو ما لا يمتلكه الأطفال. وثانيًا: يجب تحديد المعلومات المطلوبة بوضوح.

ومـع ذلك، فإن العديد مـن الاختبارات النفسـية، مثل الاختبارات الإسـقاطي، تسـتخرج معلومات لا يدرك الشـخص أنه يظهرها، على سـبيل المثـال: عندمـا يُطلـب مـن الأشـخاص الخضـوع لاختبـار (رورساش Rorschach)[1].

أو عندما يُطلب من الأشخاص إكمال الجمل، ففي هذه الحالات، قد يكشـف الأشـخاص معلومات عن أنفسـهم قد لا يدركون طبيعتها تمامًا.

وبالطبـع، لـو كان ذلك في سـياق العلاج النفسـي فـلا يوجد هناك انتهـاك للخصوصيـة، لأن الشـخص طلـب مسـاعدة نفسـية والمعالج

(١) اختبار نفسـي إسـقاطي تُسـجَّل فيه تصورات الأشـخاص عن بقع الحبر ثم تحليلها باسـتخدام التفسـير النفسـي أو الخوارزميات المعقدة أو كليهما، ويسـتخدم بعض علماء النفس هذا الاختبار لفحص خصائص شخصية الشخص وأدائه العاطفي.

مدرب على استخدام هذه المعلومات ويلتزم قانونًا بالسرية، ولكن عندما يطلب مدرس -يلعب دور عالم نفس هاوٍ- مثل هذه المعلومات في فصل دراسي، فمن المحتمل جدًا أنْ يكون هناك انتهاك للخصوصية.

وهناك طريقة أخرى تُنتهَك بها الموافقة المستنيرة، وهي عندما يكون الشخص الذي يعطي المعلومات تحت ضغط جماعي قوي ليكون منفتحًا حول المعلومات الشخصية (مرة أخرى، إذا اختار الفرد المعني الدخول في جلسات علاج جماعي وكان يعلم أنه قد يكون تحت ضغط ما وتقبله، فلا يوجد هنا انتهاك للخصوصية).

كما يوضح لوكوود Lockwood، فإن العديد من الأسئلة المستخدمة في إيضاح القيم تنتهك حق الطلاب في الخصوصية، وعلى وجه الخصوص، الأسئلة المتعلقة بالديناميكية الشخصية للحياة الأسرية، وحول الحياة الشخصية والعاطفية، وحول الرؤية العامة للعالم، كلها تقريبًا تتدخل في حياة الفرد الشخصية.

وقد لاحظ لوكوود Lockwood الأسئلة التالية من كتيب إيضاح القيم:

ديناميكية الأسرة:

ماذا تفعل والدتك؟ ما الأشياء التي تعجبها؟ هل تبقى في المنزل كثيرا؟ ما أكثر ما يزعجك في والديك؟ من في عائلتك يكون عادة سببا في حزنك؟ ولماذا؟

السلوك الشخصي والمشاعر:

هل تذكر العشر مرات الأخيرة التي بكيت فيها؟ ما كان سبب بكائك في كل منها؟ هل هناك شيء فعلته ذات مرة وتشعر بالخجل

منه؟ بماذا تحلم بالليل؟ أكمل الجملة: الموضوع الذي سأتردد في مناقشته هنا هو. . .

نظرة عامة إلى العالم:

كم منكم يعتقد أنه يجب على الآباء تعليم أطفالهم ممارسة العادة السرية؟

إذا كان والداك في خلاف دائم، فما الذي تفضل أن يحدث: الطلاق ومغادرة والدك المنزل أم البقاء معًا وإخفاء مشاعرهم من أجل الأطفال، أم الطلاق وتبقى أنت مع والدك؟

ومن الواضح أن الأسئلة أعلاه من المحتمل أن تنتهك خصوصية الطفل أو الوالدين أو كليهما، وضع في اعتبارك أن هناك ضغطًا جماعيًا قويًا في بيئة الفصل الدراسي حيث تُطرح الأسئلة، وأن الإجابات ستصبح غالبًا معروفة في المدرسة والمجتمع، وأن الأطفال أصغر من أن يمنحوا موافقة مستنيرة حقًا، وأن المعلمين غير مدربين في علم النفس، وأن الطلاب - وأولياء الأمور - لم يوافقوا أبدًا على المشاركة في مثل هذه العملية.

ولتقويض الخصوصية بشكل أكبر، غالبًا ما تكون أسئلة توضيح القيم أسئلة مفتوحة بطريقة تجعلها تقنية إسقاطية، ويعطي لوكوود هذه الأمثلة لجمل يجب على الطلاب إكمالها:

سرا أتمنى أن...

أود إخبار أعز أصدقائي عن...

والداي عادة...

كثيرا ما أجد نفسي....

ويستنتج لوكوود من تحليله أن «نسبة كبيرة من محتوى وطرق إيضاح القيم تشكل تهديدًا لخصوصية للطلاب وعائلاتهم».

إن قوة ووضوح تحليل لوكوود تجعل من هذا النقد وحده ما يكفي لرفض نهج إيضاح القيم للأخلاق في أي مدرسة؛ لأنه لم تؤخذ موافقة الطلاب وأولياء الأمور.

ما سر رواج إيضاح القيم؟

بالنظر إلى المشكلات الجادة الواضحة المتعلقة بإيضاح القيم، يُطرح سؤال طبيعي: لماذا أصبحت رائجة جدًا؟ ولماذا حظيت بشعبية كبيرة بالفعل؟

لقد استقبل منظرو إيضاح القيم بحماس كمتحدثين في عشرات المؤتمرات التعليمية، وبيع من كتبهم مئات الآلاف من النسخ، وكانت ورش العمل التي تدرب المعلمين على كيفية استخدام إيضاح القيم في الفصول الدراسية شائعة في عدد لا يحصى من الاجتماعات الوطنية والإقليمية للمعلمين والمربين، ودُرِّب عشرات الآلاف من المعلمين على استخدامها، ونتيجة لذلك، انتشر إيضاح القيم بسرعة في جميع أنحاء البلاد في السبعينيات، ولا تزال جوانب كثيرة منه سائدة في الدورات المدرسية في التسعينيات، خاصة تلك الدورات التي تتناول القيم أو الموضوعات المهمة؛ مثل المخدرات و الصحة و برامج التربية الجنسية.

ويبدو أن الأسباب الرئيسة لشعبية إيضاح القيم هي ما يلي:

١. بالنسبة للطلاب، لا تتطلب الاستراتيجيات العديدة إعداداً مسبقاً؛ ويُستوعَب الجميع بسهولة مما يؤدي إلى مناقشة حامية في الفصل الدراسي.

٢. أصبح المعلم ميسراً فقط - وليس مدرسًا حقيقيًا - منذ ذلك الحين، وليس هناك معرفة فعلية لتنُقل، ونتيجة لذلك، لم يكن المعلم يحتاج للتحضير والإعداد، كما أن الاختبارات غير ضرورية؛ لأنه لا إجابات صحيحة أو خاطئة، وإنما يكمن نجاح الفصل في المناقشات المفعمة بالحيوية والنشطة.

٣. تتلاءم الفلسفة الكاملة للسماح لكل طالب باختيار قيمه الخاصة بسهولة مع مجتمعنا الاستهلاكي، فأصبح الناس يختارون أنظمة القيم مثل اختيارهم لمجلة أو فيلم أو نوع من الصابون.

٤. يبدو أن البديل هو التدريس المباشر لقيم معينة، وبدا هذا شبه مستحيل، وقد بدا الأمر مستحيلًا؛ لأن الأسباب التي تبرر العديد من القيم لم تعد مألوفة للمعلمين أو الطلاب وبدا أنه يمكن دحضها بسهولة، كما يتطلب تدريس قيم محددة تدريبًا مسبقًا ومعرفة تبرر قيمًا معينة، لكن معظم المعلمين لم يتلقوا هذا التدريب أو المعرفة المناسبة.

وأخيرًا، يبدو أن الطريقة الوحيدة لتعليم مثل هذه القيم تتضمن جرعات كبيرة من إلقاء المحاضرات أو المواعظ، ويصعب القيام بهذا النوع من التدريس؛ لأنه لا يحظى بشعبية بين الطلاب.

٥. توصل العديد من المعلمين إلى الاعتقاد بأنه - في مجتمع تعددي -قد يكون تدريس أي قيمة غير قانوني، بمعنى أن أحد الوالدين قد يشتكيه أو يقاضيه إذا علم المعلم قيمة

رفضها الوالد، وإلى جانب هذا الخوف كان الاعتقاد - على الأقل في البداية - أن إيضاح القيم كان محايدًا، كما ادعى مؤيدوها.

الخلاصة: لماذا يجب رفض إيضاح القيم؟

بالرغم من النداءات بالسماح الفوري لكل طالب باختيار قيمه الخاصة (النسبية الأخلاقية الشخصية)، يجب رفض نهج إيضاح القيم بحزم، بسبب أن النسبية الفردية تؤدي إلى الفوضى الاجتماعية وتتعارض مع الفطرة السليمة، وقد تبدو قضية الفوضى الاجتماعية مجردة وبعيدة، لكنها في الواقع ملموسة وأقرب مما نتصور.

فعلى سبيل المثال: تعتبر العنصرية أمرًا مقبولًا تمامًا في نظام إيضاح القيم، فكره الناس بسبب عرقهم أو دينهم أو خلفيتهم العرقية أمر جيد طالما أن الطالب اختار ذلك، وكذلك رفض المدرسة نفسها، وقول «نعم» للمخدرات، والغش في الامتحانات، والسرقة من زملائك في المدرسة؛ كل هذه الخيارات لا بأس بها إذا كانت القيم متروكة لكل شخص، ولا يمكن رفض هذه السلوكيات من قبل دعاة إيضاح القيم.

وتخبرنا الفطرة السليمة أن بعض القيم (أو الفضائل) تحظى بالإعجاب والقبول دائماً باعتبارها صالحة بشكل لا لبس فيه، ففي كل مكان يكون الإعجاب بسمات مثل الصدق والإيثار والبطولة والعمل الجاد والولاء، ويُرفَض الكذاب واللص والجبان والكسول والأناني والخائن.

باختصـار: هناك قيم متعددة الثقافات وسـمات شـخصية تتماشـى معهـا، وعلاوة على ذلك، فـإن الانتقادات الأخرى المذكورة وضعت المسـامير الأخيرة فـي نعش إيضاح القيم، وعلينـا أن نتذكر أن إيضاح القيـم يفتـرض افتراضًا أساسـيًا بأن الذات خيّرة تمامًـا، دون أدنى ميل لإيـذاء الآخرين أو اسـتغلالهم، وبالإضافة إلى ذلـك، غالبًا ما تحتوي الاسـتراتيجيات والتمارين المستخدمة في إيضاح القيم على تحيزات أيديولوجيـة معينـة، وغالبًـا ما تنتهك الأسـئلة المسـتخدمة خصوصية الطالب وأسرة الطالب.

ببساطة شديدة، توضح التناقضات وعدم الاتساق في إيضاح القيم أنه نظام يسطح العقل ويحجب الفكر.

وقـد فقد إيضاح القيم بعض القبـول في المدارس في جميع أنحاء البـلاد -بسـبب احتجـاج الوالدين فـي المقام الأول- ومـع ذلك، فإن نجاحه الواسـع يكشف الانتشـار المقلق للنسـبية الأخلاقية المشوشة في كثير من التعليم الأمريكي.

ولسوء الحظ، تظل هذه النسبية الأخلاقية القائمة على الاستقلالية الكاملة للذات -حتى اليوم - جزءًا من العديد من البرامج.

وربمـا خفت وهج اسـم « إيضاح القيم» - لكن النسـبية الأخلاقية الذاتيـة التوجـه، تحـت أسـماء أخـرى، تسـتمر فـي تقويـض الحيـاة الأخلاقية لأطفالنا، فكن على حذر من البرامج التي تركز على «اتخاذ القرار» أو «الاختيار»، إلخ.

فالبرامـج التي تؤكد على عملية اتخاذ القـرار، وتتجاهل المحتوى المختار، تكون لها دائمًا نظرة نسبية.

الفصل السابع

الذاتانية ومجتمع اليوم

عقيدة لثقافة الشباب والمهنيين الحضريين A CREED FOR THE YOUTH AND YUPPIE CULTURE

كما أوضحنا سابقًا، تتمثل واحدة من الصعوبات الحقيقية في الذاتانية بأنه مع تحديدها كثيراً من الأحداث المهمة نفسياً في المجتمع، فإنها لا تتعامل أبدًا مع مسألة من أو ما هو المسؤول عن المجتمع؟

ويمكن النظر إلى هذه المشكلة على أنها محورية عندما تصبح أفكار هؤلاء المنظرين جزءًا لا يتجزأ من نفس المجتمع الذي يهاجمونه، وبالفعل، فطريقتهم المفضلة لكشف زيف أنظمة المعتقدات السابقة - وهي ما يطلقون عليها تبريرات ومبررات القوى الاجتماعية وقت صياغتها - يمكن قلبها بشكل كبير على فروم وروجرز وماسلو.

وليس من قبيل المصادفة أن النمو الذاتي ظهر كقيمة في المجتمع الأمريكي في وقت كانت فيه أمريكا تشهد توسعًا اقتصاديًا على نطاق غير مسبوق في تاريخ البشرية - خلال الفترة من ١٩٥٥ إلى الثمانينيات - مما جلب ثروة كبيرة لأكبر عدد على الإطلاق من الناس.

ولـم يكـن هـذا النمـو السـريع أكثـر وضوحًـا منـه فـي الكليـات والجامعات الأمريكية، التي امتلأت بمزيد من الشـباب الذين يعيشون النمـو المعتـاد فـي الحيـاة الشـخصية والتطـور الفكـري الـذي يميـز الأشخاص في أواخر سن المراهقة وأوائل العشرينات.

فـأي نظـام يمكـن أن يكون أكثـر جذبا مـن الذاتانية - مـع تطبيقها لفلسـفة النمـو الاقتصـادي التجاري على الحيـاة العقلية - في مجتمع مـن الثروة المزدهـرة التي لطالما تباهـت بالقيمة العليـا للفرد والقيمة الجوهرية للتغيير؟

لقـد كان يُنظـر إلـى عقـد المهنييـن المعاصريـن Yuppie[1] فـي الثمانينيات -مع ازدهار الاقتصاد بالنسبة للكثيرين -على أنه تعبير عن علـم نفـس «الأنا» الـذي طُبّق لأول مـرة على جيل طفـرة المواليد في السبعينيات.

ويمكـن القـول باختصـار: إن علم النفس الذاتي بمجمله دعم وبرر وشحذ بالفعل التروس الاقتصادية لـمجتمعنا.

وانتقـد فـروم مـا يـراه عناصـر فلسـفية صبيانيـة فـي حيـاة وعقائـد المسـيحية فـي العصور الوسـطى، ولكـن إذا كانت العصور الوسـطى طفولية، وكان عصر النهضة والإصلاح (كما يقول إريكسون عن ثورة لوثر على وجه الخصوص) مشابهًا لتمرد المراهقين المبكر، فقد يقول المـرء إن القرنيـن الماضييـن كانـا بمثابـة أزمـة هويـة في سـن مراهقة

---

(١) هـو مصطلـح عـام ابتـدأ فـي الثمانينات مـن القـرن الماضي، ويشـير إلـى قطاع من المهنييـن الحضرييـن الشـباب، وغالبًـا مـا يتميـز العميل المتـرف بالشـباب والثراء ونجـاح الأعمـال، وغالبًا ما يحبـون التميز في المظهر و إظهار نجاحهم بأسـلوبهم وممتلكاتهم.

متأخـرة، أي: فتـرة يسـود فيهـا نـوع مـن فلسـفة المراهقيـن المتأثرين بزملائهم.

ويتميـز الأشـخاص الذين لديهم مثل هـذه النظرة الضيقـة للعالم، وعلـى أساسـها يهاجمـون معتقدات طفولتهـم، عبر التمـرد المتمركز حول الذات، وعبر الانشغال الشديد بالجنس.

ولقـد بـدأ التمرد والأفـكار المبتذلة عن العداء للسـلطة والحماس للجنـس -الـذي ظـل دون منـازع لسـنوات فـي العالـم الحديث- في التلاشي.

وقد حان الوقت لفلسفة طفولية تؤكد تفوقها على فلسفة المراهق، أي: أسلوب حياة حكيم ذي نكهة طفولية، وهو وصف لأسمى الأديان والفلسفات.

وهذه النظرة، بالطبع، بعيدة كل البعد عن التطابق مع نظرة الأطفال للعالم، ومع ذلك، فإن كثيراً من المواقف والمعتقدات الهامة المتعلقة بالطفولة مدرجة فيها، ولا يبدو أن هناك أي شكل من أشكال الحكمة التـي تكـرس معتقـدات أو سـلوك الشـباب، أو مواقـف مـن هـم فـي الثلاثينيات.

أمة الضحايا

نظرًا لأن كثيراً من قواعد علم النفس الذاتي مستمدة من الاقتصاد وتعتمـد عليه، فإن الأشـخاص الذين يتميزون بهذا النـوع من الدوافع يكونون عرضة للخطر عندما يتدهور الاقتصاد، فقد يسـاورهم الشـك فـي هويتهـم عندمـا لا يملكـون وظيفـة أو مالاً يسـمح لهم بشـيء من تحقيق الذات.

وفي السنوات العشر أو الخمس عشرة الماضية -بالرغم من النمو الاقتصادي بشكل عام- وجد العديد من الأمريكيين -خاصة من تقل أعمارهم عن الأربعين- أن آمالهم الاقتصادية والوظيفية محبطة بشكل كبير.

وبالنسبة للبعض، كان هذا يعني الفشل في الوصول إلى مستوى طموحاتهم، وبالنسبة لآخرين، كان يعني مهنة مقبولة، ولكنها ليست مرموقة، وتبدو بشكل متزايد مجرد «وظيفة»، وليست «مهنة»، ولأول مرة منذ عقود، كان يعني بالنسبة للبعض انحدارا حقيقيًا.

لقد نما الاقتصاد، ولكن بالتأكيد ليس بالسرعة التي يتوقعها الناس للنجاح أو حتى بالسرعة الكافية لاستيعاب كل جيل طفرة المواليد الكبيرة، ويبقى أن نرى ما إذا كانت السنوات القادمة ستكون أفضل أم أسوأ.

ولكن لدينا بالفعل عدد كبير من الأشخاص يشعرون أن الاقتصاد وحياتهم المهنية -وربما علاقاتهم الشخصية- كانت بمثابة خيبة أمل كبيرة لهم.

وهؤلاء الناس - بطريقة نظرية الذاتانية الحقيقية - يرون أنفسهم ضحايا ويتلفتون حولهم لإلقاء اللوم على الآخرين.

ولعل أفضل وصف لعلم نفس الضحية قدمه تشارلز سايكس في كتابه: *أمة الضحايا: اضمحلال الشخصية الأمريكية*:

تهتم مجموعات التعافي في كثير من النواحي بمعرفة أن الشخص ضحية (ضحية لعائلة مختلة، أو بشكل أكثر تحديدًا «علاقة سامة مع الوالدين»).

وبالطبع، نحن جميعًا نشعر أننا أعضاء في أقلية ما، وهذا يجعلنا إلى حد ما ضحايا لبقية المجتمع، الذي له نوع من الأغلبية الأسطورية.

كما إن تنامي فكرة أننا جميعًا لدينا نوع من الإدمان، والاعتقاد بأن الإدمان مرض، يضع أعدادًا هائلة من الأمريكيين في فئة الضحايا.

ونظرًا لأننا فقدنا هويتنا كأعضاء في المجتمعات التقليدية - مثل الأسرة أو الكنيسة أو الحي أو البلدة الصغيرة - وجدنا هويات جديدة لمظالم مشتركة، فنحن الآن «متحدون» عبر كوننا ضحايا لكل شيء من العنصرية والتميز الجنسي إلى «المظهر» و «الحجم» إلى كوننا أولاداً بالغين لمدمني كحول، وأصبحت أمريكا دائرة ضخمة يوجه فيها الجميع أصابع الاتهام إلى شخص ما.

خذ بعين الاعتبار هذه الأمثلة السخيفة:

تم فصل موظف مدرسة محلية بسبب تأخره الدائم وأصر على أنه كان ضحية «متلازمة التأخر المزمن».

وتم طرد عميل لمكتب التحقيقات الفيدرالي اختلس ٢٠٠٠ دولار من الحكومة ليخسرها في المقامرة، ولكن أُعيد بعد ذلك -بفضل حكم قضائي بأن سلوكه في المقامرة كان «نوعاً من الإعاقة» -وبالتالي كان محميًا بموجب القانون الفيدرالي.[1]

ولدينا الآن الكثير من الإدمان بحيث يمثل المجموع أكثر من مجموع السكان الأمريكيين، وتقدر الرابطة الوطنية لمشاكل الإدمان الجنسي (ربما لم تكن تعلم بوجود مثل هذه المنظمة) أن ٢٥ مليون

(1) Sykes, A Nation of Victims,

أمريكي «مدمنون» على أنواع مختلفة من الجنس، ويشير سايكس إلى أن ٢٠ مليون أمريكي على ما يبدو مدمنون على ألعاب الحظ.

ويقدّر أحد قادة حركة الاعتماد على الآخرين عدد الأطفال البالغين لآباء مدمنين على الكحول أو مسيئين أو شديدي النقد بأكثر من ٢٣٠ مليونًا.

وفي النهاية يتضح أن إجمالي الضحايا الأمريكيين أكبر من إجمالي السكان البالغين، ويذكرنا سايكس أن الملايين من أمريكيين آخرين ضحايا متلازمة التسوق القهري، وهناك آخرون مدمنون على أشياء أخرى مثل تناول الشوكولاتة والنميمة، وأود أن أضيف الشكوى.

باختصار، يصف سايكس بلادنا أنها أصبحت أمة من المتذمرين، وهناك الكثير من الحقيقة في هذه التهمة، وظاهرة التذمر هذه مدعومة بشدة بعلم النفس الذاتي، الذي يؤكد فقط على حقوقنا وليس واجباتنا.

وبعد كل شيء، لو انتهك أحد حقوقنا - وبالنظر إلى الحقوق العديدة التي نزعم أننا نمتلكها - فهذا أمر لا مفر منه، وبالتالي ربما تصدق عبارة أن كلاً منا ضحية.

وإذا تعرض الاقتصاد لتراجع خطير حقًا لأي فترة زمنية، فإن الألم النرجسي لأعداد كبيرة من الأمريكيين- الذين يعتقدون أن الحياة تدين لهم بحياة استهلاكية نشطة من تحقيق الذات- سوف يصبح ساحقا، وسيصبح تأثيره السياسي مخيفًا، لأننا سنضطر إلى إيجاد كبش فداء لإلقاء اللوم عليه ومعاقبته، ولا شك أننا سنجد أيضًا قادة سياسيين يعرفون كيفية الاستفادة من نفسية الضحية.

من الأعراض المؤلمة لانتشار الأفكار الذاتانية في جميع أنحاء ثقافتنا تأثيرها على التعبير اللغوي اليومي، ففي المحادثة وفي أوراق الطلاب، أصبح من الشائع استخدام: «أنا أشعر» بدلاً من «أنا أعلم» أو «أنا أعتقد»، فمثلا يقول الطالب: «أشعر أن الاستنتاجات لم تكن مبررة».

وفي كتيب عن حياة الأم إليزابيث سيتون -التي أعلنت باعتبارها أول قديسة أمريكية المولد- يظهر بأحرف كبيرة على غلافه: «لقد جلبت نفسها إلى عالمها»، مع إنه بالطبع ليس «عالمها»، ولم تجلب «نفسها» بالطريقة المستقلة تمامًا التي زعمها كاتب الغلاف، وتوجد عبارة أكثر تديناً، وأقل أنانية مثل: «لقد أعطت نفسها لعالم الإله».

وهناك أيضاً كلمات أغنية «أوكلاهوما» (نحن ننتمي إلى الأرض، والأرض التي ننتمي إليها عظيمة) تشير إلى نفس النقطة بطريقة مختلفة وتتناقض مع الكلمات الشعبية لأغنية أخرى (هذه الأرض أرضك، هذه الأرض أرضي، من كاليفورنيا إلى جزيرة نيويورك)، لقد كانت فكرة الانتماء إلى الأرض فكرة منتشرة على مدى التاريخ للناس المرتبطين بشدة بالأرض والطبيعة، وعلى النقيض من ذلك، فإن الموقف الذي تكشفه الحيازة الشخصية للأراضي « هذه أرضي أنا» موقف جديد وأناني.

ويشرح فيتز سيمون أليسوان C. FitzSimons Allison [1] هذه النقطة حول الصوت المبني للمجهول بوضوح خاص في حالتين.

---

(1) C. FitzSimons Allison, Guilt, Anger and God (New York: Seabury, 1972)

فـي المرة الأولى ذكر أن ألبرت أينشـتاين قال ذات مرة في محادثة مع روبرت أوبنهايمر:

«عندمـا تُعطـى مـرة واحـدة للقيام بشـيء معقـول إلى حد مـا، فإن عملك وحياتك بعد ذلك ستكون غريبة نوعا ما».

وكتب أليسوان: هذا الصوت المبني للمجهول -«عندما تُعطى مرة واحـدة» -اسـتخدمه الأشـخاص المبدعـون بشـكل غيـر عـادي منـذ العصـور الوثنيـة فـي استكشـاف مصدر أو نشـأة إبداعاتهـم، لكن تيار العصر الحديث يسير في الاتجاه المعاكس.

وفي المرة الثانية، ناقش أليسـوان تقريرًا عن ناشيونال جيوغرافيك اسـتعاد فيه آلان فيليرز رحلة داروين الشـهيرة على متن السـفينة بيغل، وكتب:

يقدم فيليرز في روايته عددًا من الاقتباسـات من مذكرات داروين، ولعل ما يذهل القارئ هو الاختلاف في المنظور بين داروين وفيليرز، حيث يتحدث الأول عن المحيط الذي «كان مستقراً هنا» ، «وأُخذ نوع واحـد من الطيـور وعُـدِل لغايات مختلفـة»، و«البحث عـن المخطط الكبير» الذي أُنشـئت الكائنات المنظمة بناءً عليه، «وأُنشـئت مجموعة خاصة معدلة لغايات مختلفة».

بينما اسـتنتج فيليرز-الممثل المخلص لعصرنا المتميز بالغطرسـة - مـن نتائج داروين أن كل التغيير والتعديـل والتصميم هو من داخل الخلق، مسـتقل، وذاتي، وكتب: «لا عجبَ أن طائر الغاق المحلي قد تطور إلى طائر لا يطير».

ويتناقض تأكيد صوت الذاتانية النشط مع العبادة المسيحية، والتي تُقدم دائمًا وبشكل أساسي الصوت المبني للمجهول ضد جميع أشكال عبادة الأوثان، وفي توقع وأولوية عمل الإله وكلمته.

وفي مثل هذه العبادة، لا نخترع القيم، بل نفهمها، ولا نصمم هوياتنا الخاصة، ولكننا نشكلها ونعيد تشكيلها بروح الإله، لقد دُعي إبراهيم وموسى والأنبياء والتلاميذ جميعًا، لقد جاءتهم كلمة الإله وكان عملهم الاستجابة لكلمات الإله.

علم النفس لمجتمع استهلاكي

يصف روجرز نظرية الذاتانية ومجموعات الدعم بأنها متطرفة، لكن قبولها من قبل الملايين يجعل هذا الادعاء فارغًا، فالذاتانية هي في الواقع فلسفة المستهلك المثالية، ومناسبة بشكل مثالي لمن لديهم المال ووقت الفراغ، وهي مناسبة بشكل خاص للذين يسعون وراء خدمات مثل السفر والطبخ والأزياء، وتهدف الإعلانات الاستهلاكية والفلسفة وراءها إلى بيع الأشياء، ويُركِّز على الذات اليوم - والذي يعكس مرحلة لاحقة في فلسفة المستهلك - لبيع الخدمات والأنشطة، أي: بيع أنماط الحياة.

إن النجاح المادي للاقتصاد المعاصر يكمن وراءه العديد من الافتراضات التي ظهرت في كتابات أنصار الذات، فعلى سبيل المثال: قد ينتقد فروم الطابع العدائي والتنافسي والاستحواذي للشخصية «التسويقية» التي أنتجتها الرأسمالية الحديثة، لكن الشخصية الأنانية هي في الواقع نتيجة الظروف المادية والاجتماعية للاقتصاد الرأسمالي

الحديث حيث تكون ندرة الموارد- على الأقل بالنسبة لمعظم الناس- شيئاً من الماضي.

ويفترض روجرز، على سبيل المثال، أن الاتجاه العام للعلاقات الإنسانية الموجود في أمريكا المعاصرة (خاصة منطقة لوس أنجلوس)، والذي يعتمد على الاختراعات الحديثة والاقتصاد الحضري المرتبط به، سيستمر في نفس المسار، وينظر روجرز إلى التغييرات الأخيرة في العلاقات الشخصية على أنها تغييرات تقدمية.

ويستشهد -ببعض الحماس- لتوقعاته بأنه بحلول عام ٢٠٠٠ سيكون هناك بالفعل مطابقة محوسبة فعالة للزوجين، وسيكون الجنس قد فقد دوره بالكامل تقريبًا في الإنجاب (لم يُعترف بأهمية الجنس الروحية والدينية الكبيرة)، وستكون تقنيات تحديد النسل شائعة، بحيث يمكن منع حمل للمراهقات ويشيع وجود زيجات بدرجات مختلفة من الالتزام.

ويختتم نقاشه حول الشراكة بنصيحة: أي صناعة حديثة يُحكم عليها جزئيًا عبر حجم استثماراتها في البحث والتطوير، ومن المسلم به أن الشركة لا يمكن أن تنجح ما لم تتخلص من الإخفاقات السابقة، وتستكشف إمكانيات جديدة، وتضيف مواد جديدة لمنتجاتها، وتحظى بدعم مالي جيد.

ويعد التجريب أمرًا أساسيًا لجميع التطورات التكنولوجية، بغض النَظر عن عدد التقاليد التي المُتجاوزَة، وهو ليس مقبولا فحسب، بل يُموَّل ويحظى أيضاً بإعجاب الجمهور، إن التغيير هو اساس اللعبة، وهذا معروف ومقبول لدى الجميع تقريبًا.

ثم ينتقل إلى موضوع الكتاب المحدد:

إن الزواج والأسرة النووية مؤسسة فاشلة، وأسلوب حياة فاشل، ولن يجادل أحد في أن هذه المؤسسات كانت ناجحة تماماً، لذا فنحن بحاجة إلى مختبرات وتجارب ومحاولات لتجنب تكرار الإخفاقات السابقة ولاستكشاف مناهج جديدة.

وسوف نتجاوز الآن القضايا الدينية والأخلاقية التي تثيرها مثل هذه المقاطع، ولن ندقق في الافتراضات الموضوعة حول القبول والإعجاب شبه العالميين بالتكنولوجيا الحديثة، و بدلاً من ذلك، دعونا نلقي نظرة سريعة على بعض الافتراضات الاقتصادية لموقف روجرز فمن الواضح أنه يقبل ويعجب بالعمليات المركزية للاقتصاد الحديث، مع تقدمه المستمر المستمد من البحث والمدعوم بـ «أموال لا نهاية لها» من جمهور متحمس، بينما تجوهلت حجج اقتصاديات عدم النمو، والتحفظات القائمة على أسس بيئية حول المدن الكبرى والتكنولوجيا الحديثة، والتحفظ المتزايد على عمليات الزراعة الحديثة والشركات الكبرى، كل ذلك تجوهل ببساطة.

ومن الأمثلة المهمة على نوع النقد الذي يتجاهله أنصار الذاتانية تمامًا الحجة الاقتصادية الذكية وذات التأثير المتزايد للعودة إلى مجتمع أبسط وأقل صناعية، الذي قدمه أناس مثل الاقتصادي المسيحي إي.ف. شوماخر: «أي عودة من هذا القبيل إلى بيئة تشبه مجتمع ما قبل الصناعة قد تشير إلى أن القيم الاجتماعية والعلاقات الشخصية قد تعود أيضًا لتلك التي كانت موجودة في المجتمع ما قبل الصناعي».

وعلى أي حال، من غير المرجح أن تكون القيم والعلاقات في المستقبل امتدادًا أكثر تطرفًا لتلك الموجودة اليوم، وعبر افتراض أنصار الذاتانية -بافتراضهم العملي كالمعتاد- يعترفون عن غير قصد باعتماد الكثير من سيكولوجيتهم على ما يراه الكثيرون الآن كوضع غريب في المراحل الأخيرة من الاقتصاد الحضري الصناعي الحديث، والذي بدأ بالفعل في التدهور.

ولقد ثبت بالتأكيد أنه من الملائم -كما بدأت الاقتصادات الغربية في الحاجة للمستهلكين- تطوير أيديولوجية معادية للانضباط والطاعة والتحكم في إشباع الرغبات، ولقد كانت دعوة الذاتانية الواضحة لخوض التجارب- ورفضها للتثبيط أو القمع - نعمة لصناعة الإعلان، التي وجدت أن عوائد الإعلانات القائمة على الوضع الاجتماعي وجودة المنتج كانت تتضاءل.

لذا فمعظم التعبيرات القصيرة والكلمات الرئيسة للنظرية الذاتانية تقدم نسخاً إعلانية ممتازة:

افعلها الآن! لديك تجربة جديدة! قدر نفسك!

وبعض أوضح الأمثلة على المصطلحات الذاتية في الإعلانات موجود في صفحات المجلات الشعبية الموجهة للمستهلكين الأثرياء المثقفين - مجلات مثل: Playboy و Penthouse و Psychology Today.

وبعض الإعلانات في علم النفس اليوم مثل:

أنا أحب نفسي، أنا لست مغرورًا، أنا مجرد صديق جيد لنفسي، أنا أحب أن أفعل كل ما يجعلني أشعر بالسعادة.

نحـن نعيش بفلسـفة معينة: نحاول تحقيق أحلامنـا اليوم، بدلاً من انتظـار الغـد، ولكـن قبـل أن تتمكـن من القيام بأشـياء جيدة لنفسـك، عليك أن تعرف نفسك، فأنت بحاجة إلى معرفة الذات قبل أن تحصل علـى الرضا عـن النفس، فكر في الأمر! ومن الصعـب التميز في هذه المجلات بين الفلسفة التحريرية والدعاية الإعلانية.

وقبل بضع سـنوات، بينما كنت مسـافرًا إلى مدينة أخرى، صدمتني الإعلانات القائمة على الذات بكونها متكررة وبغيضة بشـكل واضح، فعندمـا وصلـت إلـى مكتـب تسـجيل الوصـول، رأيـت منشـورات وملصقـات وضعتها شـركة الطيـران وأكدت لي: «أنـت الرئيس، أنت الرئيـس!». وعند وصولي إلى وجهتي، التقطت حقيبتي بجوار مكتب لتأجير السيارات وبها ملصقات كتب عليها بجرأة: «لنضعك في مقعد السـائق!». وعندمـا غـادرت المطـار، عنـد تقاطـع قريـب، كان مطعم للوجبـات السـريعة مزينًا باللافتات التي تعلـن: «خذ طريقك!». خطر ببالـي فـي تلـك اللحظـة أن نظريـة الـذات يمكـن تلخيصها علـى أنها «نظرية شخصية برجر كينج»: «افعلها بطريقتك!».

لكن السـنوات القليلة الماضية من التضخم والركود والاضطراب الاقتصادي أوضحت حقيقة أن النزعة الذاتانية تعتمد بشكل كبير على الازدهـار الاقتصـادي، ولقـد أصبـح من الصعـب جدًا تحقيق أنفسـنا بأسعار اليوم!

ولا تُوصـف الدعـوة إلـى الانغمـاس في الـذات كفائدة مـن فوائد الرفاهيـة، كمـا هو الحال في هـذه الإعلانات، فغالبًا مـا تُغطَّى بدوافع أعلى، فعلى سـبيل المثـال، كان تطوير «الإمكانـات الإبداعية» للناس هدفًا قياسـيًا للمعلمين وكذلك علماء النفس لسنوات عديدة وما زال،

والمقصود بـ «الإبداع» هو أن يعبر الشخص البالغ أو الطفل عن إمكاناته، والتي يُفترض أنها جيدة في جوهرها (الإمكانات السيئة غير موجودة).

إنها لا تعني بالضرورة إنجاز أي شيء ذي مغزى إبداعي حقيقي، ويبدو أن عبادة الإبداع هذه كانت ثمرة لرومانسية القرن التاسع عشر، وما كان يعبد في ذلك الوقت هو «الإله» النادر الذي يمكن وصفه ب «العبقري».

وتدريجيًا، تحول -بفعل فاعل- التقدير «النخبوي» للعبقرية من قبل المجتمع الأمريكي إلى اعتقاد متضخم، ولكنه مريح بأن الذات الإبداعيةَ المقدسة تتمحور في كل أحد، فبالتالي كل ذواتنا تستحق العبادة مثل تلك التي لدى «العبقري».

وبطبيعة الحال، فإن القيم الداعمة المتمثلة في التمرد والاستقلال المتحدي أصبحت مثالية لنا جميعًا، وفي ظل انتشار هذا الاعتقاد الشائع الجذاب، تحول الإبداع إلى سبب منطقي للانغماس في الذات.

أما بالنسبة للمسيحي، فإن كل إبداع يأتي من الإله وينتمي إليه، فالادعاء بأن الإنسان «مبدع» حقًا هو إما سخف أو تجديف، ويمكن لأي شخص أن يعبر عن القدرة الفردية بطريقة إبداعية فقط عبر مواءمة نفسه أو نفسها مع إرادة الإله.

وهكذا يتطلب الإبداع البشري الحقيقي روحًا تستمد العون من الإله في جميع الأنشطة، مهما كانت دنيوية ولا يوجد بالتأكيد أي أساس مسيحي للغرور الهائل الشائع جدًا في الفنانين المعاصرين!

وبقدر ما يوجد مفهوم مسيحي للإبداع البشري، يُنظر إلى العمل الإبداعي على أنه هبة، وفي الإبداع يمنح الشخص شيئا ما، وأعظم منحة هي الحياة نفسها.

مع تطور النزعة الإنسانية العلمانية في القرن التاسع عشر، بدأ مصطلح الإبداع يطبق على الموسيقيين الكبار والفنانين والشعراء والمفكرين، أي على أولئك الذين قدموا للآخرين موسيقاهم ولوحاتهم وأعمالهم الأدبية ونظرياتهم العلمية، ولكن المكون الإلهي للإبداع - الموجود حتى في الثقافة الوثنية في مفهوم الإلهام - قد تلاشى منذ فترة طويلة.

واليوم، حتى فكرة أن الإبداع ينطوي على هبة أو منحة أصبحت من الماضي، فاليوم - في العالم العلماني -الإبداع هو ببساطة هبة من الذات للذات؛ لقد تحولت إلى مرادف لأي شكل من أشكال المتعة الشخصية، دون الإشارة إلى أي أحد آخر، ولقد سمعت ذات مرة محاضرًا عن السلوك الجنسي يجادل بجدية عن مفهوم «الاستمناء الإبداعي».

ومن ثم، فإن الادعاء القائل بأن المنطق النرجسي للذات بأن تكون «إبداعية» لا يعني القيام بأي شيء ذي مغزى حقيقي هو ادعاء دقيق.

ولقد جادل روبرت هايلبرونر باقتناع في قضية الكوارث الاقتصادية والسياسية التي يمكن أن تؤدي بسهولة إلى مجتمع جديد يكون فيه مجرد البقاء هو الهدف الأساسي.

وكتب هايلبرونر Heilbroner أنه عند النظر في توقعات هذا المجتمع الجديد:

لاحـظ تاليرانـد Talleyrand ذات مرة أن أولئك الذين عاشـوا في النظـام القديـم هـم وحدهم من يسـتطيعون معرفة ما تعنيـه عبارة "les douceurs de la vie" «حلاوة الحياة».

وكان يشـير إلـى ملـذات البلاطات الملكيـة التي يعم فيهـا البذخ، ويمكن للأثرياء وذوي المكانة أن ينغمسوا فيها في نزواتهم بطريقة لا يمكننا النظر إليها إلا أنها انغماس في الرغبات الطفولية.

ومـع ذلك - فـي وقتنا الحاضر - قد يكون الأشـخاص المهددون هـم أولئـك الذين ينتمون إلى الوسـط الفكري الذي يمكـن فيه النطق بأكثـر الأفكار سـخافة وهرطقة، في الواقع، قـد لا ينظر الناس في مثل هـذا المجتمـع المهـدد إلـى «الانغماس الذاتـي» للتعبيـر الفكري غير المقيد بنفس المشـاعر المختلطة التي نتمسك بها فيما يتعلق بأساليب الأرسـتقراطية المتلاشـية - وهـي طريقـة حيـاة مقبولة بلا شـك للقلة الذين استفادوا منها-، ولكنها لا تهـم -بل قد تضر- الغالبية العظمى.

وأطروحتنـا هـي أن تحقيق الذات مصطلح أكثر عمومية مما يشـير إليـه هايلبرونـر بـ «الانغمـاس الذاتي» والتلفـظ بـ «الأفـكار الهرطقية الشاذة».

ولا نحتـاج إلى افتراض الكوارث المسـتقبلية لهيلرونر والآخرين الذين وضعوا تنبؤات مماثلة لتقدير مدى ضخامة الثروة التي يحتاجها المجتمع لتوفير الظروف المادية لتحقيق الذات حتى لنسبة صغيرة من شَعبه.

وينسـى الأمريكيون أننا-من حيث الثروة-الطبقة العليا في العالم، وقـد بـدا واضحـا فـي حـرم الجامعـات وثقافـة المهنييـن الحضريين

Yuppie في الولايات المتحدة في العقود الثلاثة الماضية، العبث والازدراء لبلاطات النظام القديم.

وكما في البلاط الفرنسي، ولكن على نطاق أوسع، كان هناك القليل من الوعي بالأساس الهش للازدهار الحاضر واعتماده على أشخاص يعيشون بعيداً.

وبدلاً من ذلك، يُفترض بجدية أن يكون تحقيق الذات بمثابة أخلاقيات عالمية لمستقبل من المرجح أن يثير مسألة تجنب الانحدار- وربما حتى مجرد البقاء على قيد الحياة- حيث تضاء عبارة: «دعهم يأكلون الكعكة» كتعبير عن الواقعية الرحيمة مقارنة بـ «دعهم يحققون أنفسهم».

الفصل الثامن

الذاتانية والمسيحية، نبذة تاريخية

في الفصول الثلاثة التالية سوف نتناول تحليلًا مسيحيًا مفصلاً ونقدًا لنظريات الذاتانية الإنسانية، وسنبدأ في هذا الفصل بتوثيق لبعض العلاقات التاريخية المهمة بين الديانتين.

فيورباخ FEUERBACH

إن دعاة الذاتانية -حسب اطلاعي وبحثي - لا يشيرون أبدًا إلى الأصول التاريخية لأفكارهم، وبذا يعطون انطباعًا - نموذجيًا جدًا للحماسة الأمريكية - بأن أفكارهم جديدة حقًا، وأنها نتيجة للتغيرات الحديثة وغير العادية في التكنولوجيا والمجتمع، مع أن ما هو جديد في الواقع في الذاتانية ليس نظام أفكارها -الذي يزيد عمره عن قرن من الزمان - ولكنه العدد الكبير من الأشخاص المؤيدين لها الآن، كما أن هناك بعض التطبيقات الخاصة والآثار الاجتماعية للذاتانية حديثة الأصل، كما نوقشت سابقا.

وغالبًا ما يعترف دعاتها البارزون أنهم يدينون بالأصول النظرية لروجرز وماسلو، وبشكل أقل لماي وفروم، ولكن كتابات روجرز وماسلو تظهر فقط فهماً غامضاً لعمل المنظرين الأوائل الذين تبنوا مواقفهم.

إن ماي - بلا شك، بسبب خبرته واتصالاته في أوروبا- أكثر دراية تاريخيًا، في حين أن فروم هو الأكثر علمًا وإدراكًا بما يدين به للفكر الأوروبي في القرن التاسع عشر، بالرغم من إهماله للأهمية المركزية لفيورباخ بالنسبة للنظرية الإنسانية للذات.

وبالرغم من الطابع التاريخي والزخارف العلمانية لنظريات الذاتانية المعاصرة، إلا أن أصولها مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالمسيحية، وبطريقة عدائية في كثير من الأحيان.

وبالتالي، فإن مراجعة موجزة لهذه الروابط التاريخية الهامة سوف تمهد الطريق لنقدنا المسيحي الشامل في فصول لاحقة.

إن أحد المصادر المباشرة الهامة للذاتانية الإنسانية اليوم هو كتاب لودفيج فيورباخ: «جوهر المسيحية» Ludwig Feuerbach's The Essence of Christianity

وقد نُشر هذا العمل لأول مرة في عام ١٨٤١، ونُقح في عام ١٨٤٣، وأصبح هذا العمل الذي قام به أحد أتباع هيجل اليساريين معروفًا على نطاق واسع بهجومه المؤثر على المسيحية.

وصف فريدريك إنجلز ردة فعله على الكتاب: «لا بد أن يختبر المرء بنفسه التأثير التحريري لهذا الكتاب للحصول على فكرة عنه، لقد طغى علينا الحماس، وأصبحنا جميعًا أتباعاً لفيورباخ في الحال».

ومن بين المفكرين اللاحقين الذين تأثرت أفكارهم بشكل مباشر أو غير مباشر بفيورباخ، كان ماركس ونيتشه وهكسلي وجون ستيوارت ميل وفرويد وديوي، ويقود تراث ماركس ونيتشه وفرويد إلى فروم وماي، بينما يتصل ميل وهكسلي وديوي مباشرة مع روجرز وماسلو.

ويسوق الكتاب حججا ضد كل من ألوهية المسيح ووجود الإله، مع فرضية عامة مفادها أن كل اللاهوت يعود إلى الأنثروبولوجيا.

وتوضح بعض الأمثلة المقتبسة طبيعة حجج فيورباخ وتشابهها مع نظريات الذات اليوم:

- بالرغم من أن اللاهوت لا يدرك ذلك، فقد أعلن الإنسان -عبر تقديم المسيح على أنه الإله المتجسد- أن حب الإنسان غير الأناني للبشرية يشكل الخلاص.

- يتألف التقدم التاريخي للدين من هذا: ما كان يعتبر في مرحلة مبكرة من الدين شيئًا موضوعيًا أصبح معترفًا به الآن أنه شيء ذاتي، لذا فإن ما كان يُنظر إليه سابقًا ويعبد على أنه إله يُعترف به الآن على أنه بشري.

- لكن ما يحتل المرتبة الأولى في الدين - أي الإله - هو، كما بينتُ، في الحقيقة والواقع شيئًا آخر؛ لأن الإله هو مجرد جوهر الإنسان المتوقع، وبالتالي، فإن ما يحتل المرتبة الثانية في الدين - أي الإنسان - يجب الاعتراف به علانية أنه الأول.

وإذا كانت طبيعة الإنسان هي أعلى كيان للإنسان، ولكي يكون الإنسان في أعلى وجود له، فيجب أن يصبح حب الإنسان للإنسان -عملياً- هو القانون الأول والأعلى.

إله الإنسان هو الإنسان، هذا هو أعلى قانون للأخلاق، وهذه هي نقطة التحول في تاريخ العالم.

لقد اعتبر إنجلز وماركس أن مفهوم فيورباخ للبشرية شديد التجريد والتخمين، وطورا لاحقًا تفسيرهما الاقتصادي والسياسي المعروف

للطبيعة البشرية، ومع ذلك، يعترف ماركس بما يدين به لفيورباخ لإعادته العالم الديني إلى أساسه العلماني.

وينكر فيورباخ الجوهر الديني في الإنسان، ولعل من المثير للاهتمام في هذا الصدد أن فيورباخ أول من قال: «الدين خبيث مثل الأفيون»، وهي وجهة نظر رددها ماركس في هجومه الشهير على الدين.

وتشير حالة فيورباخ إلى أن نظريات الذات الإنسانية اليوم تمثل جيداً إعادة صياغة وامتداد لأطروحات المفكرين الأوائل الذين كانوا معادين صراحة للمسيحية.

وستكون السمة المشتقة نسبيًا لنظرية الذات المعاصرة أكثر وضوحًا إذا ألقينا نظرة سريعة على مئات السنين بين فيورباخ والنظريات الأمريكية.

المصادر الأمريكية

من نواح كثيرة، تعتبر الذاتانية أمريكية مثل فطيرة التفاح، وربما أكثر من ذلك (راجع نقاش كيرك كيلباتريك حول «الروح الأمريكية»)[1].

ويُفهم التركيز النفسي على الذات على أنه إبراز للفردانية الأمريكية التقليدية، وهو موضوع لطالما كان جزءًا من الشخصية الأمريكية، وبالتأكيد قبل حرب الاستقلال بوقت طويل، ولكنه موضوع برز

(1) W. Kirk Kilpatrick, Psychological Seduction: The Failure ofModern Psychology

بشكل خاص حوالي عام ١٨٤٠ في كتابات شخصيات مثل والت ويتمان ورالف والدو إمرسون.

وفي كثير من النواحي، لا يزال وايتمان يعتبر الشاعر الأمريكي الأكثر تميزًا الذي أنجبته أمريكا، واشتهر بقصيدة أطلق عليها: «Song of Myself أغنية نفسي»، وفي السطر الأول منها: «أنا أحتفل بنفسي»، ويمكن أن تكون أغنية لرياض الأطفال في برنامج تقدير الذات، بالرغم من أنني أعتقد أن عبارة: «أنا أهم شخص في العالم بأسره» توضح النقطة بشكل أكثر وضوحًا.

ويمثل إيمرسون - «الذي كان لمقاله» الاعتماد على الذات «تأثير تاريخي في ذلك الوقت - جانبًا آخر من جوانب الفردانية الأمريكية، ويبدو أن العديد من المسيحيين الأمريكيين يعتقدون أن تعبير» يساعد الإله أولئك الذين يساعدون أنفسهم «موجود في الكتاب المقدس، مع أنه ليس موجودًا بالطبع».

ويلخص هذا التعبير ثقة أمريكا في الذات المنعزلة، وأصل هذه الفكرة علماني بحت، وله علاقة كبيرة بالتمرد السياسي، والسعي للاستقلال عن أي شكل من أشكال السيطرة الخارجية، وكان يعتبر تعبيرا رائدًا من قبل شخصيات سياسية واجتماعية أمريكية تتراوح من جيفرسون وفرانكلين، إلى إيمرسون وويتمان، إلى جون ديوي وكارل روجرز، ولم يكن أي منهم - لو فكرت في الأمر- معروفًا بإيمانه المسيحي.

ومع ذلك، كانت الفردانية في الفترات الأمريكية المبكرة دائمًا ما تُخفف وطأتها تقاليد أخرى:

أولاً: كان الاهتمام «الجمهوري» المحافظ بالصالح العام والفضيلة المدنية، وثانياً: التقليد اليهودي المسيحي، الذي يؤكد على إرادة الإله، وحب الآخرين، وثالثاً: البعد الاجتماعي للصدقة وعمل الخير (لعل الكثير من مستشفياتنا تعبير عن تلك الاهتمامات).

لقد وصف روبرت إم بيلا Robert M. Bellah وزملاؤه هذه التقاليد الثلاثة بشكل تفصيلي وأوضحوا معضلة المجتمع المعاصر، حيث أصبحت الفردانية هي المهيمنة على نطاق واسع، بينما تلاشى التقليدان الآخران.

إن التعبير المعاصر عن هذه الفردانية وصل إلى أقصى الحدود، وقد ساهم فيه المنظرون النفسيون كثيرًا.

فوسديك وبيال FOSDICK AND PEALE

هاري إيمرسون فوسديك ونورمان فنسنت بيل كانا من الوزراء البروتستانت البارزين، الناشطين خلال الفترة من ١٩٢٠ إلى ١٩٦٠، ربما يعتبران من الأسلاف المباشرين لعلم النفس الفرداني، ولكن لم يؤخذ أي منهما على محمل الجد كمنظّر، لكنهما كانا مهمين في تعميم المفاهيم النفسية قبل الشخصيات المعروفة مثل ماسلو وروجرز.

إيمرسون فوسديك

كاتب وواعظ ذو نفوذ واسع، طور أفكاره في مدينة نيويورك في عشرينيات وثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي، وهي المكان والفترة التكوينية لمعظم نظرية الذاتانية الأمريكية، وكان بطل اللاهوت

البروتستانتي الليبرالي، كما كان أيضًا مرتبطًا بمدرسة الاتحاد اللاهوتية.

وسنلقي نظرة على ثلاثة من كتبه تلخص بشكل جيد تطور بصمته الخاصة بنظرية الذات، ولم تكن أفكاره الأساسية مثيرة للاهتمام فحسب، بل كانت ذات أهمية أكبر، فهي تبين أن هذه الأفكار كانت شائعة في سياق مسيحي ليبرالي قبل نشرها على نطاق واسع في الأدبيات العلمانية البحتة لعلم النفس.

ويبدو أن أول تعبير شائع لمفاهيم مثل «تحقيق الذات» و «أن تصبح شخصًا حقيقيًا» وما شابه ذلك، يبدو أنه حدث على منابر نيويورك البروتستانتية

الكتاب الأول المهم لملخص نظرية فوسديك الذاتية هو: Christianity and Progress المسيحية والتقدم، نُشر عام ١٩٢٢، وفي مقدمة قصيرة، حدد فوسديك نمط الكتاب عبر وصف تقدم القرن التاسع عشر بالكلمات التالية لرينان:

استبدال فئة الصيرورة بالوجود ومفهوم النسبية بمفهوم المطلق، والحركة بالجمود.

ويوضح الكتاب نفسه هذا الموضوع بافتراض أن فكرة التقدم - بالمعنيين المادي والاجتماعي - لم تصبح هي المهيمنة فحسب، بل أصبحت أيضًا وجهة النظر الصحيحة للتاريخ، ويجادل فوسديك بأن المسيحية في جوهرها دين تقدمي، وبالتالي فإن التقدم الحديث والمسيحية شريكان طبيعيان.

فضمنيًا، المسيحية هي دين الصيرورة والنسبية والحركة، ويعترف بمخاطر التفاؤل والرضا عن النفس، لكن ارتباط المسيحية بالتقدم الديناميكي هي الرسالة المركزية لفوسديك في هذا العمل.

وبعد عشر سنوات في: « الدين كما أراه» As I See Religion[1]، يعطي فوسديك Fosdick هذه الإجابة عن سؤال ما هي المسيحية؟ فيقول: هي «أصل إلهي، وطبيعة روحية، وإمكانيات لانهائية وقيمة لا تقدر بثمن، لكل شخصية»، ويضيف أنها مع «قوتها العقلية والأمل والحب الإبداعيين» و «الوعد بالتنمية» تشكل «العبقرية الأساسية» للمسيحية، أي: أن الشخصية الفردية الواعدة بالتطور الخلاق هي المفهوم المسيحي المركزي.

وبالنظر إلى تأكيد فوسديك على فكرتي التقدم والشخصية، لا يندهش المرء من أن هذا الخط من التفكير تطور بحلول عام ١٩٤٣ إلى موقف نظري يشبه إلى حد كبير الذاتانية الحالية، وحتى عنوان كتاب فوسديك الثالث المشهور حول: «**أن تكون شخصًا حقيقيًا**»، يعيد إلى الأذهان الوضع الحالي، حيث أطلق روجرز على أكثر أعماله شهرة: «**أن تصبح شخصًا**»(١٩٦١).

وقبل أن نلخص موقف فوسديك بإيجاز، قد نلاحظ كيف تطورت أفكاره، ففي المقدمة يروي فوسديك مشاركته الكبيرة على مر السنين في الإرشاد الديني والصحة العقلية والطب النفسي، وهو يوجه الخطاب بشكل جزئي للقساوسة الذين يواجهون مشاكل إرشادية مماثلة، وبشكل أساسي للقراء مثل الأشخاص الذين أتوا إليه طلباً للمساعدة.

---

(1) Harry Emerson Fosdick, As I See Religion (New York: Harper, 1932),

ومن الواضح أن كتاب: «أن تكون شخصًا حقيقيًا» هو مجموعة مبكرة من كتب «المساعدة الذاتية» النفسية، ويؤكد المؤلف أنه يدين بالكثير للعديد من الأطباء النفسيين وأطباء الأعصاب والمستشارين النفسيين الذين ساعدوه على مر السنين.

ويبدأ فوسديك بالقول: «إن الهدف المركزي لكل إنسان هو أن يكون شخصًا حقيقيًا»، وهذا النموذج المثالي «للشخص الحقيقي» يقوم على أساس نظرية الشخصية التي تُقدَّم على النحو التالي:

أن تكون شخصًا يعني أن تشارك في عملية دائمة لتصبح شيئاً مذكوراً (الصيرورة)، إن الدافع الأساسي للكائن البشري هو الكمال.

والأمر الأساسي لوجودنا هو أن تجمع شتات نفسك، والخطيئة الأساسية هي الفوضوية وعدم التركيز، وعندما يبلغ النضج الأخير، يصل الإنسان إلى «ذروة التكامل» والتي تظهر في العمل الإبداعي.

ويشير فوسديك أيضًا إلى ملاحظة مهمة مفادها أنه «في اللغة النفسية الحديثة»، حلت كلمة «التكامل» محل الكلمة الدينية «الخلاص».

والتكامل - وفقًا لفوسديك - مستمد من اكتشاف الذات وقبول الذات وحب الذات، وتظهر في النشاط الإبداعي والرفاهية العامة.

ويحتوي موقف فوسديك على بقايا مسيحية ودينية، ولكن كثيراً من نظريته عن الشخصية، أفكارها معادية تمامًا للمسيحية ويصعب تمييزها عن أفكار النظرية الذاتانية النفسية اليوم، وخاصة نظرية روجرز.

وفي الواقع، فأحد المفاهيم التي يشدد عليها فوسديك هو التناقض بين الذات المثالية للشخص وذاته المتصورة أو الفعلية، ويعتبر هذا التناقض السبب الرئيس للقلق والخوف، ويجادل بأن قبول الذات وحب الذات سوف يزيلان هذا القلق، وبعد ذلك -عبر النمو المتكامل -يمكن للشخص أن يصبح نفسه الحقيقية، ويُعرف روجرز أيضًا بتركيزه على التناقض بين الذات الفعلية والمثالية، لكن فوسديك سبقه في هذه القضية من نواحٍ عدة.

ولا يتضح من أين حصل فوسديك على مفاهيم تحقيق الذات، والصيرورة، والتكامل، ولربما كانت رائجة في الجو الفكري في الفترة من ١٩٢٥ إلى ١٩٤٥.

وغالبًا ما يستشهد في كتاب: « أن تكون شخصًا حقيقيًا» بعلماء النفس مثل ألفريد أدلر، وجوردون ألبورت، وويليام جيمس، وكارل يونغ.

وقدم أدلر لأول مرة مفهوم: «الذات الإبداعية»، وبالتالي فله على الأرجح تأثير مباشر مهم، وقد يكون من الملائم الإشارة إلى أن أدلر فقد علاقته مع خلفيته اليهودية وانضم في عام ١٩٠٤ إلى الكنيسة البروتستانتية، ومن الواضح أنه فعل ذلك لأنه أراد أن يكون جزءًا من دين عالمي لا يقتصر على مجموعة عرقية واحدة، ولا يوجد دليل على وجود تجربة دينية فعلية - ناهيك عن التحول - إنما مجرد توافق أخلاقي وفلسفي.

وأفاد إيلينبرغر أن أدلر «وجد أنه من المفيد إجراء مناقشات مع قس بروتستانتي»، وأقر أدلر بأنهما يشتركان في كثير من القيم المشتركة

فـي المثل العليا التي سـعوا إليهـا، بالرغم من بقـاء أحدهما في مجال العلم والآخر في مجال الإيمان.

وغالبًـا ما يُنظـر إلى ويليام جيمس على أنه يمهـد الطريق لنظريات الذاتانية والأنا اليوم، لكن التركيز الديناميكي على الصيرورة والاندماج ليسـت من نظريات جيمس بشكل خاص، ويشتهر جوردون أولبورت بمفاهيـم تحقيـق الـذات، لكـن كتاباته التي شـرحها فيها، جـاءت بعد سنوات من كتاب فوسديك.

وأشـار فوسـديك عدة مرات إلى كتاب البورت **الشـخصية؛ *تفسير نفسي*** (١٩٣٧)، وهذا العمل يوحي بمثل هذه المفاهيم الديناميكية.

وبغض النظر عن هذه التأثيرات، كان فوسديك واحدًا من أقدم من قـدم نظريـة ذاتية مثيـرة للاهتمام، ويبـدو أنه كان أول مـن جعل نظرية الذاتانيـة لسـنوات عديـدة الأطروحة الرئيسـة لكتاب شـاع على نطاق واسـع: «أن تكون شـخصًا حقيقيًـا» حيث بيع منه حوالـي ثلاثين ألف نسخة.

نورمان فينسنت بيال

مهتـم فـي المقـام الأول بتاريـخ الحـالات الذي يظهر فيهـا منهجه «التفكير الإيجابي» الديناميكي في مشاكل الحياة.

ومـع ذلك، لا يـزال يتعين عليه العمل بنظرية الشـخصية، وبالرغم مـن المكونـات المسـيحية، فإن هذه النظرية بالنسـبة لبيال هي أساسًـا أنانية في طبيعتها، وفي وقت مبكر من عام ١٩٣٧، كتب بيال: «أعظم يوم في حياة أي فرد هو عندما يبدأ لأول مرة في إدراك نفسه».

وكان الافتراض بأن تحقيق الذات مبدأ مركزي للشخصية ثابتاً في كتب بيال على مدار الثلاثين عامًا اللاحقة، حيث بدأ: *«قوة التفكير الإيجابي»* (١٩٥٢) بهذه الكلمات: «ثق بنفسك! آمن بقدراتك!، والثقة بالنفس تؤدي إلى تحقيق الذات وتحقيق النجاح».

وبالرغم من الإشارات المتكررة إلى الكتاب المقدس والتعاليم المسيحية (التي تعطي الكتاب ما فيه من حكمة)، فإن رسالته الأساسية وأساس شعبيته هي تبرير بيال المسيحي لتحقيق الذات، وتتألق الشخصية الذاتية للكتاب عبر عناوين فصوله: «كيف تصنع سعادتك الخاصة» و «توقع الأفضل واحصل عليه».

وهذا التأكيد على الإيمان بالذات يجعل الإله خادمًا للفرد في سعيه لتحقيق أهدافه الشخصية («كيفية الاعتماد على تلك القوة العليا»)، وأورد بيال بعض القصص لإثبات كيف مكنت الصلاة والإيمان شخصًا ما من الفوز في بعض المنافسات أو تحقيق نجاح في العمل.

وبشكل عام هُمِّش بيال كمفكر؛ لأن عمله لم يكن علمياً، ومع ذلك، فإن محتوى وشعبية رسالته يوازي محتوى وشعبية فوسديك والكثير من كتاب المساعدة الذاتية العلمانيين اليوم، ومعظم كتبه متاحة الآن ومعروضة على نطاق واسع في أقسام «المساعدة الذاتية» في المكتبات، وكانت الفترة التكوينية لبيال هي أيضًا ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين في الجو البروتستانتي الليبرالي لمدينة نيويورك

ومثل فوسديك، تأثر بشدة بعلم النفس، وأدت خبرته الواسعة في الإرشاد الروحي إلى تأليف مشترك مع الطبيب النفسي سمايلي بلانتون.

إن محاولة تفسير ظهور ذاتانية إنسانية ذات شعبية كبيرة متناغمة مع البروتستانتية الليبرالية هي مشكلة تاريخية معقدة ومثيرة للاهتمام، ويبدو أن ما حدث هو أنه مع ظهور الأفكار والقيم العلمانية -وخاصة النظريات النفسية -جُرد المفهوم المسيحي الأساسي لأهمية الذات الفريدة من تبريره اللاهوتي، وأصبحت المفاهيم الروحية التقليدية -التي رسخت الذات المسيحية في تجارب مثل الصلاة والتأمل والطاعة والتوبة والتصوف - ضعيفة جدًا في البروتستانتية الرئيسة في القرن العشرين بحيث لم تعد ذات أهمية تذكر.

إن مفهوم الكبرياء باعتباره الخطيئة الأساسية - جنبًا إلى جنب مع الجشع والحسد وغيرها - استبدل بالاعتقاد بأن «الخطيئة الأساسية هي الفوضوية وعدم التركيز»، كما تعززت أهمية الذات الفردية عبر المنطق السياسي للديمقراطية والتقاليد العلمانية العامة.

ومع ذلك، فإن التبرير الأعلى للذات يتطلب منطقًا أكثر شخصية وأقل تأثراً بالمحيط الاجتماعي والسياسي، ومن هنا جاءت النزعة الإنسانية الذاتانية لتقديم «النظرية» الضرورية، ولنتذكر ملاحظة فوسديك القائلة بأن التكامل وإدراك الذات قد حلًا محل الخلاص.

كانت فترة فوسديك وبيال فترة انتقالية، حيث قبل جيل من المسيحيين -المترددين والذين يشعرون بالملل والشك في اللاهوت المسيحي الأساسي ويجهلون الحياة الروحية - مفهومًا إنسانيًا متزايدًا للذات كان يرتدي لغة ومفاهيم مسيحية سطحية.

إن ظهور جيل كبير - وأكثر علمانية - بعد الحرب العالمية الثانية يشير إلى وجود شعب جديد مستعد للذاتانية الخالصة، ولم يعد

مرتبطًا بما كان يُنظر إليه على أنه المبادئ المسيحية لجيل آبائهم، وقد كان النظام التعليمي العام بوتقة هذا التحول في الولايات المتحدة، كما سنناقش بشكل مفصل لاحقًا.

حركة التقوى PIETISM

وثق توماس أودن التشابه بين مجموعات الدعم وبين حركة التقوى المسيحية والحسيدية اليهودية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وقد نشأت حركة التقوى البروتستانتية الحديثة في القرن السابع عشر وأصبحت ظاهرة دينية واجتماعية مهمة للغاية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

ومن مظاهرها المختلفة: التركيز على الاستجابة العاطفية الشديدة، التي تحدث عادة في مجموعات صغيرة، ولكنها تشمل في بعض الأحيان اجتماعات إحياء أكبر.

لقد كانت حركة التقوى ردة فعل ضد الأشكال الفكرية السلطوية القاسية التي اتخذتها الديانات اللوثرية والأنجليكانية واليهودية، لقد كانت فترة صعودها - مثل يومنا هذا - وقت تغيير وتنقل، ولا سيما على الحدود الأمريكية.

وربما يكون تأثير حركة التقوى على جون ويسلي - مؤسس المِيثودية- هو الأكثر شهرة، ولكن كان هناك العديد من الأشكال الأخرى، بما في ذلك الكويكرز (وهي حركة مسيحية أسسها جورج فوكس ١٦٥٠ مكرسة للمبادئ السلمية، مركز إيمان الكويكرز هو عقيدة «النور الداخلي»، أو الإحساس بعمل المسيح المباشر في

النفس، وقد أدى ذلك بهم إلى رفض كل من الخدمة الرسمية وجميع أشكال العبادة المحددة)، والهزازات (الجمعية المتحدة للمؤمنين في الظهور الثاني للمسيح، وهي طائفة مسيحية ترميمية تعود إلى الألفية تأسست حوالي عام ١٧٤٧ في إنجلترا ثم ظهرت في الولايات المتحدة في ثمانينيات القرن الثامن عشر)، ومجتمع الانسجام، ومجتمع أونيدا (كان مجتمع أونيدا مجتمعًا مجتمعيًا دينيًا مثاليًا أسسه جون همفري نويز وأتباعه في عام ١٨٤٨ بالقرب من أونيدا، نيويورك)، كما كانت الأفكار الشيوعية شائعة إلى حد ما بين أتباع حركة التقوى، مما يشير إلى وجود تشابه مع ثقافة «مجموعات الدعم» اليوم.

يوثق أودن بدقة أوجه التشابه الرئيسة بين التقوى ومجموعات الدعم، مثل شكل المجموعة الصغيرة، والسعي المتحمس للصدق، والتركيز على تجربة «هنا والآن»، والحميمية بين الأشخاص، والاجتماعات الطويلة المتكررة.

يقدم Oden أودن الدليل على هذه العوامل عبر سلسلة واسعة من الاقتباسات من أدبيات المجموعتين، وتسلط الاقتباسات التالية من مصادر حركة التقوى pietist الضوء على أوجه التشابه مع علم نفس مجموعات الدعم:

لقد بدؤوا في تحمل أعباء بعضهم البعض، ومن الطبعي أن «يهتموا ببعضهم البعض»؛ نظرًا لأنه كان بينهم معرفة أكثر حميمية، لذلك قويت عاطفة المحبة بينهم (ويسلي، ١٧٤٨).

اجعل عباراتك واضحة ومحددة ومركزة وموجزة، مع الإشارة إلى تجربتك الحالية. (نيوستيد، ١٨٤٣).

احذر من البقاء في مجال الراحة من تجربة الماضي (نيوستيد، ١٨٤٣).

الفحص الذاتي دقيق وشامل ومحايد، وبدون ذلك لا يكون اجتماع الفصل مثمرًا بشكل جيد ودائم (روسر، ١٨٥٥).

إن استنتاج أودين بأن ثقافة جماعة الدعم هي لاهوت يهودي مسيحي علماني وخالٍ من الأساطير هو استنتاج متسق مع الحالة التي قدمناها هنا، ويستمر في استحداث تفسير لاهوتي مقنع لإيديولوجية جماعة الدعم، ويجادل بأن الأسئلة الأساسية الكامنة وراء لاهوت مجموعات الدعم هي:

١- ما هي حدود وجودي التي قد تثبط تحقيق ذاتي؟
٢- ما هي الاحتمالات المفتوحة للخلاص من مأزقي؟
٣- كيف يمكنني تحقيق هذه الاحتمالات من أجل أن أكون مكتفياً؟

يُعبَّر عن هذا التسلسل الثلاثي -الذي يقوم عليه العلاج النفسي الفعال وكذلك مجموعات التعافي بغض النظر عن التوجه النظري- في العبادة المسيحية في شكل ثلاثة أفعال:

١-الاعتراف. ٢-الشكر. ٣-الالتزام.

ويقدم تحليل أودين وجهة نظر أخرى للطابع الديني للذاتانية، ويثير مسألة العلاقة التاريخية الخاصة التي كانت موجودة بين حركة التَقوى وأفكار مجموعات الدعم.

وبالرغم من أن التطور التاريخي لحركة التقوى وارتباطه بمجموعات الدعم والنزعة الذاتية الحديثة بحاجة إلى البحث بشكل

أكثر شمولاً، فقد قدم أودين معلومات كافية للتشكيك بجدية في ادعاء كارل روجرز بأن مجموعات الدعم هي اختراع اجتماعي لهذا القرن.

الحالة الخاصة لكارل روجرز

من بين كبار منظري الذاتانية، ربما كان لكارل روجرز التأثير الأكبر، ويؤكد روبرت سولود Robert Sollod[1]، عالم النفس الإكلينيكي، أنه من وجهة نظر فكرية، فإن روجرز لم يكن مبتكرًا للأفكار بقدر ما هو «قائد حركة تم فيها تطوير أفكار معينة ونشرها واستكشافها تحت رعايته».

ولا يمكن إنكار أن أفكار روجرز قد أصبحت مستوعبةً في التيار الرئيس لعلم النفس الأمريكي والاستشارات والتعليم، وقد انجذب الكثير من الشباب لمجموعات الدعم.

وبناءً على ذلك، من المناسب تخصيصه باهتمام خاص في هذه المرحلة، بدءًا بتحليل تاريخي قصير لأصول أفكاره وانتهاءً بمناقشة الطابع الديني المهم لعلم النفس الروجيري.

يروي روجرز - في وصف تطوره المهني والشخصي - حدثًا مهما وقع عندما كان لا يزال طالبًا في مدرسة الاتحاد اللاهوتية:

شعرت مجموعة منا أنا كنا نُغذى بالأفكار، بينما كنا نرغب في المقام الأول في استكشاف أسئلتنا وشكوكنا ومعرفة إلى أين تقودنا، وقدمنا التماسًا إلى الإدارة بأن يُسمح لنا بإعداد ندوة للحصول على نقاط دراسية، وتكون الندوة بدون مدرب، حيث سيكون المنهج من أسئلتنا الخاصة.

---

(1) Robert N. Sollod, "The Origins of Client-Centered Therapy

ومضـى يقول إن القيد الوحيد كان - من أجل مصلحة المدرسـة- أن يجلـس مـدرس شـاب فـي الندوة لكنـه لن يشـارك فيهـا إلا إذا كنا نرغب في مشاركته، وظن غالبية أعضاء تلك المجموعة -أثناء التفكير في طريقهم عبر الأسئلة التي أثاروها -أنهم خرجوا من الإطار الديني، وكنـت واحدا منهـم، وشـعرت أن الأسـئلة المتعلقـة بمعنـى الحياة، وإمكانية التحسـين البناء لحياة الأفراد ربما تثير اهتمامي دائمًا، لكنني لـم أسـتطع العمـل في مجـال يُطلـب مني فيـه الإيمان ببعـض العقائد الدينية المحددة، ولقد تغيرت معتقداتي بالفعل بشكل كبير وقد تستمر فـي التغيير، وبدا لي أنه سـيكون أمـرًا مروعًا أن تضطـر إلى الاعتراف بمجموعة من المعتقدات، من أجل البقاء في مهنة ما، وأردت أن أجد مجالًا أكون متأكدا فيه من أن حريتي في التفكير لن تكون محدودة.

ويشـير سـولود Sollod إلـى أن الفقرة السـابقة تمثـل - من قبل أن يصبح عالمًا نفسـانيًا - العديد من الاتجاهات الرئيسـة لتفكير روجرز المسـتقبلي، ولاحـظ التركيـز على المجموعـات، والموقف السـلبي تجاه السلطة والتعليم التقليديين، والرغبة في أن يجد الأفراد معتقداتهم الخاصة، والتي من المفترض أنها ستؤدي إلى تغير مستمر للمعتقدات طوال الحياة.

كما أن هناك أيضًا افتراضا على أن التغيير جيد ويبعدنا عن التقاليد والسـلطة والديـن، وهكـذا ظـل تحـرك روجرز الشـخصي بعيـدًا عن المسيحية نموذجاً ضمنياً مضاداً للدين في كتاباته اللاحقة.

وبالرغـم من نفوره مـن المذاهب الثابتة، فإن روجرز مثال واضح لمن يتمسـك بشـدة بالعقيدة الثابتة القائلة بأن المعرفة الحديثة جعلت المسيحية والأديان التقليدية الأخرى تبدو قديمة.

إن النتيجة الطبعية لهذه العقيدة - التي يُتمسك بها بشكل صارم في أغلـب العالـم الأكاديمي المعاصر، لا سـيما من قبـل علماء الاجتماع - هي أن المؤمن الذكي سيتمرد عاجلاً أم آجلاً على الإيمان.

وفي الواقع - بناءً على تجربتي الشخصية -التي تعود إلى منتصف الخمسـينيات من القرن الماضي وحتـى الوقت الحاضر، أود أن أقول إن التخلـي عن «الخلفية الدينية» للفرد كان يُفترض بشـكل موثوق أنه نتيجة عقلانية للتعليم، لا سيما في مدارس الدراسات العليا.

إن أساس هذا الافتراض، بالطبع، لم يخضع لأي نوع من التحقيق المنهجي، بدافع السعي الصادق لفهم الحقيقة الروحية أو الدينية، كما هو متوقع من الجامعة، بالنظر إلى المُثل السامية التي تعلنها.

وباختصار، كان التحيز المعادي للدين- الذي عبر عنه روجرز في المقطع المقتبس أعلاه- وما زال شائعًا في العالم الأكاديمي.

وإذا كانـت تجربـة «مجموعـات الدعم» الفكريـة المبكرة لروجرز هـي النـواة التي نشـأ منها الكثير مـن أفكاره اللاحقـة، فمن أين حصل على الإطار المفاهيمي الذي وفر محتوى فكريًا مناسبًا لموقفه؟

ويقترح روجرز الرابط بالقول إنه بعد عبوره الشارع من كلية يونيون اللاهوتيـة إلى كلية كولومبيا للمعلمين، تعـرض للتأثير القوي للمعلم الشـهير William Kilpatrick ويليـام كيلباتريك، المدافع عن فلسـفة ديوي، والذي وصفه روجرز بأنه «معلم عظيم».

وكان تأثيـر ديـوي علـى روجـرز -عبـر كيلباتريك كوسـيط - قويًا جـدًا، ويلاحـظ سـولود التشـابه الملحـوظ بيـن نظرية روجـرز حيث

تطورت لاحقًا إلى فلسفة التعليم التقدمي وتلك التي تعرض لها روجرز في العشرينات من عمره.

وتمتد أوجه التشابه بعيدة المدى بين التعليم التقدمي والعلاج المتمحور حول العميل إلى تعريف الطبيعة البشرية، ويبدو الأمر كما لو أن مفهوم الطبيعة البشرية الذي تشكل في روجرز نتيجة لاتصاله بآباء التعليم التقدمي كان المفهوم الذي طوره «تدريجيًا» في نظرياته العلاجية.

ويقدم Sollod سولود ملاحظة ثاقبة مفادها أن العلاقة الوثيقة بين التعليم التقدمي وعمل روجرز يمكن إثباتها عبر مقتطفات من كتابات كيلباتريك، حيث يحتاج المرء فقط إلى استبدال مصطلح «العميل» بـ «الطالب» أو «الطفل»، و«العلاج» بـ «التعليم»، و«المعالج» بـ «المعلم» لتحويل اقتباس من كيلباتريك إلى نص من نظرية روجرز.

تظهر الاستبدالات بخط مائل في عبارات كيلباتريك التالية:

أود أن أنظر إلى العلاج على أنه عملية إعادة تشكيل التجربة باستمرار بطريقة تمنحها باستمرار محتوى أكثر اكتمالاً وثراءً وإعطاء *العميل* سيطرة متزايدة على العملية.

هل تقدر *العلاج* لأنه يعيد تشكيل الحياة؟ نعم،؛ لأنه يعيد تشكيل الحياة هنا وفوراً، أعني حياة *العميل*، وبناءً على ذلك، فأنا لست متأكدًا من علاجاتنا الرسمية القديمة، وما إذا كانت أفضل طريقة لإعادة تَشكيل الحياة، وأخشى أنها في كثير من الأحيان تؤخر **العلاج**.

لقد رأينا أن النمو *والعلاج* كانا عمليًا طريقتين لقول الشيء نفسه، وأدى هذا إلى إعادة تعريف *العلاج*. . . كعملية نمو مستمر.

أخيرًا، ينص كيلباتريك على مبدأ التمحور حول العميل في هذه الكلمات: «موضوع كون أي جزء من التعلم (القراءة: النمو) جوهريًا أم لا، يعتمد على التلميذ (العميل) وحاجته إلى هذا التعلم (النمو)، وليس على المعلم (معالج نفسي)».

ومع ذلك، يعطي كيلباتريك مزيدًا من التركيز إلى حد ما على المعلم كمصدر للسلطة أكثر مما يعطي روجرز للمعالج.

ومع ذلك، فإن تعاليم كيلباتريك هي تشجيع الثقة في النمو والتعلم الحر للطالب، وهي نفس الطريقة التي دافع بها روجرز لاحقًا عن الثقة في العميل، وبعد سنوات، أكمل روجرز الدائرة عبر تحويل اهتمامه إلى العملية التعليمية والإصلاح، مستنداً في ذلك إلى تجربته كخبير في علم النفس.

ومما لا شك فيه أن أفكار روجرز ربما جعلت كيلباتريك وديوي يبتسمان من وراء حجب الغيب، ويقر روجرز نفسه بهذا الارتباط على النحو التالي:

بمعنى ما، تجربتنا هي إعادة اكتشاف المبادئ الفعالة التي ذكرها ديوي وكيلباتريك وغيرهما، وإعادة اكتشاف الممارسات الفعالة التي اكتُشِفت بالتأكيد مرارًا وتكرارًا من قبل المعلمين الأكفاء.

ومع ذلك، فإن حقيقة أن الآخرين قد توصلوا إلى استنتاجات مماثلة إلى حد ما - ليس فقط في السنوات الأخيرة، ولكن في الماضي البعيد -لا ينقص شيئًا من حيوية تجربتنا الخاصة بالاكتشاف حيث حاولنا تنفيذ وجهة نظرنا العلاجية في مجال التعليم.

وباختصار، توضح نظرية روجرز الارتباط الوثيق من نواح كثيرة بين علم النفس الذاتي والفلسفة التقدمية التي قدمها ديوي، والتي لا تزال تهيمن على الكثير من النظام التعليمي في أمريكا.

ولقد لاحظنا بإيجاز في الفصول السابقة أن الموضوعات واللغة الدينية غالبًا ما تظهر في النظرية الذاتانية.

دعونا الآن نلقي نظرة على بعض هذه المؤشرات البارزة للجانب الديني لعلم نفس روجرز.

ننظر لهذه العبارة مثلا: «سأفترض أن المراجع يشعر بنفسه أنه مقبولٌ كما هو»، وهذا «القبول الكامل» من قبل المعالج يحل محل قبول الإله.

لكن روجرز يترك جانبا فكرة أنه يستحيل على أي إنسان أن يقبل إنسانًا آخر بشكل كامل أو مطلق.

ومرة أخرى، فمفهوم روجرز الأساسي عن «احترام الذات غير المشروط» هو ببساطة تحويل اقتناع المؤمنين المخلصين بحب الإله غير المشروط لهم ومحاولة الحب غير المشروط للإله، إلى تكريس كامل للذات.

ويجادل روجرز بأن هذا الاحترام الذاتي غير المشروط يحدث عندما «يرى العميل نفسه بطريقة لا يمكن فيها التمييز بين تجربة ذاتية على أنَها تستحق التقدير الإيجابي أكثر أو أقل من أي تجربة أخرى».

ومثل هذه العبارات تتعارض تمامًا مع العقيدة المسيحية للخطيئة الأصلية (في الواقع، يقارن بشكل سيء حتى مع المفهوم البشري

المشترك للفشل الأخلاقي)، ولا يزال يتعارض بشكل حاسم مع عقيدة دينونة الإله.

وعلى نفس المنوال، يدعو روجرز[1] إلى أن يصبح «الفرد»، في الواقع، رفيق نفسه الاجتماعي ويضع نفسه موقع التقييم.

إن حب الذات الذي تدافع عنه نظرية روجرز يعمل في عملية العلاج المتمحور حول العميل، وتتكون تقنية العلاج هذه -في جزء كبير منها- من التفكير في مشاعر المريض الخاصة به، جنبًا إلى جنب مع دعم المعالج، ولكن بدون أي نصيحة مباشرة، وفي شكله المتطرف -الذي لم يعد يناصره روجرز- يقتصر العلاج تمامًا على إعادة صياغة مشاعر المريض بالإضافة إلى تعليقات عامة للدعم العاطفي، والكلمة الأساسية لفهم هذا الإجراء هي الانعكاس، فالمعالج مثل المرآة، يعكس حالة المريض العاطفية له.

وبطريقة غير مألوفة، تعيد هذه التقنية العاكسة للمريض الظروف التي وُصِفت منذ فترة طويلة بقوة في أسطورة النرجسية الكلاسيكية، محاطًا بمرآة غير محسوسة يتحكم بها المعالج، تضطر المريض إلى حالة قصيرة المدى على الأقل من النرجسية.

وبعد كل شيء، ماذا هناك لتقع في حبه؟ فبالرغم من الهدف المثالي للنظرية الذاتية المتمثل في محاولة تطوير تقييم ذاتي صادق، فإن المبادئ النظرية لروجرز، غير المقيدة بالحدود المعقولة والمسؤولية الأخلاقية، تسمح أو حتى تشجع المريض على الانزلاق إلى عالم نرجسي يرضي نفسه.

---

(1) Rogers, "A Theory of Therapy," pp. 209, 216

ولا شـك أن هنـاك بعـض الشـباب الذين يعتبـرون العـلاج الذاتي الروجيري بالنسـبة لهم تجربة بناءة حقيقية. على سبيل المثال: أولئك الذيـن نشـؤوا مـن قبل آبـاء متشـددين اخلاقياً وشـديدي الانتقـاد، أو سـلطويين بشـكل صارم (لقد قيـل لي: إن مثل هـذه العائلات لا تزال موجودة، بالرغم من أنني لا أعرف أيًا منها، وأفترض أنها على وشـك الانقـراض) والمفارقـة الكبـرى هي أن الأجيـال الأخيـرة، التي تبنت الذاتانية المعادية للسـلطة بحماس، نشأت على الأرجح مع أقل الآباء سلطوية في التاريخ.

الفصل التاسع

علم النفس وحركة العصر الجديد

تكثر الإشارات إلى ما يسمى «العصر الجديد»، ويعرف معظم الناس أن المصطلح يشير إلى نوع من العقلية الجديدة ذات الطابع الديني أو الروحي، ومع وجود انتقادات كثيرة لحركة العصر الجديد من منظور مسيحي، ولكن من الواضح أنه لم تكن هناك تحليلات أو نقد للعصر الجديد من منظور نفسي، ولم تُستكشف الجذور النفسية للعصر الجديد، ويقدم هذا الفصل مقدمة للأصول الاجتماعية والنفسية لحركة العصر الجديد، يليها نقد لمواقفها الأساسية من منظور نفسي.

يقدم أنصار روحانية العصر الجديد بشكل عام موقفهم باعتباره نظرة عالمية جديدة كلياً، ويرفضون -على وجه الخصوص - النماذج الثقافية القديمة القائمة على العلم والفلسفة العلمانية والدين التقليدي، ويُنظر إلى كل هذه الأمور على أنها «فشلت»، وأنها أصبحت جزءًا من المشكلة، وليست جزءًا من الحل.

ويعتقد أنصار العصر الجديد أنهم قد مُكّنوا لبدء «ألفية النور»[1] التي ستخلص المجتمع من العلل الحالية الواضحة، ويهدفون إلى تغيير كل مجال من مجالات المجتمع عبر الشبكات الواسعة التي

---

(1) Marilyn Ferguson, The Aquarian Conspiracy (1980).

أنشؤوها أو يخططون لإنشائها في جميع أنحاء العالم، وتوجد هذه الشبكات بالفعل في مجال الأعمال التجارية، والحكومة، والتعليم، وما يسمى بالمهن المساعدة، وكذلك في الدين نفسه.

وكذلك في المهن الصحية، حيث يمكن رؤية تأثيرهم في حركة «الصحة الشاملة»، التي تركز على التكامل الروحي كمصدر للرفاهية الجسدية والعقلية.

وفي المهن المساعدة، يعتبر فكر العصر الجديد محوريًا في «حركة الإمكانيات البشرية»، حيث يكون اكتشاف الإمكانيات الداخلية لأي شخص مصدرًا للتحول الشخصي الإيجابي، و يلخص أتباع العصر الجديد أحيانًا نهجهم العام بالقول المأثور «الحياة ليست مشكلة لتُحل؛ إنما عملية مستمرة»، ويحدد هذا البيان مفهوم العملية أو النشاط النفسي أو الروحي باعتباره الهدف في حد ذاته، وهكذا يتميز العصر الجديد بالتجربة والتحول، مع ملاحظة قلة التركيز على أي محتوى صريح من أي نوع فكري أو أخلاقي أو نفسي أو ديني، بمعنى أنها عملية بلا هدف، بالرغم من أن أتباع العصر الجديد يزعمون بأن العملية هدف بحد ذاتها.

وقد تحتوي تعبيرات العصر الجديد الروحية الأكثر وضوحًا شيئاً من المحتوى المتواضع، فعلى سبيل المثال، تعلن باربرا ماركس هوبارد: «في هذه اللحظة من ميلادنا الكوكبي، يُطلب من كل شخص أن يدرك أن المسيح موجود في داخله».

إن وَعي المسيح أو الوعي الكوني يوقظ الملايين من المسيحيين وغير المسيحيين، وبالرغم من أن هوبارد تشير إلى المسيح، فمن الواضح أنها لا تتحدث عن يسوع الناصري كما هو موجود في الكتاب

المقدس أو في التعاليم المسيحية التقليدية، فهذه اليقظة الروحية أو الوعي الكوني، المتمركزين داخل الفرد، هو في النهاية تفعيل لمجتمع عالمي جديد.

والاسم ذاته «العصر الجديد» في نواحٍ كثيرة هو اسم العصر الذي يرغبون في إنشائه، عصر يترك العالم الحالي مع جميع أنظمته وراءه.

وبالرغم من أن مفكري العصر الجديد يختلفون كثيرًا في معتقداتهم، إلا أنهم عمومًا يشتركون في بعض الأفكار (أو على الأقل المواقف).

ويصف بوروز Burrows بعض هذه المعتقدات على النحو التالي: الحقيقة المطلقة، أو الإله، عبارة عن طاقة نقية غير متمايزة أو وعي أو قوة حياة، تتجلى في الخلق على أنها تفاعل ديناميكي بين أقطاب متضادة؛ الضوء - الظلام، الذكر -الأنثى، العدوانية - السلبية، والخير - الشر.

وكما يوضح هذا الملخص، تحاول عقلية العصر الجديد تحطيم الفروق بين الأشياء وأضدادها، والادعاء بعدم وجود حدود مهمة بشكل جدي.

وشرح Groothuis جروثيس المبادئ الأساسية للعصر الجديد بشكل مفصل، ونلخص هنا ست نقاط ذكرها، بالإضافة إلى نقطة سابعة إضافية:

١. الكل واحد، فقد انهارت الانقسامات، وزالت الحدود، ويُعرف هذا الموقف فلسفيًا باسم «الوحدانية» أو «الاتحاد» ففي النهاية لا فرق بين الإله أو الإنسان أو الجزرة أو الصخرة!

وعلى حد تعبير فيرجسون: «ما الذات المنفصلة إلا وهم».

ومن الواضح أن هذا الفهم لا يتوافق مع المسيحية، التي تدافع عن المخلوقات المميزة التي خلقها الإله، والمخلوقات التي تختلف عن بعضها البعض، وعن الإله.

٢. الكل هو الإله، من الواضح أن هذا الموقف الوجودي - الإله هو كل شيء وكل شيء هو الإله - أيضًا غير مسيحي.

٣. الإنسانية -على وجه الخصوص- هي الإله، ويكتب جروثيس: «هذا أحد الادعاءات المغرية للعصر الجديد، فنحن كاملون؛ أي: نحن آلهة».

وينتقد أتباع العصر الجديد الفهم اليهودي المسيحي عن الإله الأسمى من كل البشر، ويرى أتباع العصر الجديد أنفسهم على أنهم متحررون من عبودية المسيحيين للإله، وأنهم أحرار في تطوير ألوهيتهم الخاصة.

٤. هناك حاجة إلى تغيير في الوعي، فإذا كنا جميعًا آلهة، فما الذي يمنعنا من التعرف على ألوهيتنا؟ الجواب: الجهل.

وتعد جميع تقنيات وأساليب العصر الجديد المختلفة بإيقاظ إلهنا الكامن فينا، ويقول جروثيس: «هناك العديد من الأسماء لهذه التجربة التحويلية: الوعي الكوني، وإدراك الإله، وتحقيق الذات، والتنوير، والنيرفانا (البوذية)، والساتوري (البوذية اليابانية)، وساتشيتانادا (الهندوسية).

ومن الواضح أن مثل هذا التحول -الذي يأتي من داخل الشخص بدلاً من الإيمان بالمسيح وقوة الروح القدس- مختلف تمامًا عن المسيحية.

٥. جميع الأديان واحدة، يقول أتباع العصر الجديد: إن جميع الأديان نفسها في الأساس، وبالنسبة لهم فإن يسوع، وبوذا، وكريشنا، وغيرهم جميعًا تعلموا وجربوا نفس الوحدة الكونية.

وهذا هو المقصود بعبارة «وعي المسيح» في الاقتباس السابق، فمن الواضح - مرة أخرى - أن العصر الجديد والمسيحية في صراع لاهوتي خطير.

٦. التفاؤل الكوني التطوري مطلوب، يفترض العصر الجديد أن البشرية -بسبب وعيها الجديد بالإله -تسير في مسار تطوري، وهي على وشك تحول كبير من شأنه أن يفتح حقبة جديدة من السلام والوحدة والنعيم، وسوف نصبح فصيلة متفوقة من البشر.

ومرة أخرى، تقف التعاليم المسيحية في تناقض صارخ مع هذا النوع من الرؤى الأرضية المثالية الجميلة.

٧. السمة المهمة الأخيرة لفكر العصر الجديد هي رفضه المتكرر للمنطق باعتباره تفكير «الدماغ الأيسر»، كجزء من النموذج القديم، على النقيض من تركيز العصر الجديد على الحياة العقلية «للدماغ الأيمن»، مثل التصوف أو الإدراك الروحي.

ومع ذلك، فإن الوضوح النسبي لهذه الخصائص السبع العامة محجوب بمجموعة غامضة من التفاصيل، حيث يجمع أتباع العصر الجديد قطعاً وأجزاء من جميع الأديان الرئيسة، بالإضافة إلى أشياء أخرى.

ويشير راسل تشاندلر إلى أنه من الصعب تحديد العصر الجديد، فحدوده غامضة، فهو عبارة عن مشهد متغير من «المعتقدات والبدع والطقوس».

وجُمِعت أجزاء من البوذية والهندوسية والصوفية والمسيحية فيما يمكن أن يسمى «حساء العصر الجديد الانتقائي العام» أو «المزيج التوفيقي».

ومن المؤكد أن مزج عناصر من مختلف الديانات الشرقية من شأنه أن يسيء إلى الممارسين الجادين لأي منها، ويبدو أن هذا النوع من الدين هو دين أمريكي غريب ومدعوم بالتعددية الاجتماعية والعرقية والدينية للمجتمع الأمريكي.

ويبدو أن كل تابع للعصر الجديد يستمتع بانتقاء مكونات ديانات العالم التي تعجبه، فبالإضافة إلى الديانات الشرقية، هناك مصدر رئيس آخر هو الديانات البدائية: الشامانية، والسحر، والكهانة، والديانات المصرية القديمة مثل عبادة إيزيس، إلخ.

وفي كثير من النواحي، تعتبر العبادات الشيطانية المنتشرة جزءًا من طيف العصر الجديد: فهي تعبير عن عبادتهم المسكونية لعالم الأرواح.

وبالرغم من التركيز على الإيجابيات في العصر الجديد، فإن تخليهم عن فكرة الانقسام (أي: وجود تباين) يجعل من المستحيل عليهم رفض الجانب المظلم للروحانية الجديدة.

الدَعم الاجتماعي والاقتصادي لعصر جديد

هناك عدد من العوامل الاجتماعية والاقتصادية الواضحة نسبيًا التي تدعم وتعزز روحانية العصر الجديد، وكما ذكرنا سابقًا، فإن عدم

تجانس الثقافة الأمريكية - بفسيفسائها المعقدة بشكل متزايد من الأديان والثقافات المختلفة- هو نظير بنيوي اجتماعي للعالم الفكري للعصر الجديد.

فكما أن رفض شخص بسبب معتقداته يعتبر معاديًا للمجتمع وغير ديمقراطي، كذلك فإن رفض التفاهمات الدينية أو الروحية يفسر بنفس الطريقة، فجميع الفلسفات صحيحة وجديرة بالإعجاب على حد سواء، ومثلما تتكون حياتنا الاجتماعية من أفراد معينين نحبهم من عدد من المجموعات العرقية والدينية المختلفة، لذلك -على سبيل القياس - يمكن تجميع إيماننا معًا بنفس الطريقة، فكونك مسيحياً ملتزماً بجدية يعتبر نوعاً من عدم التسامح الاجتماعي ومن التعصب الأعمى، وعندما يكون التسامح هو الفضيلة الاجتماعية الأساسية المقبولة، يُنظر إلى الالتزام بعقيدة معينة على أنه معادٍ للمجتمع بل وربما ينظر إليه أنه تهديد.

وكان أحد المساهمين المهمين في شعبية العصر الجديد، العقلية الدولية العامة للعديد من الأمريكيين من الطبقة المتوسطة العليا حيث سافر أعضاء هذه الفئة الحاكمة كثيرًا إلى بلدان أخرى، وغالبًا في قارات أخرى، وينظرون إلى أنفسهم كمواطنين عالميين؛ وغالبًا ما تكون لديهم روابط بمجتمع الأعمال الدولي الجديد، وهم قلقون بشأن الغابات المطيرة البرازيلية، وتدمير الفيل الأفريقي، وذوبان الغطاء الجليدي في القطب الشمالي.

وغالبًا ما يكون أتباع العصر الجديد من المؤيدين النشطين للحكومات العالمية والنظام العالمي الجديد الذي لا يزال غامضًا.

وباختصار: يرون أنفسهم كأعضاء النخبة في القرية العالمية، ولذلك ليس من المستغرب أن يكرس دينهم للوعي الكوني القائم على الشبكات العالمية التي تهدف إلى بدء عصر جديد من السلام والنور والسلامة البيئية.

وحصلت الحركة على دعم اجتماعي آخر نتيجة الانهيار اللاهوتي لكثير من البروتستانتية «الرئيسة»، فمع تراجع البروتستانتية الليبرالية كواقع حي، تركت فراغًا روحيًا هائلاً، وفي كثير من الأحيان، سُدت هذه الاحتياجات الروحية عبر رسائل العصر الجديد.

وعلى وجه الخصوص، فالتركيز على التجارب الروحية يتناقض بشدة مع الجفاف الروحي الموجود في البروتستانتية الليبرالية، وكثير من الكاثوليك والكاثوليك السابقين من أتباع العصر الجديد، أو على الأقل رفقاء في رحلة البحث.

وغالبًا ما وجد هؤلاء أن الكاثوليكية الأرثوذكسية مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بخصوصيات عرقية صارمة ومحرجة، أو مع طبقة اجتماعية أقل من تلك التي وصلوا إليها.

ونظرًا لإدراكهم لأهمية التصوف في التقاليد الكاثوليكية، فإنهم كثيرًا ما يستخدمون التصوف كجسر من الأرثوذكسية إلى العصر الجديد.

كما أن النموذج الروحي لتيلار دو شاردان Teilhard de Chardin، وخاصة الأب ماثيو فوكس Fr. Matthew Fox، بروحانيته المصنوعة، أمثلة جيدة على هذه الظاهرة، وغالبًا ما يندمج نهج فوكس مع مواضيع العصر الجديد مثل التوجيه والتناسخ والوثنية والسحر.

كمـا أن من المسـاهمين الرئيسـين في ثقافة العصـر الجديد - التي تعـود أصولها المباشـرة إلى السـتينيات - الانتشـار الواسـع للعقاقير؛ حيـث ارتبطـت ثقافة المخـدرات في أمريكا بشـكل كبيـر بالعديد من كلاسيكيات العصر الجديد.

وكان اسـتخدام المخدرات معروفًا في عـدد من الديانات البدائية، وبدأت أعداد كبيرة من الأمريكيين المؤثرين في استكشاف الصلة بين تعاطـي المخـدرات والتجربـة الدينية، وأصبح لجوء الشـامان ورجال الطـب الأمريكيين إلى المخـدرات موضوعًا مثيـرًا للاهتمام، وجرب البعض مزيجًا من الأدوية والطقوس البدائية.

وهنـاك ميزة أخـرى للمجتمع الأمريكي تدعـم العصر الجديد هي انعدام جذور بلادنا - وعلى وجه الخصوص، انهيار تقاليدنا التاريخية والثقافية في الثلاثين عامًا الماضية - وكان هذا أكثر انتشـاراً في ولاية كاليفورنيـا، المركز الجغرافي المعترف به ومصدر العصر الجديد، إنه موطن كل شـيء من معهد Esalen إيسـالن إلى Shirley MacLaine شيرلي ماكلين إلى ماثيو فوكس Matthew Fox.

ونظرًا لأن روابطنا بالماضي قد تلاشت، جنبًا إلى جنب مع التقاليد المتلاشـية والأخـلاق التقليديـة، فقد وصـل العصر الجديـد - بأخذه عينات متنوعة من «أفضل» ديانات العالـم، واحتفاله بالمسـتقبل إضافة إلى حاضره المنفتح- وصل ليحل محل ذاكرتنا الدينية والثقافية.

ويدعم المجتمع الاسـتهلاكي الأمريكي بشـكل كامل نهج العصر الجديـد للدين؛ لأنـه مبني على افتراض أن جميع الخيارات تأتي على أساس التفضيل الشخصي من المجموعة المتاحة في السوق، وأصبح

«الحق الإلهي» للمستهلك في الاختيار كما يشاء فكرة شائعة جدًا لدرجة أنها أصبحت تعمل في لاوعي ملايين الأمريكيين.

ويرتبط الازدهار الاقتصادي للمجتمع الأمريكي ارتباطًا وثيقًا بدعم المستهلك لعقلية العصر الجديد، والكثير من تفاؤل العصر الجديد والإيمان بالتغيير كتطور، أي: التقدم المستمد من تجربة حوالي خمسين عامًا أو أكثر من التحسن الاقتصادي المطرد للعديد من الأمريكيين.

وتوفر هذه الجوانب الاقتصادية لمجتمعنا الاستهلاكي الرابط بين التفسير الاجتماعي والنفسي لشعبية العصر الجديد.

أصول نفسية للعصر الجديد

للعصر الجديد أسلاف كثيرون، ولا يمكن القول إن علم النفس قد خلقها - مثل ظهور أثينا كاملة النمو من جبين زيوس- ولكن كان علم النفس إحدى القوى الفكرية والاجتماعية الرئيسة التي جلبت الحركة إلى الصدارة الثقافية، وجاء أحد مصادر دعم العصر الجديد من فرويد ويونغ، اللذين شددا -بطرق مختلفة - على أهمية اللاوعي.

ولقد خلق علماء النفس مناخًا كاملًا من الرأي الذي يجعل العالم الداخلي اللاواعي، يبدو أكثر واقعية من العقل الواعي بإدراكه للواقع الخارجي.

وهكذا، فإن أتباع العصر الجديد - من أشهرهم شيرلي ماكلاين- يتعاملون مع «الذات العليا» الداخلية -التي لم تُوضَّح تفاصيلها حتى الآن - التي تعلمهم الحقيقة عن الحياة وعن أنفسهم.

ومع ذلك، كان المصدر النفسي الأساسي للعصر الجديد هو علم النفس الإنساني، وعلى وجه الخصوص أبراهام ماسلو، الذي من الواضح أنه قوة رئيسة في تصور علم النفس الإنساني.

وركز كارل روجرز -المؤلف الرئيس المشارك لعلم النفس الإنساني جنبًا إلى جنب مع ماسلو - في المقام الأول على التقنيات العلاجية، وكان لتفسيره العام -الذي يركز على العميل في بيئة الاستشارات -أكبر الأثر.

وهكذا كان لروجرز تأثير كبير على ممارسة العلاج النفسي والاستشارات، لكنه كان أقل تأثيرًا على التفسيرات النظرية للشخصية كما في التصور العام، ومع ذلك، كان روجرز متعاطفًا تمامًا - قرب نهاية حياته - مع مفاهيم العصر الجديد[1].

وكانت مساهمات إريك فروم في علم النفس الإنساني مهمة، ولكنها ثقافية واجتماعية في المقام الأول، فقد كان اتصال عمله المباشر بحياة الأفراد قليلًا نسبيًا.

وقد كان أبراهام ماسلو في المقام الأول مُنظِّرًا للشخصية، وكانت مساهمته الفعلية في عملية العلاج قليلة نسبياً، وربما كانت مساهمته الرئيسة كتابه: *الدافع والشخصية*، والذي يحدد عنوانه اهتمامه المركزي، فقد كانت الفكرة الأساسية لماسلو هي التسلسل الهرمي المعروف لاحتياجات الإنسان.

ففي أعلى مستوى من هذا التسلسل الهرمي للاحتياجات - والذي يُفترض أنه يكمن وراء تطور شخصية جميع البشر - يأتي مفهوم

(1) Carl R. Rogers, A Way of Being (Boston: Houghton Mifflin, 1980).

ماسلو الأكثر شهرة: الحاجة المفترضة لتحقيق الذات، وفي الجزء العلوي من تحقيق الذات وضع ماسلو «تجربة الذروة»، وتجربة الذروة هي تجربة متسامية للوحدة والكمال والاتحاد مع الكون، ويذكر ماسلو صراحة أن هذه التجربة هي ظاهرة طبيعية وليست خارقة للطبيعة، ويفترض أن الشخصيات الدينية غالبًا ما وصلت إلى هذه المرحلة، ولكن بعد الخروج من ذروة التجربة ارتكبوا هم أو زملاؤهم المتدينون خطأ تفسيرها بحسب مبادئ الدين في ثقافتهم، وبالتالي فإن تجربة الذروة هذه بالنسبة لماسلو هي ظاهرة طبيعية بحتة، وإن كانت ظاهرة متسامية/ فائقة.

وقرب نهاية حياته، أصبح ماسلو مهتمًا أكثر فأكثر بالتجربة الفائقة، وكان من بين أهم مؤسسي مجلة جديدة تسمى The Journal of Transpersonal Psychology (JTP) مجلة علم النفس الشخصي الشامل / مجلة علم النفس الروحي، والتي بدأ نشرها في عام ١٩٦٩.

وبحلول هذا الوقت من حياته، كان ماسلو يعيش في كاليفورنيا وكان له صلات بمعهد إيسالن Esalen، وأعلِن عن (JTP)الجديدة لأول مرة عن طريق ماسلو Maslow في كنيسة Unitarianالموحدين في كاليفورنيا.

وتوضح نظرة سريعة على الأقسام المرجعية للمقالات في (JTP) أن ماسلو هو مؤلف مؤسس رئيس، ومن الواضح أنه أكثر علماء النفس الذين يستشهد بهم.

وتركز مجلة علم النفس الروحي JTP على التجربة المتسامية وآثارها على الحياة الشخصية والنمو، وهي لا تدعي أنها جزء من علم النفس العلمي التقليدي، بل إنه حتى التفكير الصارم نوعا ما للمحللين

النفسيين وعلماء النفس الإدراكيين والسلوكيين - إن لم يكن محتقرًا - فيقابَل بالتجاهل، في الغالبية العظمى من مقالات علم النفس الروحي JTP.

ومن الواضح أن القطيعة بين علم النفس التقليدي والتجارب المتسامية - والروحانية في كثير من الحالات - قد حصلت في المجلة الجديدة The Journal of Transpersonal Psychology (JT'P).

وهذا لا يعني أن المقالات المتعلقة بالتجربة الروحية التي وُجدت دون جدوى علمية، ولكن النقطة المهمة هي أنه بالانتقال إلى التسامي، انتقلت هذه المقالات إلى عالم جديد تمامًا من الخطاب الفكري، عالم يترك الأصل النفسي للحركة وراءه، لكن علم النفس الإنساني -عبر ماسلو- كان منصة انطلاقهم.

وأصبحت الصلة الواضحة بين علم النفس الروحي وحركة العصر الجديد واضحة في عام ١٩٧٨ عندما رعت مجلة The Journal of Transpersonal Psychology (JT'P) مؤتمرًا حول «الوعي والكون»، وضم هذا المؤتمر، الذي عقد في كاليفورنيا، شخصيات مهمة من العصر الجديد مثل فريتجوف كابرا.

ويبدو أن العديد من علماء علم النفس الروحي لا يزالون يفترضون أن التجربة الروحية أو المتسامية هي نوع خاص من الظواهر الطبيعية، ويفسر هؤلاء الكتاب التجربة المتسامية كظاهرة يمكن أن تحدث عن طريق الدراسة والممارسة المنهجيتين.

فعلى سبيل المثال: يمكن أن تسهل التمارين الذهنية -التي تفصل الشخص عن عالم الإدراك والفكر والذاكرة -هذه التجربة للوعي

المتحرر، ويفسرون النشاطات الدينية التقليدية سواء الجسدية (مثل الصيام، واليوجا) أو العقلية (مثل التأمل، والقراءة الروحية، والكوان البوذية)، باعتبارها ممارسات طبيعية تسهل الانفصال العقلي إلى حد يمكن للمرء أن يصل في نهاية المطاف ذروة، أو تسامي روحاني عالي.

وفي هذا النوع من التجارب، يُفترض أنك بعيد تمامًا عن الواقع الأرضي وتجاربك السابقة فيه، ويفترض مؤلفو JTP آخرون أنك ستكون أيضًا على اتصال مع الإلهي -بمعنى ما لهذه الكلمة -على سبيل المثال قوة الحياة العامة والحقيقة الإلهية في داخلك والحقيقة الإلهية التي تتخلل الكون بأسره وهي في كل الأشياء (أي: وحدة الوجود)، إلخ.

وباختصار: في السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي، عملت TP على إضفاء الشرعية على مواضيع التسامي أو الروحي لمجموعة كبيرة من علماء النفس والمثقفين الآخرين الذين نشؤوا في إطار أكاديمي متشكك وعقلاني ومادي.

في هذه المجلة، وفي اجتماعات علماء علم النفس الروحي، وجدوا دليلًا فكريًا ودعمًا اجتماعيًا لرفض وجهات النظر العامة للسلوكيين، والفرويديين، وحتى العديد من علماء النفس الإنسانيين الأكثر توجهاً من الناحية التجريبية.

واحتاج علماء علم النفس الروحي إلى طرق لطرد أشباح فلاسفة القرن التاسع عشر الماديين الذين سيطروا لفترة طويلة على علم النفس وجميع العلوم الاجتماعية، والتخصصات التي احتاجت إلى الفلسفة المادية والوضعية لدعم ادعاءاتهم بالشرعية العلمية.

وكتب العديد من علماء النفس الإنسانيين، أو علماء النفس من نفس النوع، لـ JTP وأماكن أخرى حول مواضيع روحية، فعلى سبيل المثال: قام تشارلز تارت Charles T. Tart، الحاصل على درجة الدكتوراه في جامعة ستانفورد، بتحرير كتاب بعنوان: علم النفس الروحي Transpersonal Psychology، والذي شارك فيه عدد من علماء النفس المنخرطين بعمق في التجربة «الصوفية»، بالإضافة إلى الفلاسفة والكتاب الدينيين الصريحين.

ويُعرف أحد الشخصيات الرئيسة في أوائل العصر الجديد باسم رام داس، وكان اسمه الأصلي ريتشارد ألبرت، وهو مثل تارت، حصل على درجة الدكتوراه في علم النفس من جامعة ستانفورد، في أوائل الستينيات من القرن الماضي، وكان مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بتيموثي ليري الحامل لدرجة الدكتوراه في علم النفس من جامعة كاليفورنيا في بيركلي، وكلاهما حصل على وظيفة كعالم نفس في جامعة هارفارد.

وجلبا إلى جامعة هارفارد مخدر LSD وغيره من الأشكال المبكرة لتفكير العصر الجديد، ويعترف رام داس (ألبرت) بأن تجاربه في المخدرات بدأت رحلاته الروحية، وبعد طرده من جامعة هارفارد، بدأ ألبرت زيارات طويلة إلى الهند وتحول إلى الدين الشرقي بطريقة دراماتيكية للغاية، وفي النهاية غير اسمه إلى رام داس، ولا يزال معروفًا جيدًا، بالرغم من أنه أكثر منهجية من العديد من شخصيات العصر الجديد.

ويعتبر كارل يونغ أهم عالم نفسي تاريخيًا وله روابط رئيسة بالعصر الجديد، وفي كثير من النواحي، كان يونغ رائدًا في علم النفس الإنساني من حيث إن مفهومه لإدراك الذات كان مشابهًا للغاية لمفهوم

ماسلو لتحقيق الذات، باستثناء أنه طور الفكرة ونشرها قبل ذلك بسنوات، ولكن مفاهيم يونغ الإنسانية لم تكن موضع تقدير خاص من قبل علماء النفس الإنسانيين الأمريكيين لأسباب غير واضحة.

ومن ناحية أخرى، فإن انخراط يونغ في الأساطير والتنجيم والدين كتعبير عن اللاوعي للفرد كان له رواج كبير في علم النفس الروحي وفي أجزاء من روحانية العصر الجديد، ومن الواضح أن اهتمام يونغ بتفسير الأحلام والرموز الموجودة في أساطير العالم، بالإضافة إلى مشاركته الشخصية والفكرية في السحر والتنجيم، قد ساهم في شعبيته في العصر الجديد.

وقد عُرف يونغ منذ فترة طويلة أنه كان - في كتاباته اللاحقة - متعاطفًا مع الدين، لكن تعاطفه لم يكن مع أي شكل من أشكال العقيدة الأرثوذكسية أو التقليدية، بل كان تعاطفه مع فهم شخصي وذاتي للغاية للحياة الدينية.

العصر الجديد كغنوصية جديدة

أشار عدد قليل من الكتاب، بما في ذلك شخصيات العصر الجديد مثل فيرغسون، إلى أوجه التشابه بين أنظمة العصر الجديد والغنوصية (الغنوصية أو العرفانية أو المعرفية (بالإنجليزية: Gnosticism) هي مصطلحات حديثة تطلق على مجموعة من أفكار ومعارف من الديانات القديمة التي انبعثت من المجتمعات اليهودية في القرنين الأول والثاني الميلاديين، وبحسب تفسيرهم للتوراة، اعتبر الغنوصيون (أو العرفانيون) أن الكون المادي هو انبثاق للرب الأعلى الذي وضع

الشعلة الإلهية في صلب الجسد البشري، ويمكن تحرير أو إطلاق هذه الشعلة عن طريق معرفتها، أي: «أغنصتها»).

ونشأت الغنوصية قبل قرن أو قرنين من ولادة المسيح، في الفترة الهلنستية (هي فترة في التاريخ القديم كانت فيها الثقافة اليونانية تذخر بالكثير من مظاهر الحضارة في ذلك الحين، وقد بدأت بعد وفاة الإسكندر الأكبر عام ٣٢٣ ق.م، واستمرت حوالي ٢٠٠ سنة في اليونان، وحوالي ٣٠٠ سنة في الشرق الأوسط، ويستخدم اصطلاح هيلينستية لتمييز هذه الفترة عن الفترة الهلينية وهي فترة الإغريقيين القدماء التي اعتبرت أوج عبقرية وعظمة الفكر والعلوم والفلسفة الإغريقية في ظل الإمبراطورية الأثينية، وقد استحدث مصطلح هلنستية المؤرخ يوهان جوستاف دريزن في منتصف القرن التاسع عشر، صاغ المصطلح الهلنستي للإشارة إلى الفترة التي انتشرت فيها الثقافة اليونانية في العالم غير اليوناني بعد غزو الإسكندر في عمله الكلاسيكي « تاريخ الهلنستية»).

وفي وقت بداية المسيحية، كان هناك العديد من الطوائف الغنوصية، رغم وجود اختلافات مهمة بينهما، إلا أنها تشترك في عدد من الميزات.

أولاً: كما يوحي اسم «العارف»، نظرت هذه الأنظمة إلى المعرفة كمفتاح لمعنى الحياة، بمعنى أن الخلاص لجميع الغنوصيين يأتي عبر المعرفة، ومنذ ما يقرب من ألفي عام، كانت المعرفة المقصودة فلسفية أو روحية، وعادة ما تكون من النوع الباطني (أي السري).

وجمعت هذه الطوائف مكونات مختلفة مأخوذة من مجموعة واسعة من المصادر الدينية والفلسفية القديمة، واستعار بعض

الغنوصيين مفاهيم أو ممارسات من الفلسفة اليونانية (مثل الأفلاطونية)، بينما تأثر البعض الآخر بالأفكار الدينية الهندية، وبعضهم تأثر بالديانة المصرية، وآخرون تأثروا بمصادر دينية يهودية.

ومع ظهور المسيحية، كان هناك عدد من الجماعات المسيحية الغنوصية، وليس هذا المكان المناسب للخوض في تاريخ الغنوصية، فهو معقد للغاية ومصدر لجدل علمي كبير، ومع ذلك، فهناك إجماع على التوفيق بين المعتقدات الدينية والطبيعة الباطنية للغنوصية، ويمكن النظر إلى أنظمة العصر الجديد على أنها عودة للغنوصية، في شكل مشابه تمامًا لمظاهرها القديمة.

ومرة أخرى، لدينا اختلافات واسعة في المفاهيم العامة، مع وجود روابط فضفاضة لممارسات معينة، ولدينا مرة أخرى التوفيق بين المعتقدات، والخلط بين العناصر الهندوسية والبوذية والمسيحية، مع إضافة سمات الأمريكيين الأصليين في بعض الأحيان.

كما أن لدينا مقاومة قوية للعقائد الثابتة واعتقادا محوريا بأنه بالمعرفة يمكن أن نصل إلى الخلاص، وهذا يعني أننا نتخلص من أسوأ مخاوفنا، عن طريق المعرفة.

وفي العصر الجديد، غالبًا ما تكون هذه المعرفة هي معرفة الذات أو المعرفة حول كيفية التخلي عن الذات أو الهروب منها (لمناقشة جيدة للحركة الغنوصية في الغرب مع إشارة خاصة إلى الوثنية الحديثة في العصر الحديث، انظر تحليل توماس مولنار).[1]

---

(1) Thomas Molnar, The Pagan Temptation (Grand Rapids: Eerdmans, 1987).

ومن الملاحظ أيضًا أن الظروف الاجتماعية للعالم اليوناني الروماني القديم، وخاصة في شرق البحر الأبيض المتوسط ، تشبه تلك التي تزدهر اليوم، فلوس أنجلوس يمكن النظر إليها أنها إسكندرية جديدة؛ فهي غنية محبة للمتعة، كما أنها ملتقى طرق الثقافات والتقاليد الدينية.

وفي جنوب كاليفورنيا، من الواضح تأثير الأديان الشرقية، ليس فقط بسبب انخراط عدد كبير من سكان كاليفورنيا الأنجلو أمريكيين في البوذية والهندوسية، ولكن أيضًا لأن الشرق نفسه يمثل حضورًا تجاريًا وثقافيًا كبيرًا.

بالإضافة إلى ذلك - بالطبع - يوجد الآن ملايين الأشخاص من أصل آسيوي يعيشون في كاليفورنيا، وهناك أيضًا أعداد كبيرة من المسلمين في منطقة لوس أنجلوس، يضيفون تقاليدهم الروحية، مثل الصوفية، ويقوضون ضمنيًا أي مطالبة مسيحية أو دينية أخرى بسلطة دينية مميزة، ويُخلَط معها أيضاً بعض العناصر اليهودية، مما يضيف نكهة دينية أخرى إلى «المزيج التوفيقي».

وتنتشر نفس الظروف الموجودة في ولاية كاليفورنيا -وإن كانت في بعض الأحيان على نطاق أضيق- في جميع أنحاء العالم الغربي؛ ولذلك يبدو أن جاذبية العصر الجديد لها مستقبل متنام؛ لأن الظروف الاجتماعية التي تدعمها أصبحت شائعة ومنتشرة بشكل متزايد.

وكما ذكرنا سابقًا، فإن إحدى سمات عقلية العصر الجديد نوع معين من التفاؤل، ويستند هذا التفاؤل إلى إمكانية الوصول إلى حالة روحية من التسامي تقود إلى سلام داخلي، وكذلك على الاعتقاد بأن

حركة العصر الجديد نفسها هي موجة تطورية ستبلغ ذروتها بتقديم حلولها لمشاكل العالم.

ومع ذلك، يبدو أنه يكمن وراء هذا التفاؤل شكل من أشكال التشاؤم لم يُفصَح عنه داخل الحركة بعد، فالانتقال من علم النفس إلى الروحانية بحد ذاته مؤشر على هذا التشاؤم.

ويرى علماء النفس الإنسانيين أنه يمكن العثور على معنى الحياة في هذا العالم على شكل معرفة نفسية ذاتية وعمليات نفسية للتعبير عن الذات.

ومع ذلك، فإن الانتقال إلى العصر الجديد يمثل تحولًا جذريًا في موضوع الخلاص أو السعادة، ويبدو الأمر كما لو أن أتباع العصر الجديد قد تخلوا عن علم النفس، وغمرهم التشاؤم بشأن أي شكل من أشكال المعرفة المرتبطة بهذا العالم.

ويوجد ضمنياً في العصر الجديد فكرة أنه فقط بالهروب من هذا العالم يمكننا العثور على السعادة أو السلام.

وفي بعض النواحي -بالطبع - يمكن توجيه نفس التهمة (وقد وُجِّهت فعلًا) للمسيحية، بسبب تركيزها على وجود الجنة، ولكن يجدر بنا أن نتذكر أن يسوع أوضح أن باب السماء مفتوح للذين حفظوا وصاياه في هذا العالم، وعلاوة على ذلك، يُنظر إلى العالم المخلوق -بما في ذلك الجسم البشري- على أنه خيّر، بالرغم من تأثير الخطيئة، وهكذا فإن تعليمات الحياة المسيحية هي في الوقت نفسه انفصال عن وعمل في هذا العالم؛ أي محبة الله وحب الجار.

ومع ذلك، فإن العصر الجديد لا يعرف قانون الحب، ويعود ذلك جزئيًا إلى عدم الاعتراف بأي قوانين على الإطلاق -لأن القوانين

تشير ضمنيًا إلى مانح القانون - وأيضاً نتيجة التركيز الكبير على التجربة الذاتية، كحقيقة الأساسية.

ونظرًا لأن الواقع الجديد هو نتيجة الممارسات الروحية أو التنوير، فإن أي إخفاقات أو مآسي في حياة المرء أو في حياة الآخرين هي في النهاية مسؤولية الفرد، ولذلك، يُنظر إلى الفقراء على أنهم مسؤولون عن حالتهم الخاصة، وليسوا كإخوة في البشرية ندين لهم بالحب.

وينبع تشاؤم العصر الجديد أيضًا من رفضه لعالم الواقع الخارجي، بما في ذلك جسدنا المادي، حيث يرفض أتباع العصر الجديد الجسد والطابع الجنسي لهويتنا عبر التأكيد على الجنس الأنثوي.

وغالبًا ما يُفسَّر العالم المادي على أنه مجرد وهم في الأساس، فالأجسام متغيرة ويمكن التلاعب بها حسب الرغبة، وعلاوة على ذلك كان للمرء - في حياة سابقة - جسد مختلف، وقد يكون لدى المرء أجسام أخرى مختلفة تمامًا في المستقبل.

أخيرًا، بسبب اعتماد تفاؤل العصر الجديد لأمريكا على ازدهارنا وثروتنا، فمن المرجح أن يظهر تشاؤمها بقوة في فترة الركود الاقتصادي، بل ويكون أكثر استجابةً للانحدار الخطير في الرفاهية الاقتصادية.

وعلى أي حال، هناك أسباب كثيرة لتوقع استمرار التوافق بين المعتقدات الدينية في العصر الجديد وتحدي المسيحية وغيرها من الديانات التقليدية الأخرى، ومن المرجح -مع مرور الوقت - أن التشاؤم الكامن حول هذا العالم سيتضح بشكل متزايد.

لقد وثق علم النفس الاجتماعي في السنوات الأخيرة بشكل شامل ميل الإنسان إلى الفهم النرجسي للذات عبر أبحاثه حول ما يسمى «تحيز المصلحة الشخصية».

فعلى سبيل المثال - كما لوحظ بالفعل -هناك ميل كبير لدى الناس لقبول المسؤولية عن نجاحاتهم وعزو الفشل إلى البيئة أو لأسباب أخرى خارجة عن سيطرتهم، كما أن لدينا أيضًا ميلا إلى رؤية أنفسنا فوق المتوسط في معظم الأبعاد الشخصية البارزة.

وعلى أية حال، فإن أطروحة هذا الكتاب هي أن النموذج الإنساني للسلوك البشري نرجسي في الأساس، وقد أدى ذلك إلى انتشاره في ثقافتنا، وقد خلق الاقتصاد الاستهلاكي - جنبًا إلى جنب مع الكبرياء الطبعي للإنسان (النرجسية) -علم نفس يركز على تمجيد الفرد لذاته.

وربما ينبغي التنويه أن مفردة (النرجسية) هنا لا أعني بها الشخصية النرجسية المضطربة بشكل خطير، بل أعني نوعًا من النرجسية الاجتماعية العامة، أي: ما قد يسميه أدلر «نمط الحياة» النرجسية.

وبالتالي من المتوقع أن يكون لدى الشخص النرجسي اجتماعيًا اليوم احتمالية أكبر للطلاق، وميل لقضاء وقت أقل مع الزوج والأطفال وقضاء مزيد من الوقت منفردا، وأيضاً المشاركة بشكل ملحوظ في الأنشطة الاستهلاكية، ويمكن التنبؤ بانخفاض التزامه تجاه المجتمع والجمعيات الخيرية.

إن التفسير الحالي لكيفية تحويل عبادة الذات النفسية - المستمدة من علم النفس الإنساني - إلى عبادة ذاتية روحية في السياق الأمريكي يمكن تلخيصه فيما يلي:

أدت الشعبية الهائلة لعلم النفس الإنساني ومشتقاته في الولايات المتحدة في الخمسينيات والستينيات والسبعينيات من القرن الماضي إلى خيبة أمل واسعة النطاق من الوعود التي قطعتها هذه النظريات، فمع تحقيق الفرد لذاته ظهرت حقيقتان مؤلمتان: أولاً: أدى هذا الدافع غالبًا إلى انهيار العلاقات الشخصية (على سبيل المثال: الطلاق والانفصال). ثانيًا: أدرك الناس- مع التقدم في العمر - أن العديد من الأشياء التي اعتقدوا أنها ضرورية لتحقيق الذات لا يمكن تحقيقها في حياتهم، فإلى جانب الكوارث الشخصية، كان هناك فشل وظيفي، ومشاكل صحية خطيرة، والعديد من خيبات الأمل الأخرى.

إن التناقض بين «النشوة» الموعودة لتحقيق الذات (ماسلو) Maslovian أو الفردية Jungian (يونغ) وواقع حياتهم خلق خيبة أمل واسعة وسبب «فجوة في المصداقية»، وبدأ تلاشي الاعتقاد بأن علم النفس يمكن أن يجعلك سعيدًا، أو أن يعطيك الإجابات عن أسئلة حياتك.

وقد حاول الكثيرون استخدام علم النفس الذاتي ووجدوه متطلباً، ولربما ساعد علم النفس - لفترة وجيزة - لكن الحياة ظلت مؤلمة وصعبة.

واكتشف عدد لا يحصى من الأمريكيين الحقيقة العامة في تعليق فرويد حول العلاج النفسي التحليلي، وهو أن أفضل ما يمكن أن يفعله هو إعادة المريض إلى المستوى الطبعي للبؤس البشري.

لكن لا يزال الناس يبحثون عن حالة إيجابية داخلية، ولذلك لجؤوا إلى الخبرة الروحية ومحاولة الفهم الروحي لحالتهم، لكن

بشكل عام، لم يلجؤوا إلى الديانات التقليدية، أو على الأقل لم يتحول عدد كبير منهم إليها.

وأنا أزعم هنا أنهم لم يلجؤوا إلى الأديان التقليدية بسبب القيود المفروضة على النرجسية - وخاصة القيود الأخلاقية- التي تتطلبها كل الأديان الرئيسة تقريبًا.

إن حرية «الحصول على ما تريد» سواء في المجال الأخلاقي أو الفكري هي أمر أساسي لجاذبية روحانية العصر الجديد، وهكذا فإن الأطروحة المقترحة هنا هي أن روحانية العصر الجديد هي: تحويل النرجسية النفسية إلى نرجسية روحية.

والنقاط السبع المذكورة سابقًا في هذا الفصل تدعم بقوة هذا التفسير للعصر الجديد، وهي فكرة أن كل شخص إله (النقطة ٣) تشجع بشكل مباشر على عبادة الذات، كما إن المفاهيم القائلة بأن الكل واحد، والكل هو الإله، وجميع الأديان واحدة (النقاط ١ و٢ و٥) تدعم أيضًا النرجسية عبر تعليق التميز بين الخير والشر وبين الحق والباطل.

وهذا يسمح للدين والأخلاق والحقيقة أن تحدد نفسها بنفسها، فجميع القوانين الخاصة، وكل الصراعات مع الخطيئة الداخلية أو الكبرياء لا معنى لها في نهاية المطاف إذا انهارت الفروق والأقطاب في فئة واحدة واسعة غير متمايزة. النقطة ٧ - رفض المنطق - تعني أن تابع العصر الجديد معفى من النقد، ويعزل هذا الإعفاء النرجسي في عالمه الذي يؤكد ذاته؛ لأن النقد يتطلب المنطق لصياغة الكلمات والكتابة.

النقطة ٤، الحاجة إلى تغيير الوعي، تفترض أن كل شخص هو مصدر هذا التغيير وبالتالي مصدر خلاص نفسه، والنقطة ٦، التي تدعو إلى «التفاؤل التطوري الكوني»، تعزز وتبرر النظام النرجسي بأكمله.

باختصار، لقد انتقلنا من تحقيق الذات - مع دعمه في اقتصادنا الاستهلاكي المنغمس في الذات - إلى روحانية المستهلك في العصر الجديد، دون أن نفقد أي شيء.

وتلخص شيرلي ماكلين - إحدى أشهر المدافعات عن العصر الجديد - كل هذا في بيانها: «كل روح هي إله نفسها الخاص، ولذا يجب أن لا تعبد أبدًا أي شخص أو أي شيء آخر غير نفسك؛ لأنك الإله، فحب الذات هو محبة الإله»[1].

بهذا المعنى، فإن العصر الجديد قديم قدم آدم وحواء، اللذين استسلما أيضًا للفعل النرجسي النهائي (وكذلك الأصلي)، عبادة الذات الحقيقية «يجب أن نكون مثل الآلهة».

---

(1) Shirley MacLaine, Dancing in the Light (New York: Bantam, 1983)

الفصل العاشر

نقد مسيحي

الذاتانية باعتبارها وثنية

يجب أن يكون واضحًا - بالرغم من أن الأمر لا يبدو كذلك بالنسبة للكثيرين - أن البحث الدؤوب والأناني عن الذات وتمجيدها يتعارض بشكل مباشر مع التعليمات المسيحية بإنكار الذات، ومن المؤكد أن يسوع المسيح لم يعش ولم يدافع عن حياة تعتبر وفقًا لمعايير اليوم «محققة لذاتها»، وبالنسبة للمسيحي، تعتبر الذات مشكلة وليست جنة موعودة.

وفهم هذه المشكلة يحتاج إلى وعي بالخطيئة، وخاصة خطيئة الكبرياء، ويتطلب تصحيح هذا الموقف ممارسات لا تتحقق بذاتها مثل الندم والتوبة والتواضع والطاعة والثقة بالإله.

وربما يناسب هنا سرد بعض الملاحظات من الأخلاق المسيحية الأساسية لباول رمزي Paul Ramsey's Basic Christian Ethics:

التأكيد الأول للقيم المسيحية حول الإنسان هو أنه خُلق لوجود شخصي على صورة الإله، وأن يسوع المسيح يجسد هذه الصورة بشكل كامل.

التأكيد الثاني هو أن الإنسان خاطئ، وهذه العقيدة أساسية في الفكر المسيحي بحيث لا يمكن التغاضي عنها.

ويعتبره العديد من اللاهوتيين أساسيًا على قدم المساواة مع الأول من أجل أي فهم كامل للإنسان على نورمن الإله، ولم تكن هذه وجهة نظر المفكرين «المتشائمين» فقط؛ بل كان هذا أيضًا رأي جون ويسلي، المعروف جيدًا بتأكيده على «المضي قدمًا إلى الكمال».

والموقف المسيحي واضح وهو أن الخطيئة ليست شيئًا حصريًا أو أساسيًا في المجتمع، بل شيء يفعله جميع البشر، ويفعلونه بإرادتهم، وليس نتيجة لتأثيرات خارجية.[1]

لذلـك، فإن موضع الخطيئة هو فـي إرادة كل واحد منا، وتعرضت هـذه العقيدة المسـيحية المركزية لهجوم لا هوادة فيه لسـنوات عديدة مـن قبل دعاة جميع العلوم الاجتماعية تقريبًـا، من الاقتصاد التقليدي وعلـم الاجتمـاع إلـى الاشـتراكية والشـيوعية، وغالبًـا مـا استسـلم المسيحيون العاديون -غير المدافعين عن لاهوتهم - للموقف القائل بـأن الشـر يكمن فقـط- أو فـي المقـام الأول- في المجتمـع، ونتيجة لذلك، قُوض الأساس المركزي لنظامهم العقائدي.

وشـن الروسـي المسـيحي ألكسـندر سولجينتسـين Aleksandr Solzhenitsyn هجوماً قوياً على موقف العلوم الاجتماعية بقوله:

لقد انكشف لي تدريجياً أن الخط الفاصل بين الخير والشر لا يمر عبر الدول، ولا بين الطبقات، ولا بين الأحزاب السياسية، بل يمر عبر كل قلب بشري.

---

(١) هـذه العقيـدة المسـيحية عن الخطيئـة الأصلية الملازمة للإنسـان وفي الإسـلام أن الإنسـان خطـاء وخير الخطائيـن التوابون ولكن لا يلزم أن خطيئة آدم متسلسـلة مع بنيه ولا بد من مخلص يتمثل في شخص النبي عيسى عليه السلام (المراجع)

ومنذ ذلك الحين، توصلت إلى فهم حقيقة كل ديانات العالم: إنها تصارع الشـر داخل الإنسـان (داخل كل إنسان)، ومن المستحيل طرد الشر من العالم بأكمله، لكن من الممكن حصره داخل كل شخص.

ومنذ ذلك الوقت، توصلت إلى فهم زيف كل الثورات في التاريخ؛ فالثـوار يدمـرون فقـط حاملي الشـر المعاصرين لهـم (وأيضًا من باب التسـرع فـي التمييز بعض حاملـي الخير أيضًا)، ثم يأخذون لأنفسـهم نفس الشر الفعلي، كتراث لهم، ويستمر في التضخم أكثر وأكثر.

وبالرغـم من التحيز المعادي للدين في علم النفس الحديث، يقدر عدد قليل من علماء النفس البارزين الضرورة النفسية لقبول الخطيئة.

وأحدهـم هوبـارت مـاورر O. Hobart Mowrer، الـذي كتـب ما يلي:

لعـدة عقـود، نظرنا نحـن علماء النفـس إلى مسـألة الخطيئة برمتها والمسـاءلة الأخلاقيـة على أنهـا خرافة كبيرة، ونفخر أننـا صنعنا عهداً جديـداً بتحررنـا منها، لكننا اكتشـفنا بعد فترة أنـه أن تكون «حرًا» بهذا المعنـى، أي تفضـل أن تكون «مريضاً» عن أن تكون خطاء، ولكن هذا يعنـي أن تتعرض لخطـر الضياع أيضًا، وأعتقد أن هذا الخطر محفوف بالاهتمام الواسـع النطاق بالوجودية التي نشهدها الآن، فعندما نصبح غيـر أخلاقييـن، أو محايدين أخلاقياً، و«أحـراراً»، فإنا نكون قد قطعنا جـذور كياننـا و فقدنا إحساسـنا العميق بالذات والهويـة؛ ومع مرضى العصاب أنفسهم، نجد أنفسنا نتساءل: «من نحن؟».

وفائـدة عقيـدة الخطيئـة العظيمـة أنهـا تعيـد إلينـا المسـؤولية عـن سـلوكنا، ومسـؤوليتنا عـن التغييـر، فضـلاً عـن إعطـاء معنـى لحالتنا، ويصف ماورر فوائد قبول الخطيئة:

طالما أن الشخص يعيش في ظل ذنب حقيقي وغير معترف به وغير مبرر، فلا يمكنه -إذا كان لديه أي شخصية على الإطلاق- «قبول نفسه»؛ وكل محاولات طمأنته وقبوله لن تنفع شيئًا، وسيستمر في كره نفسه ومعاناة العواقب الحتمية لكراهية الذات.

ولكن في اللحظة التي يبدأ فيها -بمساعدة أو بدون مساعدة- في تقبل ذنبه وخطيئته، تُفتح إمكانية الإصلاح الجذري؛ وبهذا قد ينتقل الفرد بشكل حقيقي -وإن لم يكن بدون ألم وجهد -من الرفض العميق الشامل للذات والتعذيب الذاتي إلى حرية جديدة من احترام الذات والسلام.

إن المشاكل التي تطرحها الذاتانية الإنسانية ليست جديدة على المسيحية، وفي الواقع، يمكن إرجاعها إلى الصراعات المبكرة مع الرواقية وغيرها من النظم الفلسفية والأخلاقية اليونانية الرومانية المتطورة.

إن عبادة الذات (في تحقيق الذات) أو عبادة البشرية جمعاء هي -من منظور مسيحي - ببساطة عبادة وثنية تنبع من الدافع المعتاد للأنانية اللاواعية، ولطالما عُرف حب الذات اللاواعي أو المقنَّع بأنه مصدر عبادة الأصنام.

ويصف أوتو باب Otto Baab، في دراسته لاهوت العهد القديم، ذلك بقوله:

يوضح الكتاب المقدس جيدًا أن عبادة الأصنام تختلف عن العبادة النقية لإله إسرائيل في حقيقة تجسيدها وتمثيلها للإرادة البشرية على عكس التسامي الفائق للإله الحقيقي.

فعندما يعبد الإنسان أحد الأوثان، فهو إنما يعبد نفسه ورغباته وأهدافه وإرادته، ونتيجة لهذا النوع من عبادة الأصنام، كان الإنسان مذنبًا بإعطاء نفسه مكانة الإله وتمجيد إرادته باعتبارها ذات قيمة عليا.

ويوضح مثل هذا التحليل أنه من الناحية الدينية، فالإنسانية الذاتية هي مجرد مثال آخر على النرجسية الوثنية.

وبعد تأسيس المسيحية، استمرت عبادة الذات كبدعة متعددة الأوجه، فإلى جانب الغنوصية، توجد عناصر من الذاتانية الحديثة في طائفة القرون الوسطى المسماة إخوان الروح الحرة وفي العديد من الطوائف الأخرى، والشكل الحالي للذاتانية يحتوي أيضًا على تأثيرات بيلاجية قوية.

فقد عارض بيلاجيوس - وهو لاهوتي بريطاني من القرن الرابع - عقيدة الخطيئة الأصلية وجادل بأن البشر قادرون على عيش حياة كاملة خالية من الخطيئة، وبالتالي يقلل من أهمية نعمة وجود الإله.

ويشير إيفانز في معالجة علمية إلى أن موقف بيلاجيوس لم يكن متطرفًا كما صوره نقاده في كثير من الأحيان، وظل بيلاجيوس لاهوتيًا مسيحيًا، باعتراف أحد كبار معارضيه القديس أوغسطين بأنه «رجل قديس».

ولكن قد يُنظر إلى عنصر قوي في لاهوته - في ظل تفسير تقليدي ومتطرف إلى حد ما - أنه أقرب إلى الذاتانية الإنسانية، لذا فقد قبله فروم، الذي استشهد بيلاجيوس كحليف وممثل لما يسميه الدين «الإنساني»، بعكس الدين «السلطوي» الذي يجسده أوغسطين.

ومـع ذلـك، يلاحظ إيفانـز أن تصنيفات فروم للدين «الإنسـاني» و «السـلطوي» لا تتناسـب لا مـع لاهـوت بيلاجيـوس ولا مـع لاهوت أوغسـطين (هـذا مجـرد مثال واحـد على كيـف أدى انحيـاز فروم في كتاباتـه المتعلقـة بالمسـيحية إلـى إسـاءة قـراءة اللاهـوت والإيمـان المسيحيين).

وعلاوة على ذلك، فيما يتعلق بمشـكلة السـلطوية، تجدر الإشـارة إلـى أن المسـيحيين منـذ البدايـة كانـوا علـى درايـة بمشـاكل السـلطة المؤسسـية المفرطة ومخاطر سـوء النية التي يمكن أن تخلقها، وعلى مـدى ألفـي عـام كان الـرد المسـيحي هو الإحيـاء والتجديـد الروحي المتكرر.

وفي حين أن هناك انقسامًا كبيرا بين الدين الجامد أو المؤسسي أو ذي الطابع الرسـمي وبين الإيمان الروحي الحي، فإن السـلطة في حد ذاتهـا تعمل في كلا النوعين من الدين، وتقدم المسـيحية البيروقراطية العلمانية والمؤنسـنة إلى حد كبير اليـوم مثالاً على العقيدة الميتة، فقد تم اسـتنزاف الكثير من حيوية هذه المسـيحية عبر علم النفس المفرط فـي التعميـم، ومن الأمثلة الواضحة على ذلك الذاتانية الإنسـانية التي يتبناها فروم، والتي أصبحت متسلطة بشكل متزايد.

ومثـل كل البـدع الشـائعة، فالذاتانيـة بعـض الخصائـص الإيجابية والجذابة، فكونك يجب أن تبحث عن نفسك أمر يحسن سماعه، وأن تحـاول أن تكـون إيجابيًا تجاه الآخرين أيضًا أمـر لطيف ومألوف إلى حدَ ما.

ولكنها تستبعد الحياة الروحية للصلاة والتأمل والعبادة، أي: البعد الرأسي الأساسي للمسيحية، أي: العلاقة بالإله.

فالذاتانية إذن مثال على البدعة الأفقية، مع تركيزها فقط على الحاضر وعلى الأخلاق المتمحورة حول الذات.

مشكلة الكآبة

برر بعض علماء النفس نظرية الذاتانية بالإشارة إلى العدد الكبير من الأشخاص الذين يعانون من الاكتئاب وما يرتبط به من أفكار سلبية عن أنفسهم، وكانت الفكرة هي أن التأكيد على حب الذات سوف يصحح بطريقة ما هذا الشكل المزعج والواضح من المعاناة.

والنقطة الأولى التي يجب توضيحها هنا هي أن الاكتئاب ليس ظاهرة بسيطة، فهناك أنواع مختلفة من الاكتئاب ولها أسباب متنوعة ومختلفة.

فبعض أنواع الاكتئاب لها أصول بيولوجية وتتطلب نوعًا من الأدوية، وغالبًا ما يغفل أصحاب النظريات الذاتية هذا العلاج، على حساب عملائهم.

ويمكن أن يكون للاكتئاب أصول نفسية، ولكن في هذه الحالات يكون عادةً شكلاً مقنَّعًا من عبادة الذات، و قد يبدو هذا الاقتراح مفاجئًا في البداية، لكن الأساس المنطقي بسيط: غالبًا ما يكون الاكتئاب والأفكار السلبية عن الذات نتيجة للتعنيف الذي ينقلب على الذات، أو الكراهية الذاتية التي تحدث عندما يفشل المرء في تلبية المعايير العالية الخاصة به للنجاح، فيصاب الناس بالاكتئاب لأنهم يفشلون في الزواج، أو الحصول على ترقية، أو في أن يصبحوا شركاء في أماكن عملهم، أو في أن يصبحوا أثرياء، أوفي أن يعترف بهم كفنانين، وما إلى ذلك.

ويكمـن قدر هائل مـن الكبرياء وراء ارتباطنا بالمعايير التي نفشـل فـي الارتقـاء إليهـا، وهذا يعنـي أن الثقـة المتفائلة بالنفـس والاكتئاب المتشائم غالبًا ما ينتجان عن إنشاء الذات معايير قيمها الخاصة، وهذه الذات النرجسية تحكم بعد ذلك على مدى تلبية المرء لهذه المعايير، فعندما نفشل في تلبيتها، فإن أنفسنا هي التي تديننا.

ولكن بالمصطلحات المسيحية، تأتي قيمة المرء من الإله، وليس مـن معاييرنـا التـي نختارهـا بأنفسـنا، وعـلاوة علـى ذلـك، لا يجـوز للشـخص أن يحكـم علـى نفسـه أو على أي شـخص آخـر، فالدينونة للإله، والحكم على النفس إنما هو اتخاذ لمكان الإله (طورت كارين هورني Karen Horney نظرية نفسـية علمانية بحتة عن هذا النوع من كراهية الذات والمشكلات التي تسببها)[1].

وعلـى أي حـال، فتكوينـك لتقدير لذاتـك -من الناحية النفسـية- يشـبه طباعـة أموالـك الخاصـة بنفسـك، ويـؤدي إلـى ازدهـار زائف، فيحدث التضخم متبوعًا بالاكتئاب.

فالحديـث الذاتـي عن مدى روعتـك لا يغني شـيئاً إذا ظل الوضع الحقيقـي فـي اليـوم التالـي كما هـو، ومثل الأدويـة، يمكـن أن تعطي جلسـات علـم النفـس الذاتي بهجـة قصيرة المـدى، ولكـن بعد بضع ساعات تتلاشى الغبطة ويحدث رد فعل اكتئابي.

مشكلة إذلال الحب

دعـا علمـاء النفس أيضًا إلـى العديد من مبادئ علـم النفس الذاتي اسـتجابةً للأشـخاص - غالبًا من النسـاء - الذين يعانون من العلاقات الاستغلالية.

---

(1) Karen Horney, Neurosis and Human Growth (New York: Norton, 1950).

والأساس المنطقي هو أن النساء اللائي وقعن في علاقات مسيئة يفتقرن إلى احترام الذات الكافي، وبالتالي يحتجن إلى زيادته من أجل الخروج من فخ الحب، أي: الخروج من نمطهن المدمر لذواتهن.

وأنا أوافق بالتأكيد على أن العديد من هذه العلاقات مدمرة، وأن المشكلة تكمن في كيفية الهروب منها وتجنبها في المستقبل.

وخلافي مع الاستراتيجية المشتركة لتحقيق هذه الأهداف تكمن في أن المشكلة الأولى - باعتقادي - هي أن العديد من هؤلاء الناس (ليسوا كلهم نساء) قد عبدوا محبوبهم وعلاقة حبهم، وأعني عبادة بالمعنى القوي؛ لأنهم يعبدون الشخص الآخر، أو لأنهم يعبدون علاقة حب، فلهذا يجدون أنفسهم عالقين في هذا المأزق.

ومرة أخرى، حددت عالمة نفس علمانية هذه المشكلة، حيث تشير كارين هورني إلى مثل هذه التفسيرات للحبيب والحب على أنها «مُثُل عصابية»؛ لذا فإن المسألة الأولى التي يجب معالجتها هي العشق غير اللائق الذي يُمنح لموضوع الحب.

ومن منظور مسيحي، فإن المسألة الثانية هي غياب الحب الحقيقي للإله في حياة الإنسان بشكل شبه دائم.

وبحب الإله -لا أعني تأثيرات غامضة-؛ بل أعني التزامًا بشريعة الإله: «إذا كنت تحبني، فستحفظ وصاياي» والمحبة اللائقة للقريب والجار.

إن محبة الإله تعني اكتساب إحساس قوي بقيمة الشخص نفسه في نظر الإله وانفصال حقيقي عن كل شيء في هذا العالم، بما في ذلك أشياء الحب المادية، ويبعد المرء بذلك عن «العصابية»، ولا يمكن لأي مسيحي أن يعبد أو يخضع بشكل أعمى لأي إنسان آخر.

الحب المسيحي والمحبة الذاتانية

تختلف المسيحية والنزعة الذاتانية ليس فقط حول الذات وحب الذات ولكن أيضًا في طبيعة الحب ذاتها.

ولبدء التفكير في المفهوم المسيحي للحب، تذكر أن المسيح لخص القانون بأكمله في وصيتين للحب:

« أن تحب الرب إلهك من كل قلبك، من كل روحك، وبكل طاقتك»، و«أن تحب قريبك/ جارك كنفسك».

فمحبة الله أولا، فهو الأساس، ومنه ينبع حب الجار، والحب بهذين الشكلين من صميم الإيمان المسيحي، ولاحظ أيضًا أنه لا توجد وصية مباشرة لحب الذات، إذ يُفترض أن درجة مناسبة من حب الذات أمر طبيعي.

وقد شُرحت نظرية الحب المسيحية هذه لما يقرب من ألفي عام فيما أصبح الآن تراثاً هائلاً، وتشرق في حياة وموت يسوع كما هو مذكور في الأناجيل الأربعة؛ كما كُشِف عنها في كتابات القديس بولس، القديس أوغسطين، سانت برنارد، مارتن لوثر، ويسلي، تولستوي، سي إس لويس، وغيرها الكثير، ويطبق في الوقت المعاصر في مجموعة واسعة من الممارسات الشخصية والمؤسسية.

لقد ظهر الحب المسيحي في المجتمعات المسيحية المبكرة، في التقاليد الرهبانية القديمة التي ما زالت حية، وفي تعبيرات التصوف الأرثوذكسي في العصور الوسطى والشرقية، وفي الرعاية العاطفية التي أبدتها مجموعات حركة التقوى، وفي المستشفيات المسيحية، والإرساليات، وفي جيش الخلاص.

إن حياة القديس فرنسيس في أوروبا في القرن الثالث عشر، والأم تيريزا في كلكتا في القرن العشرين وعدد لا يحصى من المسيحيين المخلصين الصالحين، أمثلة رائعة وفريدة من نوعها تاريخيًا للتعبير عن الحب الذي تتضح فيه علاقة إيمانهم به.

ولعل من المثير للدهشة والقلق أنه لا يوجد في أي مكان من كتابات الذاتانية عن الحب، أي ذكر لهذه المجموعة الكبيرة من النظرية والممارسة المسيحية، ولم تُناقش على الإطلاق.

ويقدم فروم في كتابه الشهير فن المحبة ما وصفه بـ «**نظرية الحب**»، وفي مناقشة محبة الإله، يتبع نهج فيورباخ بافتراض أن «فهم مبدأ الإله يجب أن يبدأ بتحليل بنية شخصية الشخص الذي يعبد الإله».

وبالرغم من أنه أقل عداءً للمسيحية هنا، عن عمله السابق «عقيدة المسيح»، فإنه يستنتج -عبر العديد من الحجج الاجتماعية والتاريخية الغامضة - أن الإله الذي أعلنه اللاهوت المسيحي إنما هو وهم.

وتتضمن مناقشته للحب بعض الاقتباسات من الصوفي المسيحي مايستر إيكهارت الذي يشير إلى ذلك الإنسان هو الإله، ولكن هذه الاقتباسات ليست مسيحية بالتأكيد، وهي تحرف بشكل خطير لاهوت مايستر إيكهارت.

إن نظرة إيكهارت إلى حب الذات واضحة تمامًا، فهو يسميه «السبب الجذري لكل الشرور، وهو سبب حرماننا من كل خير وكمال».

لذلك، إذا أرادت الروح أن تعرف الإله فعليها أن تنكر نفسها؛ فطالما أنها تعكس صورتها فهي لا يمكن أن ترى الإله أو تعرفه.

ولا توجد كلمة عن الحفاظ على نزاهة الذات، واستخدام الذات لتحديد ما هو جيد، أو أي من الموضوعات الذاتانية المألوفة، ويتجاهل فروم - بالإضافة إلى تحريف إيكهارت - تمامًا الجزء الرئيس من الكتابات المسيحية عن الحب.

وبالمثل، يناقش ماسلو في عمله الرئيس *«الدافع والشخصية»* الحب بين الجنسين، وليس لديه أي مراجع مسيحية.

ومع ذلك - في بعض كتاباته اللاحقة - يأخذ على محمل الجد التجربة الصوفية، على الأقل الفهم العلماني لها، ولكن كتابات ماسلو لا تحتوي على أي معالجة للتصوف المسيحي، ناهيك عن أي نقاش حول الحب المسيحي.

كما أن كارل روجرز - في مساهمته الأكثر شهرة في نظرية الشخصية والعلاج النفسي - كتابه في *أن تصبح إنسانًا*، لا يناقش الحب على الإطلاق، كما أن الحب لم يناقش في كتاب روجرز عن مجموعات الدعم، وأيضاً في كتابه *أن تصبح شريكا* ليس لديه نظرية عن الحب، وينصب تركيزه على التوافق الجنسي، وتغيير الأدوار والعلاقات، وتعلم الثقة بالنفس وبالآخرين، وما شابه ذلك، وغني عن القول إنه لا يوجد هنا اعتراف بنظرية الحب المسيحية.

كما أشرنا أعلاه، من الضروري عند مناقشة الحب المسيحي التأكيد على محبة الإله، وقبل كل شيء التأكيد على أن محبة الإله بالنسبة للمسيحي ليست عقيدة فكرية في المقام الأول بل حقيقة تجريبية، وهي واقع تجريبي معاش، ومن هذه الحقيقة التجريبية يبدأ اللاهوت.

وفي التحليل النهائي، كل اللاهوت المسيحي هو نظرية الحب والحب الإلهي، ويمكن لأولئك الذين ليسوا على دراية بمثل هذه الحالة الروحية أو الذين يشكون فيها أن يترجموا «حب الإله» إلى مصطلحات مثل «التأمل» أو «التفكر» أو «التجربة الصوفية»، وهذه الترجمات ليست مناسبة للاهوت المسيحي، لكنها تكفي للتحليل الحالي.

والحجة النظرية المسيحية هي أن حب الإله أو المسيح لا يبرر محبة الآخرين فحسب، بل يسهلها أيضًا بشكل كبير.

ونموذج القديس برنارد الهرمي المكون من أربع مراحل لمحبة الإله تصور مشهور في القرن الثاني عشر لعلاقة المسيحي بالوصية الأولى والفوائد الناتجة عن حب الآخرين.

وملخص موجز لموقفه من كتابه «De diligendo Deo أو "On Loving God" في محبة الإله» يمثل نوعاً من الأدبيات الذي يغفلها أنصار الذاتانية.

يبدأ القديس برنارد بالقول إن الشخص الحكيم يحب الإله لمجرد أن الإله هو الإله، ولكن بالنسبة للآخرين هناك حاجة إلى التوضيح.

فالدرجة الأولى من الحب هي حب الذات للذات، الذي يفترض أنه طبيعي وجيد، ما لم يكن مفرطًا، ففي هذه المرحلة يجب أن يتحكم فيه بوصية محبة الجار كنفسه، والدرجة الثانية هي محبة الإله لما يعطي.

وبالنسبة للمسيحيين، السبب الأولي لمحبة الإله هو أن الإله يحبهم، وأن الإله قد أحبهم أولاً، وهذه المحبة، المُعبَّر عنها بخلق

العالـم، تصـل إلى تعبيـر مهيب في العهـد الجديد؛ «لأنـه هكذا أحب الإلـه العالـم حتى بذل ابنه الوحيد، حتى لا يهلـك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية» (يوحنا ٣: ١٦).

وهكـذا فـإن هـذه الدرجة هي محبـة الإله لكثيـر من بركاتـه ومنها العـزاء الموجود في أوقات الضيق، وعبر هذا الحب يتعلم المسـيحي أولاً حدوده ونقاط ضعفه.

المرحلـة الثالثـة هي محبة الإله لمـا هو عليه، وفي هـذه المرحلة، يُحـب الإلـه لذاتـه تمامًـا؛ لأننا « نكتشـف كم هـو لطيف هـذا الرب، ويغرينا تذوق لطفه إلى الحب النقي أكثر من إلحاح احتياجاتنا».

ويلاحـظ برنـارد أن الشـخص الذي يشـعر بهـذه الطريقـة لن يجد صعوبـة فـي تنفيـذ الوصيـة بأن يحـب قريبه؛ لإنـه يحب الإلـه بصدق ويحـب مـا هـو للإله، إنه يحب بإخـلاص ولا يجد صعوبـة في إطاعة الوصية النقية، حيث يطهر قلبه -كما هو مطلوب- بطاعة المحبة.

أخيـرًا، يصـف برنـارد الدرجـة الرابعة، وهـي صعبة ونـادرة: «هذا الحب جبل، ذروة الإله الشاهقة».

إنـه حقـاً الجبـل الضخـم الخصـب، وأنـا أقـول إنـه إنسـان مبارك ومقـدس، الـذي يمنح تجربة شـيء من هـذا النوع، فهذا نـادر جدًا في الحياة، حتى لو كان مرة واحدة وللحظة واحدة.

أن تفقـد نفسـك -كما لو أنك لم تعد موجـودًا - وأن تتوقف تمامًا عن الإحسـاس بنفسـك، وأن تختزل نفسـك إلى لا شـيء، وهذا ليس شعورًا إنسانيًا بل تجربة إلهية.

ويصف القديس برنارد مواءمة إرادة المرء مع إرادة الإله في هذه المرحلة الرابعة على النحو التالي:

يصبح الحديد المصهور أحمر اللون مثل النار لدرجة أنه يبدو أنه يفقد حالته الأولية؛ مثلما يبدو الهواء في يوم مشمس كأنه قد تحول إلى ضوء الشمس؛ لذلك من الضروري للقديسين أن تذوب كل المشاعر البشرية بطريقة غامضة وتتدفق إلى إرادة الإله، وإلا فكيف يكون الإله في الكل إذا بقي شيء بشري في الإنسان؟ لا شك أن الجوهر يظل تحت شكل آخر، مجد آخر، قوة أخرى.

وتسمح هذه الدرجة الأخيرة بحب الذات «من أجل الإله»، أي: أننا نحب أنفسنا كما يحبنا الإله.

إن تراث الروحانية المسيحية غني بوصف المشاكل التي تعترض الطريق إلى أعلى مرحلة، ولا يوجد إجبار على أنه يمكن للمرء أن يكون مسيحيًا فقط عبر الوصول إلى هذه المرحلة، بالرغم من أنه من المتوقع أن يصل المرء إلى المرحلة الثانية على الأقل.

وبعد عدة مئات من السنين، كان على مارتن لوثر أن يصف الحب المسيحي بطريقة أقل صوفية وأكثر تركيزًا على المسيح، ولكن بطريقة مؤثرة أيضاً، وقد كتب لوثر أن الإيمان «يخطفنا من أنفسنا ويضعنا خارج أنفسنا».

ومرة أخرى، يجب على الجميع أن يحسنوا إلى جيرانهم كما يريدون أن يحسن جيرانهم إليهم، والرجل المسيحي لا يعيش في نفسه بل يعيش في المسيح وفي محبة «جاره/ قريبه».

يعيش في المسيح بالإيمان، وفي قريبه بالمحبة.

وشـرح السير جون سـيلي إيكو (١٨٦٥) سيكولوجية كيف يمكن أن يكـون الحـب المتمحـور حول المسـيح ممكنًا، بشـكل واضح في المقطع التالي:

إن صعوبـة معرفـة مـا هو صواب تنشـأ عـادة من وجـود المصلحة الذاتيـة فـي أذهاننـا، وبما أننا نتصرف بشـكل صحيح مع أي شـخص نشـعر بالعاطفة نحوه أو التعاطف معه، فقد اعتبر المسـيح أن من يشعر بالتعاطف مع الجميع سيعطي كل ذي حق حقه لجميع الناس.

ولكن كيف نمنح القلوب الهزيلة والضيقة مثل هذا الاتساع؟ كيف نجعلها قادرة على التعاطف الشامل؟

لقد اعتقد المسـيح أنه من الممكـن أن يربط الناس بنوعهم، ولكن بشرط واحد وهو أن يكونوا هم مرتبطين به أولاً.

لقـد برز كممثل للناس، وعرف نفسـه عبـر القضية ومصالح جميع البشـر، وكان مُقـدرًا له -كمـا بدأ قبل فترة طويلة بشـكل غامض- أن يبذل حياته من أجلهم، ولعل قلة منا يتعاطف أصلاً وبشكل مباشر مع هـذا التفانـي، وقلة منـا يمكن أن يدرك في الطبيعة البشـرية نفسـها أي ميزة كافية لاستحضارها.

ولكـن ليـس مـن الصعـب أن نحبـه ونكرمه هـو، من شـعر بذلك، بشـغف كبير بالحـب، وتفانٍ كامل، ولـم يسـتطع مجاراته أي أحد بأي درجة في أي مكان آخر، باستثناء بعض مقلديه.

وبمـا أن الحـب يثيـر الحـب، فقد وجـد الكثيرون أنه مـن الممكن تصـور الارتباط بالمسـيح بشـكل لا تصفـه الكلمات، تبجيـلًا يمتلك ويحتوي الإنسان بداخلهم، لدرجة أن أحدهم يقول: «أنا لا أعيش بعد

الآن، ولكن المسيح يعيش في داخلي»، ويحمل هذا الشعور بالضرورة الشعور بالحب تجاه جميع البشر.

ولم يعد يهم ما يمكن أن يظهره الناس من تصرفات؛ وسواء كانوا محبوبين أو غير محبوبين، فهم كإخوة المسيح -باعتبارهم ينتمون إلى نوعه المقدس - وكعلامة على محبته في الحياة والموت، يجب أن يعزهم كل من يعزه.

في كل حالة، يُقال إن محبة الإله والمسيح تزيد من محبة الإنسان للآخرين ولجميع الخليقة، والشكل المسيحي للحب ليس رعاية مجردة للإنسانية بشكل عام، من النوع الذي يوجد غالبًا في الأشخاص الذين يحملون القليل من الحب لشخص معين، كما أنه ليس حبًا للجوانب المشتركة للبشرية جمعاء الموجودة في كل شخص، بل هو حب قوي لكل إنسان بعينه، بغض النظر عن ميزاته وعيوبه، وبالرغم من ضعف أداء معظم المسيحيين في تحقيق هذا الهدف، فمن الواضح تمامًا أن الحب المسيحي له نظرية غنية وواضحة ألهمت حياة الملايين وغيرت حياتهم، وأي نظرية نفسية جادة للحب يجب أن تأخذها في الاعتبار.

قد يرد المدافع عن الذات على أن أعلى وأنقى أشكال الحب التي ينادي بها دعاة إنسانيون مثل فروم لا علاقة لها بالأنانية في أي من تعابيرها، وتوجد بالفعل أوصاف إيجابية للغاية لهذا النوع من الحب في كتابات فروم، فعلى سبيل المثال، يذكر صراحة أن حب الذات الإنساني هو عكس الأنانية والنرجسية، ويعرّف حب الذات الإنساني على أنه الاتحاد مع المحبوب مع الحفاظ على نزاهة الفرد، وهذا الحب ينطوي على الاهتمام الفعال بالآخر والعناية به.

بالرغم من هذا المفهوم الملهم للحب، فقد أدى انتشار علم نفس الذات إلى إضعاف سريع للجوانب العليا من الذات وإلى المزيد من أنواع الإساءات التي وصفناها سابقًا، وقد يُعزى الانهيار المتكرر لمُثُل الذات العليا بشكل مباشر إلى العديد من المفاهيم الأخرى الأكثر جوهرية الموجودة في الموقف الذاتي.

إن ادعاءات فروم اللطيفة عن الحب لا تتوافق ببساطة مع مبادئه النفسية الأساسية الأخرى، والتي تضع كل القوة في الذات المستقلة، وبشكل عام، تؤكد النظرية الذاتية على الذات الواعية المعزولة باعتبارها الحكم الوحيد على ما يجب أن تقدره الذات وكيف يجب أن تتصرف، ويضمن مثل هذا التأكيد انهيار المثل العليا إلى تبرير الأنانية التي تتخللها النرجسية، كما أن العداء تجاه التقاليد وأي سلطة أخرى يؤدي إلى إحداث تأثيرات مماثلة.

ولدى الأفراد المسيحيين -على الأقل إذا كانوا جادين - أدلة كثيرة تبعدهم عن الأنانية المفرطة.

فهناك محبة الإله التي يعبر عنها بالإيمان والصلاة التأملية والتفكر، وهناك أيضًا وعي بإمكانية البشرية العميقة للخطيئة والحاجة إلى الانتباه إلى أفخاخ وأوهام العالم، علاوة على ذلك، هناك المجتمع الديني، الأصدقاء المسيحيون ومجموعات الصلاة، والخلوات، والدعم من الكنيسة ورجال الدين، كما أن هناك تركيزا على التوبة والاعتراف (خاصة في الصلاة) والعقيدة المسيحية وقوانين الإيمان وحضور القديسين.

وتتحد كل هذه الأشياء لمساعدة المسيحي الممارس ليس فقط على عدم الاستسلام للرغبة المستمرة في العودة إلى الذات ولكن أيضًا للوصول إلى مستويات أعلى من الحب والمعرفة الروحية.

بالنسبة لأنصار الذاتانية، يُنظر إلى الإبداع على أنه نمو شخصي عبر تحقيق الذات، وبالتالي يعتبر إنجازًا، وهي الطريقة التي يكتسب بها الفرد قيمته الشخصية، مقارنة مع الآخرين.

بمعنى آخر، فإن الثروة والذكاء والنزاهة كلها تتراجع اليوم مقارنة بقيمة «الإبداع»، والتي تعطيها معظم استمارات التقديم للمدارس العليا والمدارس المهنية أهمية كبيرة، وأصبح التصنيف كمبدع هو الهدف النهائي للملايين.

ولكن بالنسبة للمسيحيين فالتركيز مختلف جدا، حيث يتعلق الأمر بتنمية قدرات المرء في خدمة الإله والآخرين، كما يظهر في مثل المسيح عن المواهب.

ويصف سي إس لويس C. S. Lewis عدم اكتراث المسيحي أو كراهيته للانشغال بالإبداع على النحو التالي:

لا شيء يمكن أن يكون أكثر غرابة في نبرة الكتاب المقدس من لغة أولئك الذين يصفون قديساً بأنه «عبقري أخلاقي» أو «عبقري روحي»، مما يلمح إلى أن فضيلته أو روحانيته «إبداعية» أو «أصلية»، وإذا كنت قد قرأت العهد الجديد بشكل صحيح، فإنه لا يترك مجالًا لـ «الإبداع» حتى بالمعنى المعدل أو المجازي.

ويبدو أن مصيرنا كله يكمن في الاتجاه المعاكس، في الحصول على عطر ليس لنا ولكنه مستعار، في أن نصبح مرايا نظيفة مليئة بصور وجوه لا تشبه وجوهنا.

لذلك يجب أن لا يسعى الفنان أو الكاتب المسيحي أبدًا إلى الإبداع في حد ذاته، بل يجب عليه بدلاً من ذلك محاولة تجسيد بعض انعكاس الجمال الأبدي والحكمة.

ويلاحظ لويس أن النهج المسيحي للأدب -على سبيل المثال - يميل إلى بعض النظريات الموجودة في الأدب مقابل نظريات أخرى.

ويكتب لويس عن الموقف المسيحي:

أن له صلات بالنظرية البدائية أو نظرية هوميروس التي يكون فيها الشاعر مجرد ملهم خامل كسول، كما أن له صلات مع العقيدة الأفلاطونية للصيغة المتسامية التي يمكن تقليدها جزئيًا على الأرض، وهو معارض لنظرية العبقرية كما قد تكون مفهومة بشكل عام؛ وفوق كل ذلك فإنه يعارض فكرة أن الأدب هو تعبير عن الذات.[١]

طبيعة المعاناة

يتمحور نزاع عميق أخير بين المسيحية والنزعة الذاتانية حول معنى المعاناة، حيث يعترف المسيحي بالشر - بما يترتب عليه من ألم، وفي النهاية الموت - كحقيقة من حقائق الحياة، وعبر إنكار المسيحي لذاته في مراحل التربية الروحية، في محاولة للاقتداء بالمسيح، يمكن أن تكون هذه المعاناة بمثابة التجربة التي يُتَوصّل عبرها إلى حياة روحية أعلى.

وهذه النظرة الأساسية من صميم المسيحية، ممثلة بآلام الصليب متبوعة بفرح عيد الفصح، وتقبل جميع الديانات العظيمة وجود

(1) Lewis, "Christianity and Literature," p. 7

الخطيئة والوهم والموت ومن ثم توفر طريقة لتحويلها وتجاوزها، وهذه الطريقة عادة ما تكون صعبة للغاية، ولكن عند اجتيازها بنجاح، يحصل المجتاز على أعلى درجات التقدير.

ويخشى معظمنا التضحيات والتحديات التي تقدمها الحياة الدينية الحقيقية؛ ونتيجة لذلك، فإن القديس الحقيقي أو الشخص التقي بطل في جميع أنحاء العالم.

وفي المقابل، تقلل الفلسفة الأنانية من أهمية الحياة عبر الادعاء بأن المعاناة (وضمنًا حتى الموت) ليس لها معنى جوهري، ويُنظر إلى المعاناة على أنها نوع من السخافة، وعادة ما يكون خطأ من صنع الإنسان كان من الممكن تجنبه باستخدام معرفته للسيطرة على البيئة.

ويبدو الموقف الذاتي متفائلاً وربما معقولًا، عندما يدافع عنه في أوقات الازدهار المادي، ولكن هذه النظرة السطحية، تصبح أقل إقناعاً كلما زادت خبرة المرء في الحياة.

إن الملايين الذين أيدوا بحماس الذاتانية المتفائلة -في مقتبل العمر- بدؤوا الآن يعيشون نفس التجارب القديمة من الوهن الجسدي والخسارة والمرض والموت، وهي دروس تثقب فقاعات التفاؤل السطحي حول النمو السعيد المستمر للذات الرائعة.

فماذا يمكن أن يقال لرجل عاش طموحاً طوال عمره، وعلم في سن الأربعين أن فرصته في مزيد من التقدم قد انتهت وأنه مصاب بمرض خطير، وربما قاتل؟

وماذا يمكن أن يقال لامرأة انتهت آمالها المهنية المبكرة بوظيفة بيروقراطية مرهقة ودائمة؟ وماذا يقول للعامل الأكبر سنًا الذي فقد

وظيفته وأصبحت مهاراته غير مرغوب فيها؟ وماذا يقول المرء للمرأة الوحيدة اليائسة التي يتقدم بها السن مع تاريخ طويل من العلاقات الفاشلة؟ هل يمكن أن ينصح المرء مثل هؤلاء الناس ليصبحوا أكثر استقلالية واعتمادا على النفس؟ هل يقول لأحدهم: «انطلق وحقق نفسك في نشاط إبداعي»؟ فبالنسبة لأشخاص في مثل هذه الظروف، فهذه النصيحة ليست غير ذات معنى فحسب، بل قد تعتبر إهانة.

ومع ذلك، فإن هذه المعاناة هي من صميم معنى الحياة الدينية وواقعها، فعبر البدء بواقعية غير عاطفية حول الوجود، يكون الدين قادرًا على توفير فهم صادق ومتفائل في نهاية المطاف للحالة الإنسانية.

وتبدأ المسيحية بالألم وتنتهي بالفرح، بينما تبدأ النزعة الإنسانية الذاتية بالتفاؤل ولكنها تنتهي بالتشاؤم، ويكون التشاؤم المحبط مضاعفًا؛ لأنه بالرغم من خصائصه الدينية العديدة، فإن موقف الذاتانية - في التحليل الأخير - نوع من الدين الزائف أو البديل القائم على إنكار أي معنى للمعاناة والموت، وهي تجارب لا يمكن أن يحمينا منها.

ويمكننا الآن تلخيص النقاط الحرجة التي أثيرت ضد الذات في الفصول السابقة، يتلقى الافتراض الأساسي للذاتانية الإنسانية - أي: الخير الكامل للطبيعة البشرية (على عكس التأثير الشرير للمجتمع) - انتقادات شديدة للغاية من مجموعة متنوعة من العلماء ودعمًا من قلَة ملحوظة.

إن المفهوم المركزي للذات الواعية عند الإنسانيين ضعيف التعريف، ومليء بالتناقضات، وغير ملائم لا لوصف طبيعتنا النفسية

ولا كأداة للعلاج النفسي الجاد، ولم يُظهر علم النفس الذاتي التطور المنهجي للعلم التقليدي، حيث تؤدي النتائج المكررة والمفاهيم المتزايدة الدقة إلى بناء جيل على عمل الجيل الآخر، وبدلاً من ذلك، تحولت نظريات الذات إلى أيديولوجيات شعبية ومتاجرة بمفاهيم أكثر غموضًا وانتشارًا من تلك التي كانت موجودة قبل أربعين عامًا.

ويمكن أن يُعزى شيوع الذاتانية في جزء كبير منه إلى الفترة الأخيرة من النمو الاقتصادي السريع في مجتمع غني وعلماني بالفعل، مع عدد كبير ومتزايد من الشباب.

ومن المؤكد أنه من الصعب تخيل تحقيق الذات كمفهوم شائع إلا في فترة الثراء والراحة، وزادت ملاءمة الذاتانية لتبرير عقلية المستهلك ولتبرير الميول الطبعية للانغماس الذاتي النرجسي من شعبيتها، واستُخدمت نظرية الذات لتبرير النسبية الأخلاقية، ولتسهيل الطلاق، وبشكل عام لتقويض التماسك الاجتماعي والصالح العام.

وفي كتاباته الحديثة، دعم منطق نظرية الذات روحانية العصر الجديد النرجسية المشهورة على نطاق واسع.

وبالرغم من الطابع غير العلمي للذاتانية الإنسانية، فقد زعمت في كثير من الأحيان أنها -أو سمحت لنفسها بأن -تؤخذ على أنها علم، ونتيجة لهذا التحريف اكتسبت بشكل كبير المال والسلطة والمكانة.

وتنبثق الذاتانية تاريخيًا من النزعة الإنسانية المعادية للمسيحية بشكل واضح، وعداؤها للمسيحية تعبير منطقي عن افتراضاتها شديدة الاختلاف حول طبيعة الذات والإبداع والأسرة والحب والمعاناة.

باختصار: الذاتانية الإنسانية ليست علمًا، بل هي دين بديل علماني شائع، والذي غذى ونشر مذهب عبادة الذات المنتشر اليوم.

الفصل الحادي عشر

رد سياسي

مشكلة علم النفس

سـواء أدرك علـم النفس هذا الموقـف أم لا، فإن مهنة علـم النفس تجد نفسـها في موقف خطر للغاية بسـبب دفاعها عن الدين الإنساني الذاتانـي، ويتجلى ذلك الدفاع في قسـم علـم النفس الإنسـاني الكبير التابـع للرابطة الأمريكية لعلم النفس.

وقـد بدأت المشـكلة التـي أثارها الطابع غير العلمـي لعلـم النفس الإنسـاني تثير جدلًا خطيرًا داخل التخصص منذ عدة عقود، وأصبح علمـاء النفـس التقليدييـن قلقيـن للغايـة مما اعتبـروه تـآكلًا للمعايير العلميـة للموضوعيـة لأي علـم، وعبّـر د. أو. هـب D. O. Hebb بوضـوح عـن هذا القلق في خطابه الرئاسـي لعام ١٩٧٣ أمام الرابطة الأمريكية لعلم النفس.

وقـال بـأن علـم النفـس علـم بيولوجـي وأن محاولة جعلـه علماً إنسـانياً لا ينتـج شـيئا مرضيـاً لا كعلـم بيولوجـي ولا كعلم إنسـاني، وكان أحـد الخيـارات الصادقـة، التـي ذهب إليها هـب، أن على علم النفـس أن يطهـر نفسـه أو يتخلـص مـن عناصـره الدينيـة ويعـود إلى طابعه العلمـي الأصلي الأكثر محدودية ولكنه علمي.

وقد عانت الرابطة الأمريكية لعلم النفس من انقسامات كثيرة في السنوات الأخيرة، وتركها نسبة كبيرة من الباحثين وعلماء النفس الأكاديميين وأسسوا منظمتهم الخاصة: جمعية علم النفس الأمريكية، لقد تخلوا عن الرابطة الأمريكية لعلم النفس بسبب افتقارها إلى الالتزام بالعلم والبحث الموضوعي.

وفي غضون ذلك، أظهرت الرابطة الأمريكية لعلم النفس نفسها بشكل متزايد على أنها جمعية مهنية ومجموعة ذات اهتمامات سياسية / أيديولوجية.

وقد اتخذت مواقف تتفق تمامًا مع علم النفس العلماني والإنساني في تفضيل الإجهاض وحقوق المثليين، وهكذا أيدت الرابطة الأمريكية لعلم النفس APA إزالة المثلية الجنسية من أي قائمة رسمية للأمراض، وتدفع مجموعة قوية من النشطاء المؤيدين للمثليين جنسياً الرابطة الأمريكية لعلم النفس، لجعل العلاج النفسي -حتى للمثليين جنسياً الذين يطلبون الشفاء من ميولهم الجنسية- انتهاكًا لأخلاقيات المهنة.

ويبقى أن نرى ما إذا كان سيُقبل هذا التعبير المتطرف عن التحيز الأيديولوجي، ولكن على أي حال، أصبحت الرابطة الأمريكية لعلم النفس مجرد مجموعة مصالح سياسية أخرى، تمارس الضغط للحصول على خدمات في واشنطن وأماكن أخرى، ولديها الآن الموضوعية والنزاهة المهنية كتلك التي لمعهد التبغ الأمريكي.

وعادة ما يكون رد علماء النفس على انتقادات موضوعيته هو إعاقة هذا النقد، والادعاء بأن النقاد يمثلون مواقف فردية ومعزولة،

وأحيانًا يحاولون إعادة تعريف مفهوم العلم أو الموضوعية من أجل التوافق مع مواقفهم الخاصة.

وينتهي هذا الرد الأخير بجعل مفاهيم العلم والموضوعية غامضة بما يجعلها عديمة الفائدة، والأهم من ذلك، أنه يسمح أيضًا للأديان التقليدية للدخول بوضوح في تعريف العلم!

ومع ذلك، لا يرغب علماء النفس الإنسانيين في السماح للعقائد المسيحية أو اليهودية أو غيرها من المذاهب الدينية بالتدخل في علم النفس «الخاص بهم».

إنهم يريدون فقط توسيع مفهوم العلم بما يكفي للسماح بتصنيف عملهم تحت هذا المعيار الاجتماعي والسياسي والاقتصادي القوي، لكنهم لا يريدون السماح للأديان التقليدية بنفس المزايا، إن هذا بالضبط هو التحريف الفكري الذي استخدموه بشكل فعال في الدفاع عن عقيدتهم العلمانية.

ويبدو أن العديد من علماء النفس العلمانيين والإنسانيين مستعدين تمامًا لقبول التعددية عندما يتعلق الأمر بعلم النفس النسوي أو علم نفس المثليين أو علم نفس السود، لكنهم غير مستعدين لقبول نفس المنطق عندما يتعلق الأمر بعلم النفس المسيحي، ولكن منطق التعددية -حالما يطبق - لا يمكن تجاهله بهذه الطريقة العشوائية.

ونتيجة لذلك، يبدو من المحتمل أن علماء النفس المحترفين عاجلاً أم آجلاً سيقبلون -على الأقل إلى حد ما -سيكولوجية

الأديان التقليدية على أنها تتمتع بوضع علمي في إطار تعددي متزايد.

وإذا لاحظنا فقد أصبحت النظرية البوذية عن الشخصية مقبولة الآن في كتاب مدرسي عام، فلماذا لا يقبل علم النفس المسيحي للشخصية؟

وإذا حدثت مثل هذه التطورات، فستُقوض الكثير من ادعاءات علم النفس بأنه علم بالمعنى التقليدي، وفي الواقع، مع استمرار تطور التعددية في علم النفس، من المرجح أن يتبخر مفهوم علم النفس باعتباره نظامًا متماسكًا، ومن الصعب التكهن بما سيحدث بالفعل في سياسات وأساليب المهنة النفسية، ولكن بالتأكيد هناك حاجة ماسة لتحديات مباشرة للوضع الراهن.

مشكلة المسيحية

بالرغم من أن الحماس للذات قد تضاءل، إلا أن جيلًا كاملاً قد تأثر به بشدة، وأخشى أن المسيحية قد استهانت إلى حد كبير بسلطتها وبإضفاء الطابع المؤسسي على نظام قيمها.

فالذاتانية أصبحت الآن الموقف القياسي لكثير من البيروقراطية الحكومية التي تتعامل مع المشاكل الاجتماعية، وهو بالتأكيد النظام المتحكم فيما يسمى بـ «المهن المساعدة» - علم النفس الإكلينيكي، والاستشارات، والعمل الاجتماعي.

ووصف إيرفينغ كريستول Irving Kristol نفس الوضع الموجود في المؤسسة التعليمية:

لدينا نوع من الإيمان بطبيعة الناس أكثر من العمليات النباتية للطبيعة نفسها، وأنا أستخدم كلمة «إيمان» في قوتها الدينية الكاملة.

فنحن نعتقد حقًا أن جميع البشر لديهم هدف طبيعي في أن يصبحوا أزهارًا، وليس أعشابًا أو لبلابًا سامًا، وأن التجمعات البشرية لديها استعداد طبيعي لترتيب نفسها في الحدائق، وليس في الأدغال أو المزابل، وهذا العقيدة السامية والنبيلة يمكن أن نسميها دين الإنسانية الليبرالية، إنها الأرثوذكسية الروحية والفكرية السائدة في أمريكا اليوم.

وفي الواقع - بالرغم من كل أحاديثنا حول الفصل بين الكنيسة والدولة - يمكن للمرء أن يقول إنه الدين الرسمي للمجتمع الأمريكي اليوم، حيث يمكن انتقاد جميع الأديان الأخرى على أنها مسببة للانقسام وضيق الأفق.

وسبب هذه الهيمنة واضح، حيث يجب أن يكون للبيروقراطية الحكومية بشكل عام، و«المهن المساعدة» بشكل خاص، أخلاقيات يمكن عبرها تحديد أهدافها وأولوياتها وتقييم إجراءاتها.

ويجب أن تكون هذه الأخلاقيات ليست مثاراً للجدل وفي ذات الوقت ملهمة أيضًا وذلك لتبريرها للهيئة التشريعية والناخبين، وتعتبر البرامج المخصصة «للناس» والتي «تساعدك على مساعدة نفسك» هي الأكثر إيجابية من بين أقل القواسم المشتركة المتاحة.

وعبر الاتصالات المتكررة مع علماء النفس الإكلينيكي، وجدت أن هناك شبه إجماع على النزعة الإنسانية، وعندما تُذكر وجهة نظر

مسيحية، فهم اليوم أكثر عرضة للانزعاج مما كانوا عليه في السبعينيات عندما كتبت هذا الكتاب لأول مرة، ثم يمثلون أنهم يستمتعون بالحديث، كما لو عُرضت عليهم قطعاً أثرية.

لكن في أي من الحالتين، لو طرح انسحاب المسيحيين من القيم الذاتانية أو التمرد عليها، فإن رد الفعل (كما كان) هو الغضب أو الانزعاج، ولا يبالي علماء النفس اليوم بالمسيحية؛ لأنهم نادرا ما يسمعونها في بيئتهم المهنية، ولكن عندما يُلفت انتباههم إليها، يظهر العداء واضحًا.

وقبل خمسين عاما كانت «المهن المساعدة» قليلة الأثر، ولكن دورها ضخم اليوم، ولا يزال ينمو مع قيام الحكومة بتوسيع خدماتها الاجتماعية.

إن ترافق هذا النمو مع أخلاقيات نظرية الذاتانية تشكل تحديًا قويًا للإيمان المسيحي، ولا يوجد سبب وجيه للاعتقاد بأن هذا الدين العلماني سيتغير على مر السنين؛ لأنه ليس خيارًا تعسفيًا قائمًا على موضة الستينيات ولكنه جزء ضروري من توسيع البرامج الحكومية لتشمل كل جانب من جوانب حياتنا الشخصية والعائلية.

وسيستمر توسع الفكرة هذا حتى تواجه مقاومة أو تنهار ببساطة من ثقلها، وعلى أي حال، فإن الأيديولوجية العلمانية ضرورة لدولة علمانية، ونتيجة لذلك، يصبح من الصعب أن تكون مسيحيًا جيدًا وأمريكيًا جيدًا في الوقت نفسه.

دعونا نلقي نظرة موجزة على بعض السياسات الخاصة التي تعبر عن الذاتانية عبر البرامج الحكومية وإحدى المجالات التي يرصدها هؤلاء الإنسانيون العلمانيون هو «علم» الموتى[1].

إن المجلات الجديدة، ومعاهد البحوث التي ترعاها الحكومة، و«دورات علم الموتى الدراسية»، وغيرها قد حولت الموت إلى أحدث صناعة للنمو الفكري.

ووصف ملاخي مارتن Malachi Martin النظرية الرئيسة للموت التي توجه هذه الحركة على النحو التالي: «يتحول الموت للجميع من باب إلى جدار!».

أي أن المفهوم الديني للحياة بعد الموت يواجه بالإنكار -بشكل أكثر دقة، بالتجاهل- ويُفسَّر الموت على أنه النهاية المطلقة، ومع أن الطبيعة الدينية لهذه المشكلة واضحة، فإننا نرى مرة أخرى أن البرامج والفلسفة التي ترعاها الحكومات تتحدى وتنافس المسيحية.

والمثال الأكثر وضوحا اليوم هو مجال برامج التثقيف الجنسي في المدارس الثانوية وحتى في المدارس الابتدائية، والتي تبدأ الآن، منذ الصف الأول.

وهذا البلد مليء بالمدارس الثانوية حيث يحث المدير على استخدام الواقي الذكري بينما يرفض بقوة أي إشارة إلى اسم الإله.

---

(١) الدراسة العلمية للوفاة والممارسات المرتبطة بها، بما في ذلك دراسة احتياجات المرضى الميؤوس من شفائهم وأسرهم.

وبالطبع، فقد تُركت القراءة والكتابة والحساب منذ فترة طويلة في مؤخرة النظام التعليمي، لصالح ما يُعرف الآن باسم «التربية العاطفية» (على سبيل المثال: تقدير الذات).

وقد كان التوجه الأيديولوجي الأولي لبرامج التربية الجنسية هو استبعاد النظر في جميع جوانب الجنس باستثناء جوانبه البيولوجية، بالإضافة إلى بعض العواقب الاجتماعية، ولكن هذا الإنكار للطابع الأخلاقي والديني والروحي للعلاقات الجنسية هو تحيز ضد القواعد الأساسية لفهم الجنس.

ويشمل هذا التحيز عرض وجهة نظر دينية معادية للجنس على الطلاب، بالإضافة إلى تسهيل إلغاء قدسية الحب الجنسي، وهكذا يُتَوسّع في نظام القيم العلمانية.

من حيث التشبيه القانوني، يخضع معنى الجنس والغرض منه للمحاكمة في الفصل الدراسي، ولا يُسمح للدفاع الديني بالتحدث أو حتى التواجد.

إن رفض دفاعات وجهة النظر الدينية داخل التعليم العلماني قد يكون له ما يبرره على أساس أن العرض البيولوجي علمي وموضوعي تمامًا.

ولا يمكن رفض الشكاوى حول استبعاد التفسير الديني للجنس بالنَظر إليها على أنها مجرد موقف متوقع لمجموعة من المتشددين المعاصرين والمقموعين جنسيًا والأخلاقيين؛ فهي موجودة أيضاً بين المفكرين النفسيين الأكثر تطورا، ونقتبس مرة أخرى من إرنست

بيكـر Ernest Becker، الـذي يقـدم وجهات نظـره الخاصة وكذلك فهم المحلل النفسـي أوتو رانك Otto Rank لهذه المشـكلة:

إن الأسـئلة التـي يسـألها الطفـل حـول الجنـس ليسـت - علـى المسـتوى الأساسـي - عن الجنس على الإطلاق، إنهـا تتعلق بمعنى الجسـد، برعب العيش مع الجسد.

وعندما يعطي الوالدان إجابة بيولوجية مباشـرة للأسـئلة الجنسية، فهـم لا يجيبون على سـؤال الطفل على الإطـلاق، إنه يريد أن يعرف سـبب وجود الجسـد، ومـن أين أتى، وماذا يعنـي أن يكون المخلوق الواعي بذاته مقيدًا به؟

إنه يسـأل عـن غموض الحيـاة المطلـق، وليس عن آليـة الجنس، وكما يقول رانك، فإن هذا يفسـر سـبب معاناة البالغين من المشـكلة الجنسـية مثل معاناة الأطفال، إن الحل البيولوجي لمشـكلة الإنسانية غيـر مقنع وغيـر كاف للبالغين مثلهم مثل الأطفال.

والجنـس «إجابـة مخيبـة للآمال عـن لغـز الحيـاة»، وإذا تظاهرنا بأنها إجابة مناسـبة، فإننا نكذب على أنفسـنا وعلى أطفالنا.

ويجـادل رانك بشـكل جميل بـأن «التربية الجنسـية» بهذا المعنى إنمـا هي نوع من التمني، والتبرير، والتظاهر بمحاولة تصديق أنفسـنا أننـا بإعطاء معلومات عن آليـة الجنس فإننا نوضح لغز الحياة.

ويمكـن القـول إن الإنسـان المعاصـر يحـاول اسـتبدال الرهبـة والتسـاؤل بسـؤال «كيـف نفعـل ذلـك؟»، ونحـن نعلـم السـبب: إذا

أخفيت سر الخلق في خطوات سهلة خاضعة للتصرف البشري، فإنك تمنع رعب الموت المحتوم علينا وعلى جميع الحيوانات.

ويمكن استنتاج أن الطفل حساس لهذا النوع من الكذب، فهو يرفض «التفسير العلمي الصحيح» للجنس، كما يرفض فوضى التمتع بالجنس دون شعور بالذنب الذي ينطوي عليه ذلك التفسير.

إن التوثيق التفصيلي لكيفية استخدام أموال الضرائب لدعم مذهب عبادة الذات يقع خارج نطاق هذا الكتاب، ولكن من المؤكد أن الطريقة الرئيسة التي يحدث بها ذلك هي عبر الدعم الضريبي الهائل للتعليم، وعبر تعليم العديد من الأنشطة الأخرى التي تقوم بها «المهن المساعدة».

من ستانفورد وهارفارد وصولاً إلى المدرسة الابتدائية المحلية، تتخلل الأيديولوجية الذاتانية تعليم معظم الأمريكيين، وتخرج كليات الدراسات العليا البارزة مؤيدين واضحين لهذه القيم، يجدون بسهولة مناصب مرموقة في البيروقراطيات والشركات الكبرى ووسائل الإعلام، حيث يستمر دينهم الذاتي المكتسب حديثًا في تغذية عملية العلمنة.

وغني عن القول إن المواقف السائدة في هذه المؤسسات هي رفض المسيحية باعتبارها بقايا حمقاء ومتعصبة وغير متحضرة من خَرافات ما قبل الحداثة، ويُدعَى إلى التعددية كقناع للسيطرة الإنسانية العلمانية على الأديان عبر الحكومة أو الجامعة أو أجهزة الأعمال التجارية الكبرى.

ويُنظر إلى الدين على أنه - في أحسن الأحوال - شكل من التراث المحلي قد يكون مثيرًا للاهتمام أحيانًا، وفي أسوأ الأحوال على أنه هجوم أصولي على «حقائق» العلمانية التي لا يمكن التشكيك فيها؛ وهو غير مقنع أبدًا لأولئك الذين يعتقدون أن وعيهم قد ارتفع فوق مثل هذه الأشكال القديمة المحدودة من الفكر.

ويستبعد هؤلاء الناس الدين، ويحذفون حتى اسم الإله من كتبنا المدرسية، ثم يشتكون -عندما يريد الوالدان إعادة ذلك للكتب - من أن الوالدين هم المذنبون بالرقابة!

وهذا الموقف غير النزيه يتبناه عادة عدد من الليبراليين الذين يزعمون أنهم يمثلون الطريقة الأمريكية.

إن فرض ضرائب على المسيحيين لدعم البرامج واسعة النطاق التي تدرس بانتظام النظريات المعادية للمسيحية ليست مجرد حالة خطيرة من التحريف الفكري، بل أصبح انتهاكًا خطيرًا للفصل الدستوري بين الكنيسة والدولة.

وعادة ما كان يأتي انتهاك هذا الفصل في الماضي من التورط الديني غير المبرر في المهام العلمانية، ولكن لا ينبغي أن يكون مفاجئًا أنه مع النمو الهائل للحكومة، فالوضع قد انعكس الآن؛ فالنظام العلماني - الذي يتطفل على جميع جوانب الحياة - يستخدم البرامج التي تمولها وتسيطر عليها الحكومة لنشر عقيدته.

وغالبًا ما يدرك المسيحيون المحافظون بشكل حدسي طبيعة هذه الصراعات دون أن يكونوا قادرين على التعبير عن موقفهم بشكل جلي.

وفي غضون ذلك، غالبًا ما تبتنى الكنائس الليبرالية بحماس الذاتانية وعلم النفس الإنساني دون اعتبار لعدائها للتعاليم المسيحية، ويبدو أن الوقت قد حان لمواجهة هذا برد فعل فكري مضاد لما بعد الحداثة، ومن العلامات الصحية لمثل هذا التفاعل وجود ونمو حركة الدراسة المنزلية وكذلك تأسيس عدد من المدارس المسيحية الجديدة.

وعلى أي حال، يجب أن نستعيد للكنيسة القضايا الدينية والشرعية الكبيرة التي استسلمت للأيديولوجيات العلمانية مثل علم النفس الذاتي.

بالإضافة إلى تطوير النقد الفكري للعلمانية، هناك حاجة إلى استجابة سياسية مسيحية، ولا أقصد بهذه «السياسة المعتادة» - بمعنى الصراعات الأيديولوجية بين اليسار واليمين -؛ لأن الأيديولوجيات المعتادة لكل من الرأسمالية والشيوعية علمانية في الأساس، وكلاهما معاد للمسيحية في أشكالهما الحديثة، ولا أقترح مسيرات أو مظاهرات أو أحزاب سياسية جديدة، ولكن أقترح السحب- الهادئ والمستمر و طويل الأمد- للدعم من الأنشطة المعادية للمسيحية في الدولة الحديثة، سواء كانت هذه الأنشطة تنبثق من «اليسار» (مثل: نظام المدارس العامة) أو «اليمين» (مثل:

وكالة الاستخبارات المركزية)، أو «الوسط» (مثل: دائرة الإيرادات الداخلية).

والشكل الدقيق الذي قد يتخذه هذا الدفاع عن الإيمان يعتمد على الظروف المعينة في كل زمان ومكان، ولا أنوي هنا تطوير نظرية للعمل السياسي المسيحي ردًّا على عداء الحكومة للمسيحية، ولكن هناك حاجة إلى مزيد من الطعون القانونية من قبل المسيحيين للعلمنة المدعومة من الضرائب.

والتعليم العام - الذي هو في الواقع تعليم حكومي، أناني التوجه ومعاد للدين - هو بالتأكيد أحد المجالات ذات الأهمية هنا، لأنه لسوء الحظ، وفي أجزاء كثيرة من البلاد، أصبحت المدارس العامة تهديدًا عامًا.

ولذلك، يجب النظر بجدية في الآثار المترتبة على إبقاء الأطفال في المدارس العامة؛ وربما يكون تسجيلهم في مدارس مسيحية قائمة أو إنشاء مدارس جديدة هو الطريق الأفضل.

وفي كثير من الحالات، يمكن سحب الدعم من المدارس الحكومية بالتصويت ضد الضرائب، أو عن طريق تشجيع القسائم وأشكال الاختيار الأخرى التي تمنح نوعًا من المعاملة المالية العادلة للمدارس الدينية.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الأشخاص الذين يفضلون القسائم هم عادةً فقراء أحياء المدينة الداخلية، وهؤلاء هم الآباء والأطفال

الذين يقعون ضحايا للبيروقراطيات التعليمية العلمانية التي ليست بكفء.

ويجب أن يفكر خريجو الكليات المسيحية في اتجاهات الكليات التي التحقوا بها، وبدلاً من الرد تلقائيًا على المناشدات السنوية للمساهمات المالية لاستعادة الذكريات العزيزة لأجواء الدراسة القديمة، اسأل نفسك لماذا أتبرع بالمال الذي سيستخدم لتقويض إيمان الشباب؟ وعليك البحث عن طرق التبرع بالمال التي ستساعد في دعم دينك بدلاً من دعم أستاذ أناني آخر.

وقد تكون صناديق المنح الدراسية للطلاب المسيحيين مثالاً على ذلك، فإذا كان الابن أو الابنة يفكران في الذهاب إلى مدرسة علمانية، فاسأل الإدارة (وليس الكنائس المحلية) عن نوع البيئة التي ستوفر لتشجيع وتنمية الحياة الروحية للطلاب؟ وكيف هي مقارنة بالبيئات المقدمة لتشجيع وتطوير حياة الطلاب الرياضية والاجتماعية والجنسية، أي: بيئات تعزيز العلمانية؟

ويمكن أن يكون للانسحاب المسيحي المستمر من التعليم الذي تسيطر عليه الحكومة، إلى جانب استمرار نمو التعليم المسيحي، آثار عميقة؛ فالمؤسسة العلمانية - مهما كانت غير مبالية أو تزدري الدين- فهي تعتمد على الدعم الشعبي الواسع.

وإن سحب مثل هذا الدعم، إلى جانب تطوير أنظمة تعليمية بديلة من قبل المسيحيين، يمكن أن يقلل بشكل كبير من حجم وتأثير النظام العلماني الحالي، وهذا الهدف لا يعتبر غير منطقي؛

لأن المـدارس العامة بالفعل مكلفة للغاية، وتنقصها الكفاءة، وتعاني مـن فقدان ثقـة الجمهور المتزايـد، فضلاً عن الافتقـار المتزايد للثقة بالنفـس، وعـلاوة على ذلـك - مع اسـتمرار تقدم سـكان أمريكا في العمر - فإن الضغط لنقل أموال الضرائب المحدودة من التعليم إلى التكاليـف الطبية يمكن أن يتزايد.

لقـد اسـتنفد التعليم العلمانـي الكثير من المعاني السـامية للتعليم العالـي لدرجة أن الطلاب في كل مكان يرون الآن أن الحصول على تعليـم هـو لمجـرد العثـور علـى وظيفة، وقـد اختفـت المُثُـل الدينية والروحيـة والأخلاقيـة، ومـع هـذا الاختفـاء، تناقصـت الحكمـة والمعرفـة إلـى مجرد معلومـات، التي عادة ما تكون مـن النوع الذي سرعان ما يتجاوزه الزمن.

ولا عجب أن الآباء والطلاب يتشككون أكثر فأكثر بشأن «التعليم العالـي»، خاصـة أن تكلفتـه تصـل إلـى عـدة آلاف مـن الـدولارات سـنويًا، ولكـن هذا المعنى الأسـمى بالضبط -الضـروري لأي تعليم ليكـون ذا أهمية جوهرية - يمكن أن يوفره الدين

الفصل الثاني عشر

ما وراء الذات العلمانية

التحيز في الموضوعية

إن الافتراض القائل بأن الطريقة العلمية الموضوعية طريقة محايدة وغير متحيزة لفهم ظاهرة ما بشكل صحيح، يعتبر افتراضاً مقبولاً على نطاق واسع في المجتمع الحديث.

وسأجادل هنا - كنقد رئيس نهائي للذاتانية- أن هذه الطريقة، عند استخدامها لدراسة البشر، تكون أداة أيديولوجية متحيزة بشكل كبير، مما يؤدي حتماً إلى نظرية محددة حول البشرية.

علاوة على ذلك، ترتبط الطريقة الموضوعية ارتباطًا وثيقًا بنظرية نمو الذات الحديثة؛ وخاصة أنها تقترح أن الموضوعية هي العملية النفسية الأساسية وراء نمو الذات.

وقبل المضي قدما في تحرير الادعاء السابق، من الضروري مناقشة العلاقة المتناقضة بين نظرية الذاتانية الإنسانية والطريقة الموضوعية للعلم، فالحجة المركزية لروجرز وماي وآخرين هي أن الطريقة الموضوعية غير كافية إطلاقاً لفهم البشر.

وأكد الوجوديون أيضًا أن علم النفس غير قادر في جوهره على أن يكون علمًا طبيعيًا مقبولاً.

والآن، فـي العلاج النفسـي، تتطلب الطريقة الموضوعية أن يفسـر المعالـج حالـة المريض عبر أدلة مثـل درجات اختبارات الشـخصية، وكممثـل لفئـة في نظريـة أخرى، أي: أن المعالـج يتعامل مع المريض بحسب القدرات التحليلية والاستدلالية.

ويرفـض أنصـار الذاتانية هـذا باعتباره غيـر كاف، بينما في المقابل يركـزون بشـكل كبيـر على قدرة المعالـج على التماهي مـع المريض، للتعاطف معه دون انتقاد.

ويمثل هذا النقد الإنسـاني للطريقة الموضوعية حجة رئيسـة حول حـدود العلـم، وفـي هذا الصـدد، فهذا لا يتوافق فحسـب مع التفسـير الدينـي للطبيعة البشـرية -سـواء مسـيحي أو غيره- بـل يدعمه أيضًا، ومن الواضح هنا أن الدين مدين للإنسانيين!

ولسـوء الحظ، بالرغم من حجج الذاتانييـن النظرية حول علاقات العلاج النفسي، فبالنسبة لملايين الأشخاص الذين قرؤوا عنها وتأثروا بها، كانت النتائج الفعلية عكس ذلك تمامًا.

لقـد حولـت نظرية الذاتانية ذات كل شـخص -كما يراها هو- إلى شيء مادي مجرد، ولـم يسمع الكثير من الناس أبدًا عن الوعي بالذات كشيء يُعبّر عنه والدفاع عنه، لقد أصبحت الذات شيئًا ماديًا لنفسها.

ويتحـدث النـاس عـن صورتهـم الذاتيـة، أو تحقيقهـم لذاتهم، أو احترامهم لذاتهم بالطريقة نفسها التي اعتادوا التحدث بها عن حالتهم الاَجتماعية، أو عن سيارتهم، أو عن قرحة المعدة التي يعانون منها.

وهنـاك نتيجة أخرى غير مواتية للموقـف الذاتاني، فقد أدى التركيز علـى التعاطـف والتماهـي مـع الآخرين -مثـل اللمس والتشـجيع في

مجموعـات الدعـم- إلى رد فعل مبالغ فيه ضد المنطق والموضوعية، وكانـت إحدى النتائج نشـأة اللاعقلانية في العـلاج، ورفض المنطق، وخفض المعايير المعتمدة لتدريب المعالجين النفسيين.

ومن وجهة النظر المسـيحية واليهوديـة، لا يمكن أنْ يُقبل الحدس الطائـش غيـر المنضبط، ولا المنطق المسـيطر عديـم العاطفة، وبأخذ هذه النقاط في الاعتبار يمكننا أن نبدأ النقد النهائي للذات.

التجسـيد (التشـييء) فعل فكري مركزي فـي كل نقد، يأخذ تجربة أولية غير مدروسة ويحول مصدر أو سبب التجربة إلى شيء للدراسة، وهـذا يعنـي أن التجسـيد- كمـا توحـي الكلمة -هـو أخـذ تجربة غير واعيـة، تكـون فيها الذات مدمجة مع السـبب الخارجـي، وفصلها إلى موضـوع وكائن (شـيء)، فالـذات هي الموضوع، والسـبب الخارجي هو الكائن (الشيء).

ويخلـق هـذا الفعـل «مسـافة» بيـن الموضـوع (الـذات) والكائـن (الشـيء)، مما يسمح بفحص الكائن (الشيء)، والنقطة الأساسية هي أن التجربة غير الواعية («الاندماج») هي مثل الاختلاط الجسدي بين الذات والشـيء، التجسيد (التشييء)، أو المعرفة الواعية بالذات، مثل ابتعـاد الـذات عـن الكائن (الشـيء)، ومن ثـم خلق مسـافة و «زاوية» ملاحظة للذات الحرجة.

الحالـة المبكـرة أو الأولـى هي حالة السـذاجة أو البـراءة الطبعية، والتـي تميز كثيرا من فترات الطفولـة وربما الفترات التاريخية المبكرة للمجتمـع، وتأكيد المنظرين الذاتييـن على التعاطف كمصدر للمعرفة الشـخصية يمثل تمسكاً من جانبهم بتقنية تعتمد إلى حدٍ ما على عقلية هذه الحالة الأولى.

والحالة الثانية هي فترة من التباعد الحرج المتزايد - من رفض البراءة - الذي يكتسب الزخم شيئاً فشيئاً مع تزايد الأشياء موضع الدراسة.

إن تاريخ الأفكار في كثير من النواحي هو تاريخ اكتشاف التجارب التي لم تختبر من قبل، والتي تُستخدم فيما بعد كأشياء جديدة للدراسة.

إن عملية تجسيد التجربة هي في الأساس عملية معالجة الأحداث كما لو كانت أشياء، وفي وقت مبكر من الحياة، عندما يميز الطفل بين جسده والأشياء الخارجية عنه، يظهر التجسيد بشكل جيد.

وفي الواقع، يصف علماء النفس هذه العملية على أنها تفرد، أي: انفصال عن «الأشياء» الخارجية (معظم الأشياء الخارجية يقصد بها البشر)، ولكن عند التعامل مع البشر بشكل أكثر موضوعية، تظهر مشاكل مختلفة، وتنطوي المعرفة الموضوعية بشكل جوهري على علاقة قوة، تتغلب فيها قوة الذات على الشيء.

في علم النفس، على سبيل المثال، تتطلب المعرفة الموضوعية للأشخاص تجارب يتمتع فيها الباحث بقدر أكبر من التحكم (اسم آخر للسلطة) في الشخص تحت الدراسة، ويحدَّد تطور العلم إلى حد كبير عن طريق المعدل الذي توفر به التقنيات الجديدة تحكمًا أكثر دقة في الأشياء المدروسة، بعبارة أخرى أن تُعامل كشيء يعني أن تكون تحت سلطة الذات التي تدرسك.

ونظرًا لأن المعرفة الموضوعية تستند إلى سلطة الذات المسيطرة على الكائن (الشيء)، فإنه يترتب على ذلك أن أي تمييز بين الذات والكائن (الشيء) هو حتماً تمييز قوة وبالتالي أيضًا تمييز أخلاقي.

وغالبًا ما يتم التعبير عن هذه العلاقة المعروفة بشكوى: «أنت تعاملني كشيء»، وتشتكي النساء -ولهن الحق- عندما يعاملن كأشياء جنسية، لكن الإجابة على هذا بالتأكيد ليست صراعًا متبادلًا وتنافسيًا على السلطة يعامل فيه كل من النساء والرجال كأشياء، ومع ذلك، فإن هذا هو بالضبط ما يشجعه النهج « الموضوعي»، بينما يزعم أنه إجراء محايد أخلاقيًا لاكتشاف الحقيقة.

وهذا هو التحيز الأساسي الذي يفسر الصراع الأيديولوجي حول التربية الجنسية، فالعرض البيولوجي بأكمله في التربية الجنسية هو عبارة عن معاملة الرجال والنساء والجنس كأشياء، والمشكلة ليست فقط أن النظرة الدينية للعلاقات الجنسية مستبعدة، ولكن إن وجهة النظر الأخلاقية «الموضوعية» هي المهيمنة؛ حيث يصبح الناس والجنس مجرد أشياء.

وتتمثل الحيلة النهائية لمناصري برامج التثقيف الجنسي في منع الناس من إدراك هذا التحيز بالحديث عن الطبيعة «العلمية الموضوعية» لبيولوجيا الجنس، وحتى عندما يشعر المعارضون بشدة بوجود هذا التحيز، فإنهم غالبًا ما يعجزون عن التعبير عنه.

انتقام الكائن «الشيء»

القوة التي تكتسبها الذات -بتجسيد المزيد والمزيد من الأشياء التي تقع تحت سيطرتها- تغذي النمو الذاتي أو التفرد، ويُنظَر إلى العملية على أنها تحقيق للذات، واستقلالية، واستغناء عن الأشياء - الأماكن، والأشخاص، والعادات - التي تقع الآن «في الخارج»، في تلك البيئة التي اندمجت فيها الذات لأول مرة دون وعي.

وصـف هانـز جوناس جيـدًا إحدى نتائـج هذا الـرأي الموضوعي الشائع اليوم:[1]

النظرية الحديثة تدور حول أشـياء أدنى من الإنسان: حتى النجوم، لكونها أشياء شائعة، هي أدنى من الإنسان [حتى في العلوم الإنسانية، التي يكون هدفها الإنسان] موضوعها أيضًا «أدنى من الإنسان»، وحتى تكـون النظريـة العلمية عنـه ممكنة، يجب أن يؤخذ الإنسـان - بما في ذلـك عاداتـه في التقييم -علـى النحو الـذي تحدده القوانين السـببية، كمثال وجزء من الطبيعة.

إن العالِـم يأخـذه علـى هذا النحـو، ولكنه لا يأخذ نفسـه على هذا النحـو حيـث يمـارس حريتـه فـي الاسـتفسـار والانفتاح علـى المنطق والأدلة والحقيقة.

وهكذا فإن الإنسان العليم ينظر إلى الإنسان الآخر أنه أقل منه؛ لأن النظرية العلمية هي أن كل الأشـياء أدنى من الإنسـان العليم وفي هذه الحالـة يمكـن أن يخضعـوا «للنظريـة»، وبالتالـي للسـيطرة، وبالتالـي للاستخدام.

وبعـد ذلك، يمكـن التحكم في الإنسـان الأدنى عـن طريق العلوم الإنسانية وبالتالي يمكن استخدامه.

ومـن الواضـح أن ثمـن هـذا النمـو كبيـر، ومـع الوقت يصبـح غير محتمـل، ولـو كان الموضوع سـيدًا، والكائن (الشـيء) عبـدًا، فعندئذٍ يحـَدث فـي النهايـة بطريقـة هيجليـة حقيقية مـا لا يمكن وصفـه إلا بـ «انتقام الكائن».

---

(1) Hans Jonas, The Phenomenon ofLife (New York: Harper & Row, 1966),

يتصر الكائن في النهاية عن طريق تقليل الموضوع إلى مستوى الكائن الفئوي، ومرة أخرى، كما قال جوناس:

بما أن استخدام ما هو أقل من الإنسان يمكن أن يكون فقط لما هو أقل، وليس لما هو أعلى في المستخدم نفسه، يصبح العليم والمستخدم في مثل هذا الاستخدام، إذا جُعل شاملاً للجميع، فهو نفسه أدنى من الإنسان حتماً، وسيرى المتلاعب نفسه في نفس الضوء الذي جعلته نظريته قابلاً للتلاعب؛ وفي التضامن الشامل للذات مع التواضع البشري العام وسط روعة القوة البشرية، فإن محبته ليست سوى تعاطف مع الذات وهذا التسامح الذي ينبع من ازدراء الذات: نحن جميعًا دمى فقيرة ولا يسعنا إلا أن نكون ما نحن عليه.

يُعرَّف السيد بعبيده، والموضوع بأغراضه، والطبيب النفسي بجرذانه أو حمامه أو قططه.

معضلة النرجسية الوجودية

الانتقام الآخر والمتزامن هو نتيجة المسافة الرهيبة والاغتراب اللاحق عن الآخرين (المجسدين)، ومن الطبيعي أن تخلق هذه المسافة حاجة ماسة للقرب والحب.

عندما يكون الكائن البعيد المتحكم فيه سيارة أو كمبيوتر، فلا ينتج عن ذلك سوى القليل من المشاكل، ولكن عندما تنأى العملية بالنفس عن الزوج، والوالديْن، والإخوة والأخوات، والعشاق - أخيرًا عن الجميع تقريبًا - يصبح الوضع بائساً.

وقد وصف هربرت هندن بعض ردود الأفعال المخيفة وربما المثيرة للشفقة لهذا الوضع المتطور بشكل مؤثر في كتابه The Age of Sensation عصر الإحساس، وهو استكشاف تحليلي نفسي لعدة مئات من الشباب في سن الدراسة الجامعية.

وكان الطلاب الموصوفون من كليات كولومبيا وبارنارد ولا يمثلون بالضرورة جميع البلاد، لكنهم ممثلون لشباب جامعيين أذكياء من الطبقة المتوسطة العليا من المراكز الحضرية والضواحي الرئيسة في البلاد، ولا يوجد ذكر للدين -باعتباره يلعب دورًا في حياة أي من الطلاب - في أي فصل من فصول الكتاب.

ويمكن للمرء أن يرى أن الطلاب وعائلاتهم بالكامل يعيشون بدون قيم دينية، ومن هذه الناحية فالطلاب سمة من سمات جيل نشأ بالكامل تقريبًا على القيم الإنسانية وعلم النفس الذاتي.

وبدأ هندن بتعريف هذا الجيل من حيث «سعيه النشط لفك الارتباطات، والانفصال، والتشرذم، والخدر العاطفي»[1]

وأضاف:

الطلاب الذين رأيتهم جربوا كثيراً من طرق الهروب، وتحركت الاتجاهات الرئيسة في اتجاهين مختلفين على ما يبدو:

الأول نحو الخدر والتجربة المحدودة الخاضعة للرقابة، والآخر نحو العمل الاندفاعي والتحفيز الحسي المتشتت، وفي بعض الأحيان كان نفس الطالب يتناوب بين واحد والآخر.

---

(1) Herbert Hendin, The Age of Sensation (New York: Norton, 1975),

كانت هناك آمال لاكتساب - وليس لشعور- الخبرات الحسية دون تدخل العاطفة، وهي تعكس الرغبة الملحة في عدم اعتراف المرء بمشاعره.

ويمضي في وصف دوافعهم الذاتانية الواضحة:

تتميز هذه الثقافة بالمصلحة الذاتية والنزعة الأنانية التي تقلل بشكل متزايد جميع العلاقات إلى سؤال: ماذا أستفيد منه؟

إن افتتان المجتمع بتعظيم الذات يجعل الكثير من الشباب يحكمون على جميع العلاقات من حيث كسب نقاط أو خسارتها.

وبالنسبة لكلا الجنسين في هذا المجتمع، فإن الاهتمام العميق بأي شخص أصبح مرادفًا للخسارة يبدو أن الرجال يرغبون في منح النساء عطاء أقل وأقل، بينما ترى النساء بشكل متزايد أن مطالب الرجال مهينة بطبيعتها.

وفي مثل هذا المناخ العاطفي، تندر علاقات الحب الرومانسية والعلاقات المثالية بين الجنسين، ويمكن ملاحظة جزء من التباعد بين الجنسين في زيادة العلاقات الجنسية المثلية.

ويتناسب وصف هندن للحياة الأسرية لواحدة من هؤلاء الشابات مع النموذج الذاتاني:

لقد وصفت والديها بأنهم طيبون ومحبون للمتعة ويشبهون نوعًا ما مستشاري المخيم، وأضافت أنها «أحبت نوعاً ما» بعض مستشاريها، رغم أنها كانت بائسة في المخيم، وقالت: والداي ليسا من النوع الذي يشعر بأن الأسرة يجب أن تفعل شيئًا معيناً يوم الأحد؛ لذلك إذا كانا معًا، فسيكونان على ما يرام لأنهما يقومان بأشياء يريدان القيام بها بشكل مستقل.

وإذا حدث أنهما يريدان القيام بشيء ما في نفس الوقت، فلا بأس بذلك، وإذا اضطروا جميعًا إلى الذهاب إلى حديقة الحيوان معًا، فمن المحتمل جداً أن يتخاصما، إنهما أفضل من العائلات التي تشعر أنها يجب أن تكون معًا، والداي ليسا من النوع الذي يضحي بنفسه من أجل أطفاله، ولا أعتقد أن الوالدين يجب أن يفعلوا ذلك.

وتعتنق هذه العائلات الذاتانية القيم الثقافية لدرجة أنها لا تأبه بتوفير ملاذ آمن العالم الخارجي، وبدلاً من ذلك، فالأسرة هي مركز تعظيم الذات والاستغلال ودغدغة المشاعر.

غالبًا ما يقدم Hendin هندن نقدًا عملياً للذاتانية، وهو نقد مرتبط بالنقد المقدم هنا سابقًا:

ينجذب الأشخاص المنفصلون عن مشاعرهم بقوة إلى فكرة أن الحياة عبارة عن لعب أدوار، ويذهب لعب الأدوار هنا (تحليل المعاملات) إلى أبعد من ذلك في تقديم نموذج لكيفية التعامل مع الآخرين دون حتى التفكير في مشاعر المرء تجاههم؛ واللعب هنا محاكاة ساخرة لاهتمامنا بالإتقان والتحكم.

ونتيجة لهذا التأكيد، فالمجتمع يثير الاكتئاب باتجاهه نحو تخفيض قيمة الأطفال والأسرة، كما إن التركيز المتزايد على الإشباع الفردي والمكاسب الفورية والملموسة من جميع العلاقات يشجع على عدم رغبَة الوالدين في العطاء والتضحية أو تحمل مسؤولية الأطفال الصغار.

وتصور أوصاف هندن بالضبط أين ينتهي الكثير من الذاتانية:

فالذات كشخص تحاول بشكل محموم السيطرة على الآخرين - الأشياء - من أجل بناء نفسها كذات، ومع تزايد «وعي» الناس - أي: عندما «تحرروا» من الأشياء وأخذوا دور الذات، أصبحت المنافسة شرسة، وأصبحت الحياة لعبة لا يوجد فيها سوى حالتين: الفوز والخسارة؛ سادي ومازوخي.

وعلاوة على ذلك، فإن الدور الجديد للذات يحمل في طياته ذكرى لا تطاق تقريبًا عن كونه كائنًا / شيئاً مستغلًا في الماضي. هذا، بالإضافة إلى التهديد من احتمال حدوث نفس الشيء في المستقبل، يزيد إلى درجة عالية من الحاجة إلى أن تكون الشخص المهيمن، وتصبح العلاقات الشخصية الحميمة خطيرة للغاية، فإذا أظهرت ضعفًا، مثل الحاجة إلى الحب، قد تتعرض للأذى، وإذا انسحبت لتظهر كفاءتك بالعمل بشكل شبيه بالآلة وكنت خالياً من المشاعر وحققت هويتك عبر الوظيفة، فستصبح معزولا ومتعطشا للعلاقات الحميمة والحب.

وربما تكون هناك راحة في الانغماس مؤقتًا في الأحاسيس الجنسية أو غيرها من الأحاسيس وبعد ذلك يكون احتساب كل تجربة جديدة على أنها تحقيق لهدف ذاتي، ولكن لا مفر من العيش الوحيد الذي يشبه الموت.

ويترك هذا الارتباط المزدوج المؤلم حب الذات كبديل شيطاني «آمن»، ولا يمكن تجنب الفخ لأنه يتبع المنطق الأساسي لتحقيق الذات، بهدف تطوير ذات وجودية مستقلة، لذلك قد يطلق على هذه المتلازمة «النرجسية الوجودية».

وهنـاك أنـواع أخرى من النرجسـية التي تنتج عن تجـارب عصابية مثـل الطفولـة غيـر المسـتقرة أو المفرطة في الدلال، ولكن النرجسـية الوجوديـة تأتـي مـن نهـج حديـث للعيـش يختـاره البالغـون غالبًا في حياتهـم، ونهايتـه هـي المـوت النفسـي (فـي بعض الحـالات، المـوت الجسدي أيضًا) للنفس.

وقد يأتي الموت من التفاني المتزايد لإشباع الأحاسيس (الجنس، أو العنـف، أو المخـدرات) أو من التراجع إلى العالـم المعزول الشـبيه بالآلة للأنا المهنية، وهو عالم بارد، يحسـب حساب كل شيء، وغالبًا مـا تغذيـه الأمفيتامينـات، وفي كلتـا الحالتيـن، هناك ما يشـبه الحبس الانفرادي المشـدد باسـتمرار يقوم علـى القمع المسـتمر للحاجة إلى الحب.

الهروب من الذات

المرحلة ١ : الذات السـاذجة أو الذات ككائن (شيء)

كما ذكر سابقاً، في البداية تُدمَج الذات والشيء في تجربة اللاوعي السـاذجة الشائعة لدى الأطفال، وتنتهي هذه المرحلة عمومًا؛ لأن مبدأ التشييء/ التجسـيد جوهري للبشـر ويتطور بشـكل طبيعـي مع النضج عندما يقارن المرء وينعكس على مجالات أوسـع وأوسـع من الخبرة، ويتعلـم الطفل الصغير أولاً أن يميز الحدود المادية بين الذات والأشياء والأشخاص في العالم المحيط به.

ويؤكـد أنصار روجر وفروم على التعاطف والتماهي مع العميل أو أحد أفراد أسـرته على أنها اسـتراتيجيات واعية لاستعادة نوع المرحلة

١ من المعرفة، وهذه تقنية مشروعة ولكنها محدودة، ويكمن خطرها الكبير في أنها يمكن أن تنحرف بسهولة إلى البحث عن الأحاسيس، مثل: المخدرات أو الجنس أو العنف، كجزء من رد الفعل العام ضد المنطق.

المرحلة ٢: الذات الأنانية أو الذات كموضوع.

تتطور عملية تمييز الذات عن الكيانات الأخرى - التي تسمى التجسيد (التشييء) - عندما تتسع خبرات الشخص، حتى يصل إلى تجسيد العادات الاجتماعية والقيم والمعتقدات وخصائص الشخصية للآخرين، وأخيراً الذات.

وهذا النشاط المتمثل في تحويل المزيد والمزيد من الخبرة إلى معرفة موضوعية يخلق قوة مستمدة من الأشياء التي يتحكم بها الشخص، وباستخدام هذه القوة، تستمر الذات الأنانية، أو الذات كشخص، في النمو والتوسع، و يمكن تسمية قرار الاستعداد لزيادة هذه القوة باستمرار بصفقة فاوست - «عبودية الإرادة» في قلب الغطرسة المعاصرة، وثمن هذه «الصفقة» هو الاغتراب على نطاق واسع عن الأشخاص الآخرين والوحدة التي نشهدها في كثير من الأدب والأفلام الحديثة، هي وحدة شائعة في جميع أنحاء مجتمعنا، و«العلم الموضوعي»، بالطبع، هو التعبير الثقافي الواعي الرئيس لهذا النمط من التفكير.

وتنتهي المرحلة الثانية أخيرًا عندما يُنظر إلى الذات ومبدأ التجسيد (التشييء) على أنهما مجرد أشياء، وبمجرد حدوث ذلك، يبدأ الشك في الذات كموضوع، والشك في كون العملية موضوعية، ويُنظر الآن

إلـى البحـث عن الذات الأصيلة على أنه غيـر أصيل، ومن هنا بدأ هذا الشك ينتشر في جميع أنحاء الغرب.

ويتضـح -وإن كان بشـكل غير كامـل- في الشـكوك المتزايدة في العلـم والتكنولوجيـا والأعمـال والحكومة (أي: الشـك في التجسـيد (التشـيىء) والأنظمة القائمة عليه)، كما يتجلى في الشـك في الذات، والـذي يتجلـى فـي الجاذبيـة الواسـعة لروحانيـة العصـر الجديـد، بمخدراتهـا وتجربتهـا الصوفيـة، والتـي يحـدث فيهـا فقـدان الـذات الحديثة.

إن أعراض الشك في عقلية كانت أساسية بالنسبة للغرب منذ عصر النهضـة متنوعـة للغايـة وهي امتـداد طبيعي جدًا للفكـر الحديث، ولا يمكـن اسـتبعادها باعتبارهـا انحرافـات مؤقتـة، بـل إنها تشـير إلى أن اضمحلال العصر الحديث قد بدأ.

المرحلة ٣: الذات المتسامية أو الذات كمخلوق للإله.

حل المعضلة السابقة ديني وليس نفسي، وسأصفه هنا بمصطلحات مسـيحية، فببسـاطة شديدة، السـبيل الوحيد للخروج هو إنكار الذات، وإطلاقها، ومرة أخرى أن تصبح كائناً (شـيئًا) عن طيب خاطر، وليس موضوعًـا مدمجًـا بسـذاجة مع تدفـق الحيـاة؛ (لأنه باسـتثناء لحظات قصيرة لم يعد هذا ممكنًا)، ولا شيئاً يتحكم فيه آخرون بصفتهم ذواتًا، بلَ كائنًا في محبة الإله وخدمته.

ولكـي يحدث هذا، يجـب على المرء أن يتخلى عن الذات الأنانية وعن إرادتها المسيطرة، المتضخمة نتيجة البناء العلماني.

وهذا الاستغناء ليس مهمة سهلة، لكنه ضروري، ومع استعداد العقل والإرادة، يصبح الإدراك الفائق لمحبة الإله ومشيئته ممكنًا بفضل نعمة الإله.

ولا تكون الحركة إلى المرحلة ٣ كاملة أو متكاملة أبدًا، ويمكن أن تحدث بعدة طرق، فبالنسبة للبعض، يحدث التغيير كتحول عاطفي مفاجئ ومكثف مثل تغيير القديس بولس، وبالنسبة لآخرين، هو التطور النضالي والحفاظ على الحياة الصوفية الحقيقية التي يمثلها القديس برنارد أو القديسة تيريزا، كما أنه بالنسبة للبعض الآخر، فإنه تطور بطيء ومتقطع -في كثير من الأحيان -من الشعور بإرشاد بالعناية الإلهية.

وفي كل هذه الحالات، يلعب المنطق دورًا رئيسا، بل دوراً ضرورياً بالفعل؛ لأن المشاعر قد تصبح مشوهة أو غامضة وقد تفتر، وفي كل هذه الحالات، تبرز ضرورة الصلاة، ومهما كانت فترة التحول قصيرة أو طويلة، فيمكن أن تسمى الولادة الثانية.

توفر الشروط -التي تزيل الحواجز وتسهل الانتقال إلى هذه المرحلة -حقلاً دراسيًا خصباً لعلم النفس الروحي المسيحي (مجال نادر الوجود في أي شكل حديث).

وبالرغم من أن المعرفة قد تكون مفيدة في التحضير للمرحلة المتسامية، فإن العائق الرئيس ليس نقص المعرفة ولكن وجود قوة الإرادة، ولهذا السبب على وجه التحديد، يتميز العهد الجديد تمامًا بدوافع واستعارات تتناقض بشكل مباشر مع سيكولوجية الذات المستقلة، المتمردة، المخلوقة ذاتياً.

«حقًا، أقول لك، ما لم تلتفت وتصبح مثل الأطفال، فلن تدخل ملكوت السماوات أبدًا، من أذل نفسه مثل هذا الطفل، فهو أعظم في ملكوت السنوات» إنجيل (متى ١٨ : ٣-٤).

ويتكرر الحديث عن نفس القلق مرارًا وتكرارًا، على سبيل المثال، عندما يُدعى المسيحيون خدام الإله، وعندما يُدعى الرب راعينا.

والمرحلة الثالثة لها أوجه تشابه مهمة مع المرحلة الأولى، ويمكن تفسيرها جزئيًا، في العبارة المألوفة لبول ريكور، على أنها «براءة ثانية»[1].

وليس هناك شك في أن الوصول إلى المرحلة ٣ قد يكون صعبًا ومؤلمًا، خاصة وأن المنابر مليئة بالحديث عن الاستقلالية، وتحقيق الذات، والعزم الذاتي، والوعي الذاتي، والإبداع المستقل، كما أن النفوس لا تجعل العملية أسهل.

---

(١) كتب ريكور: «إذا لم نعد قادرين على عيش الرموز العظيمة للمقدس وفقًا للإيمان الأصلي بها، فيمكننا، نحن الرجال المعاصرون، أن نهدف إلى (براءة ثانية) في النقد وعبره»، ونقد مثل العمل الحالي يهدف فقط إلى البراءة الثانية، إنها ليست البراءة الثانية بحد ذاتها.

يختلف نوع التفكير المميز للمرحلة الثالثة أو المتعالية نوعياً عن النقد الحديث، الذي لا يزال جزءًا من عقلية المرحلة الثانية، ويُعبِّر عن الفكر «البراءة الثانية» بشكل كامل في يسوع المسيح، وليس بشكل كامل في حياة القادة الروحيين والقديسين.

وفي إطار التحليل النفسي، يمكن فهم المرحلة الأولى من التفكير على أنها عملية تفكير أولية؛ المرحلة الثانية من التفكير هي عملية التفكير الثانوية، اختبار الواقع وراء تطور الذات بأخذ هذا المنطق خطوة إلى الأمام، وسأجادل بأن هناك ما يجب أن يُطلق عليه التفكير العالي، والذي يتجاوز نوعياً التفكير الثانوي.

وفي الختام بعض الملاحظات الشخصية، إن أصعب الأفكار للتعامل معها هي تلك التي وُصِفت للتو، الأفكار التي «تهدد غروري»، فبالرغم من رفضي لنظرية الذات، فلا تزال أجزاء كبيرة مني مغروسة تمامًا فيها، وأعلم في قلبي وفي عقلي أن هذه الأشياء جيدة وصحيحة وضرورية للحياة الروحية، وأعلم أن هناك حاجة لكبح الكبرياء وترك الغطرسة، لكن «أناي» المترفة، المتضخمة ترفض أن أوصف بـ «الجاني البائس»، وتتساءل عن الحاجة إلى التوبة، وأحيانًا تتضجر من الاستعارات التي تشير إلى كخروف أو طفل أو خادم مطيع.

أعلم أن العديد من الأشخاص الآخرين الذين ليسوا مستعدين للاستماع مثلي قد تطردهم هذه الكلمات على الفور، لقد فقدنا مبررات هذه المفاهيم، وهناك حاجة ماسة إلى إعادة التثقيف، فنحن بحاجة إلى علم اللاهوت الأرثوذكسي المحدث.

نحتاج إلى عظات عن الطاعة الراديكالية، وتصوف الاستسلام الخاضع للإرادة، وجمال التبعية، وكيفية التواضع، ونعلم جميعًا أنه يصعب على الشخص الغني أن يصل إلى الجنة، وأنا متأكد من أن الأمر أكثر صعوبة بالنسبة لشخص يحمل درجة الدكتوراه.

مشكلة الدكتوراه - وأنا أشمل هنا الأطباء والمحامين والمهنيين من جميع الأنواع - هي مشكلة الفخر والإرادة، فبالرغم من مقاومتنا، نحتاج جميعًا إلى سماع شيء من شأنه تحسين حالتنا.

الفصل الثالث عشر

هل من مستقبل مسيحي جديد!

نهاية البطولة الحديثة

أصبحت خيبة الأمل من المجتمع الحديث مألوفة وواسعة الانتشار، والسبب الأساسي لذلك هو فشل النماذج البطولية العلمانية في إقناعنا بقيمتها الجوهرية، وقد فقدنا معنى البطولة في الحياة العصرية، فقد مات الأبطال، وتلاشى حتى أعداؤهم المناهضون لهم، وتضاءل دور «الثوري العظيم» في المسرح السياسي.

من البطل الشيوعي الآن ... كاسترو؟ إن النموذج الاشتراكي آخذ في التلاشي، وأصبحت السياسة التقليدية عملية تتلاعب بها وسائل الإعلام للتحكم في الصورة المراد إيصالها، حيث يقوم العرض بانتزاع الجوهر ويترك للمشاهد بقايا من المشاعر البسيطة، وأصبح الأبطال الرياضيون فنانين تجاريين، همهم الأساسي المال، وتدفع رواتب استثنائية غالبًا للاعبين متوسطي المستوى، والذين لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يُنظر إليهم على أنهم «أبطال».

لقد أفسحت المغامرة والاستكشاف المجال منذ فترة طويلة لخلق تحديات مصطنعة واعتبارها بطولة، مثل التجديف عبر المحيط الأطلسي أو تسلق جبل للخلف.

إن المثل العسكري البطولي الأعلى - الذي دمرته أسلحة وأساليب الحرب الحديثة - قد تراجع إلى مجرد حنين لإعادة تمثيل المعارك القديمة التي أحدثت فيها شجاعة الفرد فرقاً.

لقد تآكلت فكرة النظر إلى العلماء كأبطال حتى أن كل ما تبقى هو تألق بارد لمدير نشط يقود فريقًا من الفنيين في مشروع بيروقراطي ترعاه بعض الحكومات، وتُعرض إنجازاته في مؤتمرات دولية كبيرة، تحت أضواء الصحافة.

والأسوأ من ذلك، أن هناك دورًا متزايدًا للعلماء المناهضين للأبطال، الذين يواجهوننا بدعاوى قضائية حول من اكتشف ماذا أولاً، أو ببيانات مزيفة، أو بواقع الهندسة الوراثية أو ببرامج التحكم بالعقل الأكثر كفاءة.

ويعيش ملايين الأفراد الذين يحاولون إيجاد معنى بطولي- في دوامة حياتهم المهنية -هذه الأزمة، فهم يتخيلون إنجازًا كبيرا محاطًا بالمكافآت الكبيرة من المتع المختلفة: أي الوجودية الرواقية في العمل، والنزعة الاستهلاكية الأبيقورية في المتعة.

وهذا الوضع المزدوج لحياة مهنية ناجحة جنبًا إلى جنب مع حياة المتعة المثيرة - والتي غالبًا ما تكون منحطة - هو المعيار في المجلات النسائية مثل كوزموبوليتان، وتُظهر إعلاناتهم ومقالاتهم القِيمة الاجتماعية المعاصرة المرتبطة بالعمل والنزعة الاستهلاكية، والاستراتيجيات المعوقة للكثيرين عن ذلك.

وتحتاج الشركات متعددة الجنسيات والبيروقراطيات الحكومية على حد سواء إلى مهنيين مجتهدين وغير مقيدين وقابلين للتنقل عبر

المنظمات، أي: الأشخاص الذين ينفقون رواتبهم باستمرار للحفاظ على استمرار الاقتصاد الاستهلاكي.

وسرعان ما يتضح عجز البحث عن المتع اللذيذة في أن يكون طريقاً لمعنى أسمى، وربما يمكن لجيل واحد على الأكثر أن يتظاهر بأن مثل هذا البحث «بطولي»، ولكن لا يمكن إخفاء تفاهته المهينة لفترة طويلة، يقول بيكر:

المتعة ليست بطولة بالنسبة لمعظم الرجال، ولم يدرك الوثنيون في العالم القديم ذلك وخسروا بالتالي أمام عقيدة اليهودية المسيحية «الحقيرة»، وبنفس القدر لا يدرك الرجال المعاصرون ذلك، ولذا يبيعون أرواحهم للرأسمالية الاستهلاكية أو يستبدلون أرواحهم - كما قال رانك - بعلم النفس.

ويلقى العلاج النفسي رواجًا متزايدًا اليوم؛ لأن الناس يريدون معرفة سبب عدم رضاهم عن المتعة ويرغبون في البحث عن العيوب داخل أنفسهم.

فشل المهنة

بدأ المثل الأعلى للمهنة يتلاشى، وأصبحت أعداد كبيرة من المهن الآن متخمة، وأصبح من الصعب الاعتقاد بأن العالم بحاجة إلى المزيد من المحامين أو المحاميات.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن التركيز النرجسي اللازم للحفاظ على الوضع الوظيفي يؤدي إلى نوع من العزلة الاجتماعية؛ فالذين ينشغلون بشدة بأنفسهم وأهدافهم الشخصية يضحون عادة بالزواج والأسرة

والأصدقـاء، وحتى لـو نجحت المهنـة، فالعزلة الاجتماعية تستنزف باستمرار أي شعور بالقناعة أو الرضا، وبحلول الوقت الذي تصل فيه إلى الأربعينيات من عمرك، قد يبدو عالم المهنة كئيبًا للغاية.

وقد نتج فشل المهنية جزئيًا عن اختفاء المُثُل العليا الداعمة، ولقد شـجعت الجامعاتُ، ومراكزُ القيم الذاتانية المهنيةَ بشـكل غير واقعي لسـبب عملي، فهم بحاجة ماسـة إلى رسوم التسـجيل للبقاء في سوق العمل.

ولكن الجامعات اسـتخفّت أيضًا بجميع المُثُل الأخرى وحقرتها، كما دمر أعضاء هيئة التدريس الذين يدفعون النسبية التعددية الأشكال الشائعة للمثالية.

ونتيجـة لذلـك، فإن رومانسـية المهنيـة - غير المدعومـة بمُثل مثل الحقائق العلمية (لمن هم في التعليم)، والعدالة (لمن هم في القانون)، والوطنية (للعاملين في الجيش)، وبمُثل الحياة (للعاملين في الطب) - سرعان ما تصبح مجرد وظيفة، وفي هذا الصدد، لاحظ بيلاه وزملاؤه: «غياب الإحساس بالمثل يعني غياب الإحساس بالمعنى الأخلاقي».

وتضمنت الأسباب الأخرى لانهيار المهنية سقف التوقعات العالي غيـر الواقعي للنجاح عند العديد من الشـباب علـى مدار الثلاثين عامًا الماضية، وبعد كل شـيء، عندما يكون كل شـخص «أهم شـخص في العالم بأسره»، فهناك بعض المخاطر السلبية.

وعـلاوة على ذلك، تباطأ النمو الاقتصـادي في الولايات المتحدة إلـى حـد كبير، ومن غير المرجح أن يقترب مـن مثيله في عقود ما بعد الحـرب العالميـة الثانيـة، وأي مشـكلة اقتصاديـة كبيـرة في السـنوات المقبلة لن تؤدي إلا إلى تفاقم الأمور.

وبالإضافة إلى ذلك، توجد نسبة عالية جدًا من فرص العمل الحالية في المنظمات الكبيرة أو البيروقراطيات، ومثل هذه الأنظمة المرهقة تحد دائمًا من فرص التقدم وتدمر فرص العمل الفعال المرضي، وتعمل هذه الأنظمة الكبيرة أيضًا على تسريح الأشخاص بشكل عرضي تمامًا ولا توفر إحساسًا يذكر بالانتماء لمجتمع العمل.

دعونا نلاحظ أيضًا أن العديد من الأشخاص قد اختاروا وظائف، ليس لأنهم كانوا «طموحين» حقًا، ولكن لأن هذا ما يجب القيام به، وفي كثير من الأحيان لم يكن لديهم اهتمام حقيقي بالنشاط المعني، ولذا فالتضحيات التي تتطلبها المهن عادة لا تعني شيئاً لمثل هؤلاء الناس.

وأخيرًا - والأهم من ذلك - أن الوظائف في جوهرها ضعيفة جدًا كمُثل، يمكن من أجلها تحمل العبء النفسي الهائل المرتبط بها.

وكما لوحظ أعلاه، حتى بين هذا العدد القليل من الأشخاص الذين وجدوا نجاحًا مهنيًا عظيمًا، فقلة منهم فقط راضون حقًا، بينما يعيش العديد منهم حياة حزينة وفارغة.

ولم نسمع عن أحد قال وهو على فراش الموت: «لو كنت قد قضيت وقتًا أطول في المكتب!».

إغواء القبيلة

إلى حد كبير، فإن مفهوم «ما بعد الحداثة» يعني حقًا «معاداة الحداثة»؛ وبالتالي، فمما بعد الحداثة أن تكون مناهضًا للعلم، ومناهضًا للمنطق، ومناهضًا للمدينة، ومعاديًا للأعمال التجارية، ومعاديًا للدولة، ومعاديًا للعلمانية بشكل متزايد أيضًا.

ومن ثم، فقد بدأ مجتمعنا بالفعل - في كثير من النواحي - في الحركة بعيدًا عن العلمانية الحديثة والذاتية العلمانية نحو مجموعة جديدة من المثل العليا والأبطال.

ولسوء الحظ، يبدو أن الأبطال الجدد ذوو طبيعة قبلية بشكل متزايد، فالهويات العرقية والإثنية والدينية، التي كانت قد أخفيت في المجتمع البيروقراطي الحديث، يُعمَل الآن على إعادة اكتشاف كل تخصصاتها، (ما سمي «بوتقة الانصهار» شملت فقط الهويات المذابة التي كانت متشابهة تمامًا من البداية).

وتتجه الكثير من دول أوروبا الشرقية نحو خطوط عرقية ودينية، وتعاني الهند من صراع ديني داخلي كبير، ويبدو أن إيطاليا وكندا تتجهان نحو نوع من التفكك، وتظهر الحركات الانفصالية في جميع أنحاء العالم.

وهنا في أمريكا، فإن السؤال عما يمكن أن يجمعنا معًا يدور في أذهان معظم المفكرين المراقبين للمشهد الاجتماعي والسياسي.

لقد كان الكثيرون غير راضين عن شبكات التلفزيون الرئيسة الثلاث لدينا، ولكن الملايين الذين يشاهدونها على الأقل هم من أفراد الشعب الأمريكي، وسيكون لدينا قريبًا عدة مئات من القنوات للاختيار من بينها، وإمكانية تشتت مجتمعنا بين هذه المجموعة الجديدة من الخيارات هائلة، وربما كان تماسكنا بسبب خوفنا من الاتحاد السوفييتي والشيوعية فقط، وعلى أي حال، فإن عدم وجود تهديد خارجي خطير للبلاد يضمن أن النزاعات الداخلية ستزداد حدة.

وفي الرد على أزمة القبلية، لا يمكن أن يكون لعلم النفس الإنساني أي فائدة على الإطلاق، فهو قائم على النسبية الأخلاقية الشخصية، حيث تكون كل أنا -كما كانت -قبيلة ذات سيادة.[1]

ومن تحقيق الذات إلى إيضاح القيم، فإن الفوضى الاجتماعية هي النتيجة الحتمية والمنطقية لنسبية المجتمع العلماني والإنساني الحديث، حيث تطغى عبارات مثل: اختر قيمك الخاصة، اتبع ما يناسبك، وانس أمر أي شخص آخر، ولا تسمح لأي شخص أن يفرض قيمه عليك!

لقد عززت الجامعات - بالتزامها العميق بالتساهل والتعددية - هذا النوع من العدمية الفكرية والأخلاقية، وجادل التفكيكيون بقوة أنه لا يوجد نص مكتوب له أي معنى ثابت، وأن كل التفسير يكمن في القارئ؛ وهكذا نرى النسبية الأخلاقية الفردية يدافع عنها على أعلى المستويات الفكرية؛ إيضاح القيم للأطفال والتفكيك لطلاب الدراسات العليا.

وفي الوقت نفسه، فإن النسويات والمدافعين عن المثليين والسحاقيات وغيرهم من الأقليات يجادلون بأن كل حقيقة (خاصة الأخلاق) هي أيديولوجية.

وفي الوقت الحاضر، توجد هذه الفوضى الفكرية والأكاديمية في المقام الأول في حرم جامعات أمتنا، لكن قبليتها بدأت بالفعل في الانتقال إلى المجتمع بأسره.

---

(1) Arthur Schlesinger, Jr., in The Disuniting ofAmerica (New York: Norton, 1992),

ومن الواضح أن الهجوم العلماني طويل المدى على شرعية كل شيء من القيم المشتركة حتى شرعية المعرفة العلمية قد خلق مأزقًا ثقافيًا هائلاً، وفي الوقت الحالي لا يوجد بالتأكيد أي إجابة لهذا التناقض الاجتماعي، ويبدو أننا مقبلون على فترة من التفكك وتزايد الصراع الداخلي.

الفرصة الناشئة

باختصار، يبدو أن التغييرات الاجتماعية الرئيسة الأخيرة تقصر خياراتنا للولاء على اثنين: الأول: هو الاستمرار في التماهي مع القيم العلمانية الحديثة والمؤسسات التي تجسدها، مثل: الحكومات والبيروقراطيات والشركات والجامعات.

ولكن كما رأينا - فإن النموذج العلماني معادي المسيحية بشكل منهجي - وهو أيضًا نموذج يمكن أن يؤدي لخلق أزمة أخلاقية في عصرنا، عبر التأكيد على الذات العلمانية المنعزلة.

علاوة على ذلك، فإن النموذج العلماني المتجانس ممل من الناحية النفسية - وحتى بغيض - لدرجة أنه لم يعد قادرًا على توليد كثير من الحماس.

وقد يكون البديل هو المثل الأعلى القبلي، حيث تقدم تفاصيل العرق أو الدين أو الهوية العرقية معنى يستحق السعي من أجله، ولكن الثمن باهظ؛ لأن القبلية تتطلب الانفصالية، والتأكيد على ما يميز مجموعة عن أخرى، والتفكير بأنه عنصري، شوفيني، كاره للأجانب.

وبينما يشعر الناس بالاشمئزاز بشكل متزايد من فكرة «الأمريكي العادي» - الذي يصبح كل عام أقل تحديدًا - فليس من الصعب فهم

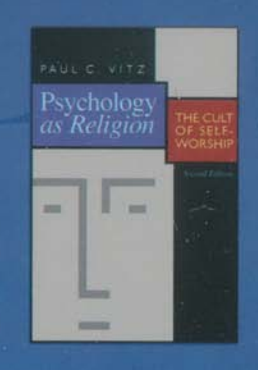
جاذبية القبلية، ولكن المنطق القبلي سينتهي عاجلاً أم آجلاً بإراقة الدماء وبصراع اجتماعي خطير.

ولدى المسيحية فرصة لتقديم إجابة مهمة لهذه المعضلة، فبعد كل شيء، يؤكد الإنجيل بشدة على أن جميع الناس هم جزء من نفس العائلة، ونحن جميعاً أبناء الإله، ويوجد المسيحيون بأعداد كبيرة بين جميع الأجناس والأمم تقريبًا.

إن التركيز على العالمية في المسيحية قوي لدرجة أن الكثيرين ينسبون نفس التركيز في الإنسانية العلمانية إلى الثقافة المسيحية التي نشأت منها، ونحن لسنا جميعًا أعضاء في نفس العائلة فحسب، بل نحن جميعًا خطاة، وكلنا مدعوون للمغفرة لأعدائنا، وكلنا مدعوون إلى نفس الحياة الأبدية.

ومع ذلك، بالرغم من هذا التركيز الشديد على العالمية، فقد عُمِل على تكييف المسيحية مع خصوصية ثقافية كبيرة في جميع أنحاء العالم، فالمسيحية في النمسا، والصين، وأيرلندا، وكوريا، والمكسيك، ونيجيريا، وروسيا، وزنجبار، والعديد من أنحاء العالم غنية ومتنوعة، وعندما تُفهم المسيحية بشكل صحيح، فإنها تمثل خصوصية مجيدة عالمية رائعة.

إن القول بأن المسيحية لديها فرصة غير عادية لحل هذه المشكلة الناشئة لا يعني أن المسيحيين سيرقون إلى مستوى التحدي، فالبروتستانت والكاثوليك في أيرلندا، والصرب الأرثوذكس والكروات الكاثوليك في يوغوسلافيا هم دليل حي - للأسف - على أن المسيحيين يمكن أن يكونوا أكثر إيمانا بقبائلهم منهم بمؤسسهم، ولكن مع ذلك، فإن الإيمان يوفر الفرصة، والأمر متروك للمسيحيين لإيجاد الجواب.



علم النفس دينًا

مذهب عبادة الذات

مع انتشار عبارات مثل " أنت تستطيع" و " لقد خلقت لتفوز" و " أنت القائد لحياتك" وغيرها من عبارات التحفيز الذاتي ، التي لا تتفق بالضرورة مع الواقع ، وتأثير "الفشل" في الوصول للهدف على الصحة النفسية والعقلية والاجتماعية للفرد وتأثير ذلك على المجتمع، يأتي هذا الكتاب لنقد علم النفس المعاصر وتمحوره حول الذات.

ومؤلف الكتاب باول فيتز عالم نفس أمريكي تمتد خبرته لأكثر من 35 عاما، بداية من دراسته الجامعية ثم عمله أخصائيا نفسيا ثم عالما نفسيا درس في جامعات أمريكية مرموقة وهنا بعض الأسئلة التي يحاول المؤلف الإجابة عنا في ثنايا كتابه
هل أصبح علم النفس دينا؟ من هم المنظرون الكبار؟ وما خلفياتهم الدينية؟
ما تأثير علم النفس المعاصر على الأسرة؟ وما علاقته بزيادة حالات الطلاق وانهيار العلاقات الإنسانية بين أفراد المجتمع؟
ما تأثير علم النفس المعاصر على المدارس؟ وهل له علاقة بتدني التحصيل الدراسي؟
لماذا يلقي الإنسان باللوم على الآخرين عند إخفاقه؟ ما علاقة علم النفس المعاصر بحركة العصر الجديد؟ وهل علم النفس المعاصر وثنية جديدة؟
ما علاقة علم النفس المعاصر بالمسيحية والديانات الأخرى؟

"هذا الكتاب للقارئ المهتم بنقد علم النفس المعاصر، القارئ الذي يعرف -ربما بشكل حدسي- أن علم النفس أصبح يعتمد على المشاعر أكثر من اعتماده على العلم وانه أصبح الآن جزءاً من المشكلة في الحياة المعاصرة بدلا من أن يكون جزءاً من الحل"


ISBN 978-603-91900-1-1



